نخبة الفكر

1436هـ - 2015 م

فن القراءة



للشيخ

أبي قتادة عمر بن محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب:

فن القراءة

لفضيلة الشيخ:

أبي قَتادة الفلسطيني

–حفظه الله–

تم كتابته في:

سجن بلمارش البريطاني

الإهداء ثم مقدمة (فن القراءة)

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين.

الإهداء:

إلى والديّ الحبيبين.

إلى زوجتي الغالية.

الطليعة

إن الحمد لله الذي خلق فسوّى، وعلم فهدى، حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وصلى الله على المبعوث بالسيف الحامي والكتاب الهادي محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين، وعلى صحبه الغرِّ الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

لقد منّ الله عليَّ بكرامة الابتلاء في سبيله، وما زلتُ أَرفل بها وأنا أكتب هذه الكلمات مع إخوة طيبِي الخُلق والدِّين، نلتقي فيها لحظاتٍ كحَسواتِ الطائر ثم يأوي كل واحد منا إلى غرفة عارية من كل شيء، هي ولا شك أوسع من القبر، وعيش آلاف السنين فيها ولا ذِلّة غمسة عذاب في جهنم.

مع هذه الغرفة العارية كان الامتحان لي في رهاني الطويل على "القراءة" وهل هي نافعة بعد فقد أداتها من الكتب؛ إذ اعتدت لزمن طويل أن أعيش بينها، أتأملها، أداعب أوراقها، أحل عنها ثياب العذار، وأكشف معها ستر الغائبين، وأَخلص في ثناياها إلى شهقات المحبين، ودموع الجبابرة الذاهبين، وأبني مع حروفها نَفْسًا عصيّة عليَّ في البناء، وأقوّم بها عقلي الذي دمرته الصور الخادعة.

مع الكتب عشتُ شقيًا وطبول الخداع تصم أذني لتصرفني عن حقائق ما أعلم، وتعبت مع الحرف إذ تعاملت معه تعامل المحارب مع السيف الصقيل، فطاحنت، وأعترف أني طحنت كثيرًا وما زلت، ولا أدري هل أصبتُ من غيري مَقتلًا أم لا، إلا أنني سمعت لهم بعض أنين خلص إليّ خلال ضحكهم ورقصهم.

كانت أحبُّ أوضاع النوم عندي –شهد الله– أن أحشر نفسي بين صفوف الكتب، أضيقها عليَّ حتى إذا نمت كانت في عيني صورتها وتحت يدي بشرتها الفاتنة، لا أكتفي منها بالنظر بل بكلّي، كما لم يكتفِ النواسي بلذة مذاق شرابه عن عند سماع اسمه:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سرًا إن أمكن الجهرُ

مع الكتب كنت أعيد الظامئين إلى مواردها، إذ أَضن أن يرد الناس السراب دونها، فإن سألني سائل قلت له: هنا مبتغاك، انظر، اقرأ، لتعرف الفرق بين ما يغريك من صور خادعة وبين ما هو نهر يفيض بالحياة.

كان أول الفرح في حياتي أن سمعني أحدهم فقال: أنت صناعة الرافعي، فطارت نفسي، وكان أولَّ ما فهمت كيف صنعتني القراءة.

وكان ثاني الفرح أن أرسل أحدهم لي رسالة وقال: أنت رجل ولا بدّ صناعة ابن حزم، فطارت نفسي.

وكان ثالث الفرح أن عيّرني أحدهم –وعيّرني الواشون أني أحبه– بأني تيميّ؛ أي ظلًا لابن تيمية، ولم يدرِ أن النفس تطرب لهذا.

حينها أدرك هذا الذي هو أمامي في المرآة، والذي هو ابن الغربة التي أتت على كل نشب وتلاد كان يمكن أن تكون لديه لو لم يُطرد من أرض أقسم له أبوه –وهو البَرُّ الصادق– أنها جبال زيتون مباركة، إذ كان جده بعد صلاة الصبح يحمل مسبحته ذاهبًا إليها ذاكرًا ربه يمسح عن وجهها كل ما يشينها لتبتسم خُضرةً وجمالًا وعطاءً، لكن هذا الجد مات غريبًا تحت غار يحفره ليقتات من عمله فيه.

لقد أدرك حفيد "الغريب" وهو "الغريب" أن القراءة بدأت تتسلل إليه وتصنعه وتنسبه لعالم جديد هو العلم والتاريخ والكلمة، هذا العالم الذي كان يحضّه عليه أبوه، هذا الأب بائع القهوة والشاي، والابن اللابس لنعل مصنوع من عجلات السيارات، ولباسه الداخلي مأخوذ من قماش غلالات الطحين الآتي ليكمل المأساة وصفقة الغَصب وشهادة الزور ووعد الرذيلة. وكيف لا يحض عليه وهو الذي قاسى الألم وهو يترك حقيبة الدراسة في بيته في قرية (دار الشيخ)، تلك القرية التي كان يفطر أهلها على صوت المدفع –مدفع رمضان– القادم من مدينة القدس، ولما حطوا رحالهم –ويا لها من رحال هي الأبدان فقط!– في مدينة (بيت ساحور)؛ طلب من أبيه أن يشتري له حقيبة دراسة جديدة، فرد عليه: "يا ولدي، إنما هي أيام ونعود لقريتنا، وهناك حقيبتك، ولا ضرورة لحقيبتين".

ومحت الأيام تطوي العمر ولا تقدر أن تُذهب الأسى، فما إن أعطته إفاقة حتى فرغ لحفظ كتاب الله تعالى، ومع الشيخوخة حاز مراده، ولما اتصل به الابن من سجنه ليفاخره أنه حفظ كتاب الله مثله، رد عليه بكلمات ما كان يلقيها لوحدها لأُذن هذا الابن المشاغب بل مع سياط يده القوية مؤدِّبًا، فقال: "وها أنا يا غُدر أتعلم النحو".

مع الغرفة العارية كان لا بد من التأمل: من أنا؟ فكان الجواب قاطعًا لا لبس فيه: أنت ابن القراءة، وقد صدق ابن القيم حين قال: "أب للبدن وأب للروح".

هذا الأب لا بد من بعض الوفاء له؛ لأنه أعطاني الكثير، بل أعطاني وجودي، والذي لا ينفك والدي –بائع الشاي والقهوة– مذكرًا لي في كل مكالمة –شهد الله– بقوله: "يا بني ما أنت إلا ابن قهوجيّ، وما حصل لك من خير إنما هو بالعلم، فإياك وخيانته".

فليس الخصوم فقط من يذكرني بمن أنا بل إنه أبي كذلك، ولكن هذا الابن لا ينفك يصيح: ليت فلسطين لم تضِع!

مع الغرفة العارية بدأ "الغريب" يكتب بلا تحفُّظ، فهو ليس على استعداد أن يجمع بين أسوار الإسمنت حوله مع أسوار الوهم والخوف في داخله، وليخطئ ما شاء الله له أن يخطئ، فحجّته حاضرة أنه سجين ولا يملك مراجعًا ولا كتبًا، فهو لا يكتب علمًا بل يكتب عن نفسه.

كتب السجين قصائد الحب ففضحته وأضحكت عليه إخوانه:

تُسائلني ظبيتي ماذا تريدْ ... أما يكفيك بسمتها الخدودْ؟

تُسائلني وقلبها تاللهِ يعلم ... بأن القلب أضناهُ الصدودْ

لماذا ظبيتي دل وغدر ... لماذا قِسمتي منكِ الوعودْ؟

أرشِفُ حبهم روحًا وشهدًا ... وعندي خفقةً نارٌ تقيدْ

وتضحك زمرة الأصحاب مني ... فأسترُ ما علا منه السهودْ

فليت قسمة الأرباع فينا ... على قدر حرقتها الكبودْ

وكتب قصائد غربة الزمان وألق الأولياء فيه:

بكت الصور الجميلة مني يا ابنتي ... والحكمة الأولى بحزنٍ تهاوَت من علِ

والحزن مال مع الرياح مهادنًا ... طمعًا بكسبِ لُعاعةٍ من حنظلِ

ورفيق دربٍ خانَ أعرضَ نائيًا ... من أن يفي بحقوقِ عهدي الأولِ

وبقيتُ وحدي لا ألوم معاتِبًا ... بل أكتسي حبًا بأغلى الحُللِ

يا شامخًا في النور إليكَ مطية ... يمشي الهُوينا رِكابها بتمهُّلِ

وفيها طارت نفسه إلى الولي الصالح –نحسبه والله حسيبه– مُلا الخير محمد عمر:

يا ناقة العزِّ فلتهنئي فرحًا ... ولتشرقي تيهًا بالرفقة الأَثْلِ

إن كان ابن خطاب قد أعقلك زمنًا ... فملا عمر وافاكِ في القللِ

يا ناقة العز ما أدمت نواظرها ... من با ع من أجلها سلطانة الدولِ

في قصيدة تقرب من الخمسين بيتًا هي اللامية.

وكتب "الغريب" بلا تحفظ ولا مواربة انتماءه لأمة الشهادة ورجالها؛ كالشيخ أحمد ياسين:

فأَشهدُ أن سَمْتكَ كان طِبًا ... يداوي كل أدواءِ القلوبِ

وأشهدُ أن موتك يُحيي قلبًا ... تردّد خوضَ أهوالِ الحروبِ

وعن مدن الصمود كالفلوجة:

جبل الصمود يا غرس المآذن تيهي وانشري عبقا

رُدي سلام الرَّاسِفين في قيدِ أعدائهم رهقا

وكتب عن فلسطين أرضِ الزهر والرماح:

هبي يا ريح الجنوب ... واحملي شمس بلادي

أرسلي ذهبًا وتِبرًا ... من ذرى قدس الجهادِ

فيها طفل صار رمحًا ... شق صدرًا للأعادي

يرسل الأحجار نارًا ... من أبابيل الوقادِ

فيها أمٌ تسقي نورًا ... ضاء في كل الوهادِ

فيها نهر الزيت يجري ... من جدود كالعمادِ

فيها نبت الزهر يرسل ... عطره في كل وادِ

أرضها عُجنت بدمٍ ... فهي حنّاء الودادِ

وتأمّل "الغريب" تأمُّل الجالس على صفيح النار، فأيقن أن الأمة تعيش نصرًا قرآنيًا وتاريخيًا، فكتب (لماذا انتصرنا؟)، وحمد الله أن هذا التأمل لم يكن حلمًا، إذ كيف ينام ويحلم الجالس على صفيح النار؟!

وتأمل "الغريب" العقول، فكتب عنها لأنه أيقن أن هناك علة في عقل الأمة حين تتعامل مع الواقع بعقل شعري، وأنه لا حياة إلا بعقل جهادي فاعل، فكتب (الفرق بين العقل الشعري والعقل الجهادي).

وتأمل "الغريب" نفسه وإخوانه والحياة، وبدأ يسجل بعض لمحاتها تحت عنوان (شذرات من الحياة).

ولأنه موقن أن المتأخر لا يقل عن المتقدم فضلًا كما قال في لاميته:

دعيني يا ابنتي أحكي إليكِ ... فكم فعل الآخر كالأولِ

ولأنه كتب:

وتهل السماء ترسل نورًا ... ما الشموس منها تُميتُ هلالًا

فكتب عن شموس اليوم تحت عنوان: (لمحات جمالية معاصرة).

ثم آب إلى "القراءة" ليكتب عنها؛ ليفيها بعض حقها وليكشف عنها بعض ستورها، لعلّ أحدهم يعثر بهذا الكتاب فيقع أسر الحب.

ومع هذا الكتاب كانت أسوار السجن تتساقط حقيرة، كما كانت تتساقط وجاري في الزنزانة الحبيب رشيد رمدة يغني وينشد قصائدي فيرحل بي إلى الحب والأمل وعالم المثال:

تعاظمي يا سياط السجن وارتفعي ... واحجبي النور ما قررت بالفزعِ

وأرسلي همومًا على عين مفتَّحة ... تأبى الهجوع من ذكرى ومن وجعِ

فروحي تأبى أن تُقر مغتصبًا ... أو أن تُقاد لطاغوت من الخلعِ

أو أن تُحد بأسوار منمقة ... أو أن تصيخ لوهم جاء بالجزعِ

هم يقدرون على لحم من البدن ... ولا يلجمون مني طيب مستمعِ

تمنى وأسقط نتن ريحهم ... وأطلق الطين أنوارًا من اللمعِ

فسبحان من صير صوت مبسمه ... روحًا ليملأ كأس العشق بالورعِ

وهكذا كان هذا الكتاب، أصرخ فيه صرخات عنترة بامرئ القيس:

لك الويلات إنك مُرجِلِي

ولكن يأبى إلا أن يفضحني، وكنت أعرضه على أخوين حبيبين حرفًا حرفًا هما رشيد رمدة الجزائري وعادل عبد المجيد المصري، لعلهما يمزقانه خوفًا علي من الفضيحة، فأكتشف أن القوم عشاق "الفضيحة"، وأن السجن علمهما حب الحقيقة وهي عارية، وهكذا كان هذا الكتاب أتحدث فيه عن نفسي، وما من كلمة فيه إلا لي، مع أني أعلم أنه لا يوجد لي فيه حرف واحد، إذ كل ما فيه إنما هي صناعة القراءة، كتبت ما قرأت ورأيت وشعرت وأحسست، فهو لي إن كان غُرمًا، وللقراءة وفضلها إن كان غُنمًا، فلا ينبغي لهذه الصناعة الرائعة أن يُنسب لها ما يشينها.

مع الكتابة عرفت جمال القراءة، ومع معاناتها عرفت قيمة الكلمات، وكُشف لي عن خبيئتها.

وفي الختام سألني أحد الإخوان: ماذا تفعل هذه الأيام؟ قلت: أكتب عن "فن القراءة"، فقال لي: لا أعرف أي فن في القراءة، إنما هي فعل واحد، وهو أن أفتح الكتاب وأقرأ فيه.

ولا أدري أأصاب أم لا، فقد تأملت كل ما كتبت فوجدته إنما هو "دندنة" حول ما قال، فخذ هذا الكتاب كتاب "دندنة" لا أكثر ولا أقل؛ فهل كتاب يُؤلف في خمسة أسابيع بلا مراجع ولا استشارات علمية ولا حوار يرقّيه يستحق أكثر من هذا؟!

بقيت في النفس آمال وكلمات، وإني أحمد الله أنها بقيت، إذ كنت أظن أني ألقي في هذا الكتاب كل نفسي فأرتاح، وما إن قلت: لن أزيد، حتى رأيت أني كتبت شيئًا آخر غير ما قصدته، وأن كل ما أردت أن أكتبه عن القراءة لم أكتب منه حرفًا، بل كتبت أشياء أخرى لم أرسم لها نية ولم أفطُر لها طريقًا.

والله ولينا ومولانا.

عمر بن محمود أبو عمر.

أبو قتادة

سجن بلمارش البريطاني.

القراءة عبادة

ليس عجيبًا أن تكون أول كلمة تكلمها الرب –سبحانه وتعالى– في آخر كتاب أنزله هاديًا للبشرية، ومهيمنًا على كل كلام قاله سبحانه من قبل هي كلمة {اقرأ}.

أمر رباني، وهو أول أمر، وبالتالي هو الأعظم والأجلّ والأفضل، وإذ هي أول كلمة؛ فهي مفتاح كل خير وباب كل هداية، فلا سعادة إلا بالعلم، ولا علم إلا بالقراءة، ولذلك جعل الله إكرامه لعبيده بالقراءة حين قال: {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ}.

ومن تلك الإشارات البينة في أول آيات أُنزلت على رسوله ﷺ مع الأمر بالقراءة هي:

١- {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}؛ فالقراءة خادمة في ذاتها لعظمة الرب وأسمائه وصفاته، ولها منهج وأسلوب لتؤدي غرضها، وخروجها عن هذا المنهج يجعلها سبيلًا لضد مقاصدها العظيمة، وإنه لغني عن القول أن قوله {بِاسْمِ رَبِّكَ} أعظم من أن يكون محصورًا معناه بقول القارئ أو الكاتب حيث يشرع بعمله: "بسم الله الرحمن الرحيم"، وإن قوله سبحانه: {رَبِّكَ} ليشير أن القراءة الأولى هي قراءة الحقيقة الوجودية الأولى –وهي الخلق–، فالرب هو الخالق سبحانه، وهذا هو ركن الربوبية الأولى والذي جعل له صفة التألُّه كما قال سبحانه: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}.

٢- ولذلك قال سبحانه: {رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ}؛ فهذه قراءة للخلق ونشأته من خلال هذا المعنيّ بالخطاب –وهو الإنسان وأوّليته–، فهي قراءة للأوّليات والتي تقتضي بعد ذلك قراءة ما يليها.

٣- قوله سبحانه: {عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}؛ فإن القراءة تقتضي وجود المقروء، والمقروء مكتوب وآلة كتابته القلم، وهو أول ما خلق الله تعالى كما يرجّحه كثير من العلماء استشهادًا بالحديث (أوّلُ ما خلق الله القلم)، وقد كتب الله فيه علم ما سيخلق قبل خلقه بخمسين ألف سنة –كما في الحديث الصحيح–، وقد أقسم الله سبحانه بالقلم وما يسطرون فيه، والله تعالى لا يُقسم إلا بعظيم تنويهًا لعظمة المُقسَم به، كما أقسم بالسماء وبروجها والشمس وضحاها والقمر والنهار، وهذا يدل على عظمة القلم وقيمته، ويدل على عظمة أمر الكتابة –وهو ما يسطر بالقلم–.

فأساس العلم هو الكتاب الذي لا نفع للقلم إلا بوجوده.

والقرآن من القراءة -في وجه من الوجوه-، وهو الكتاب كما قال سبحانه: {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ}، وهذا دليل على أن جمع القرآن في كتاب كما فعل أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- دليله النّص قبل كل دليل آخر يختلف الناس فيه.

٤- وقوله: {عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} دليل أنه لا علم إلا به، فلا علم إلا بالقراءة ولا قراءة إلا في كتاب، ودون ذلك أوهام وتخرّصات وحِيَل.

وقد يقال:

(١) هذا خطاب لرجل أُميّ، وهو رسول الله ﷺ وهو لا يقرأ ولا يكتب.

واجواب: إن القراءة تعني تلاوة المكتوب والمحفوظ، والمحفوظ يكون بالسماع والتلقين، ويكون من الإنشاء ويكون من القراءة في المكتوب، ورسول الله ﷺ لا ينشئ من جهة نفسه، بل ما يقوله إنما هو وحي من الله تعالى يوحى له به: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ}، لا فرق بين القرآن والحديث في هذا الباب، ولا يقرأ من كتاب لأنه أميّ، إنما هو من السماع؛ وذلك مما يلقاه من أمين الوحي جبريل -عليه السلام- والذي يلقاه من الله تعالى وليس من اللوح المحفوظ كما انتشر في كتب "علوم القرآن"، وهذا خاص برسول الله ﷺ لا يشركه فيه غيره، وأما السماع والتلقين من الأستاذ للتلميذ فهذا لا ينتهي، وأصل السلسلة هي الكتاب عن الأستاذ أو من هو أعلى منه، فالأمر انتهى إلى الكتاب.

(٢) ذكر الشاطبي: "إنما العلم هو السماع والشيخ، وأما الكتاب فتابع ولا يمكن استقلاله، بل في استقلاله فساد"، وكذلك قالوا: "من كان الكتاب شيخه كثر خطؤه"، **فالجواب** من وجوه:

١- هذا الكلام تقويم لطريقة القراءة، وهي أن القراءة الأولى تحتاج إلى شيخ مربي يضبط لك النّص ويشرح لك المعنى، ويرتب لك الأوليات، ويربط لك المسائل والمعاني، ولا يمكن حمل هذا الكلام إلا على هذا المعنى؛ لأن أَول الطلب في سلوك مراتب العلم تحتاج للشيخ، وخاصة أن ضبط الكتب قديمًا لم يكن بما عليه ضبطها اليوم من وضع النقاط أو إشارات الترقيم أو فصل الجمل المختلفة، فوقوع القارئ المبتدئ في الخطأ حينها أمر وارد بكثرة، فيقع التصحيف وغيره، ولكن لا يوجد في تاريخ أمتنا قط -مع وجود هذا الكلام وغيره من أهمية الشيخ- النهي عن القراءة في كتاب إلا بعد عرضه على شيخ قراءة تامة؛ فإجازة الكتب دون قراءتها على أصحابها أو رواتها أمر مشهور، وكذلك المناولة والوجادة من طرق تلقي العلم المعروفة قديمًا وحديثًا.

٢- ثمَّ يقال إن هذا التقديم —أعني تقديم طريقة التلقي في العلم على طريقة القراءة- أمر نسبي بحسب الأزمنة والأحوال؛ فالمبتدئ ليس كغيره، وفي مواطن لا يكون إلا أحدهما، وفي كل يكون الشيخ أو التلميذ مصدر علمها الكتاب والنظر فيه لتعاهد العلم واستذكاره، فالكتاب أصل وإن اختلفت طرق التعامل معه.

٣- إن المقصود من كل ذلك حصول العلم، والوسيلة تبع، فإن حصل العلم فهو المقصود، ولا يعاب على الوسيلة بعد ذلك، والسماع والتلقي إحدى الطرق لا كلها —وهي كثيرة-، وهذا الكلام نقوله اليوم للمشيخين تنبيهًا لهم، وتذكيرًا لهم كذلك، نقول أن ما يحصلونه اليوم من إجازات من الشيوخ هي ألبسة تقليدية للتزيين لا أكثر، وكثير منها يرسل بالبريد هدايا، وبارك الله لهم فيها، فالتزيين مطلوب زائد في العلم لا أصلي، وكذا وضع اسم المرء في سلسلة العلماء شيء ترتاح له النفس على ألا يكون خادعًا مانعًا من البذل للدخول في الحقائق وليس فقط لبس الشارات وحمل الألقاب.

(٣) إن المفسِّر لكلام الله تعالى هو رسول الله ﷺ لأصحابه؛ فسيرتهم هي التطبيق الحقيقي لألفاظ الكتاب، فَهُم معانيه، فأين في سيرتهم هذه القراءة التي تفسر هذا الأمر؟ **فالجواب**:

١- لقد كتب أصحاب رسول الله ﷺ القرآن كاملًا، وما من آية سمعوها إلا وكُتبت بقلم وعلى كتاب، وقد جُمع هذا المكتوب في مكان واحد من قِبل أول خليفة لرسول الله ﷺ وجزى الله له حسن صنيعه، وقد عمّت كتابة المصاحف بينهم، فكثير منهم كان له مصحف خاص به ينشره لعبادته كما هو شأن عائشة وابن عمر وأبي هريرة وأبي الدرداء وزوجته الصغرى وكعب وآلاف غيرهم لا يحصيهم إلا الله تعالى.

٢- وقد كتب هؤلاء الأصحاب حديث رسول الله ﷺ في حياته، وقد ذُكر أنه كان لبعضهم زوامل من الحديث النبوي كما ذُكر عن أبي هريرة —رضي الله عنه-، وأنصح في هذا الأمر بالرجوع إلى كتاب عظيم القدر لمصطفى الأعظمي وعنوانه (دراسات في الحديث النبوي) لنرى اتساع هذا الأمر وشيوعه بينهم، وليس كما يظنه البعض أن الحفظ والذاكرة هي مادتهم الوحيدة كما شاع وانتشر.

(٤) وقد يقال: هذا في أمر القراءة الشرعية، فأين هي القراءة الكونية الوجودية كما تشير الآية؟

فالجواب: إن علم الصحابة في هذا الباب هو الأرقى في زمانهم وبيئتهم، فنظرهم في الآفاق وفي أنفسهم بحسب آلات زمانهم ومعارفها هو الأقوم، فهم أبعد الناس عن الخرافة والوهم، ولم يكونوا يقبلون من هذا الباب إلا ما صح لهم في النظر

كما نرى ذلك جليًّا في باب التطبب والاستشفاء، وكما نراه في باب النجوم والاهتداء بها، وأما النفس وحكمتها وتربيتها؛ فلم يبلغ أحد قبلهم ولا بعدهم إلى يوم القيامة ما بلغوه، وإنّ لهم في ذلك أقوالًا وأفعالًا هي أركان هذا العلم كقول عمر –رضي الله عنه–: "لا خير في دين لا صلاة فيه"، فهذا قول ردده العشرات بعده من دارسي الحضارات كبرجسون وغيره، وإن لم يقاربوا غرزه تسديدًا. وأما قراءتهم للإنتاج الإنساني الفكري كالشعر والحكم والخطب؛ فأين هو الذي قارب قممهم؟! كانوا له حفظة ورعاة، فابن عباس –رضي الله عنهما– له مجلس للشعر خاصة، وعائشة كذلك، ونقد عمر للشعر وتمييز أقدار قائليه مشهور معلوم، وهذا كله –وغيره– دليل على قراءتهم الكونية الواسعة خارج رحاب الشرع والنص.

(٥) وقد يقال: ثبت في الحديث غضب النبي ﷺ عندما رأى صحائف من التوراة في يد عمر، وقال كلمته: (أَمُتهوِّكون أنتم؟ والله لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي، ولقد جئتكم بها بيضاء نقية)، وهذا كما يبدو نهيٌ عن القراءة خارج النص الشرعي.

فالجواب:

١- النص واضح أنه نهيٌ عن الاتباع لا عن مجرد القراءة، وذلك لقوله: (والله لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي)، وكذلك في قوله: (أمتهوكون)، وهو نهيٌ عن الانحراف في الاعتقاد والسلوك، وهذا نهي عن قراءة معينة، وهي قراءة التعبد والانقياد لا قراءة العلم والمعرفة والاطلاع والبحث والنظر.

٢- وفي النص بيان عن نهي آخر وهي قراءة "خلط المصادر"؛ فإن مصدر الحق في الاعتقاد والإيمان والعبادة هو ما جاء به رسول الله ﷺ وحده دون غيره، ولذلك قال: (ولقد جئتكم بها بيضاء نقية)، فخلط هذا المصدر بغيره هو المنهي عنه، وهذا نوع آخر من القراءة غير قراءة العلم بمعناه الواسع[١].

٣- ومما يدل على جواز القراءة خارج هذين الأمرين: "قراءة الاتباع، وقراءة خلط المصادر" قوله ﷺ: (حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)، وهي قراءة أخرى جائزة ولا حرج فيها بنص قوله ﷺ، ومن عمم النهي الأول على كل قراءة فقد وهم وضيّق واسعًا، وفهم الأمر على غير ما فهمه أصحاب رسول الله ﷺ من قوله، إذ في سيرتهم النظر في كتب بني إسرائيل والاعتبار من أخبارهم كما وقع لعبد الله بن عمرو بن العاص حين تملّك جرابين من كتبهم وصحفهم، وأما تاريخ الأمة بعد الأصحاب في هذا الباب؛ فشيء يبلغ الغاية كثرة واتساعًا.

[١] **وحتى لا أطيل عليك تستطيع العودة إلى مفهوم "خلط المصادر" وهذه "توحيد المصادر" إلى (معالم في الطريق) لسيد قطب في فصل "جيل قرآني فريد".**

تنبيه: شاع على ألسنة الناس في تقديم السيف على الكتاب بيت أبي تمام في قصيدته الرائعة في فتح عمورية والتي هو مطلعها:

السَّيفُ أصدقُ أنباءً من الكتبِ ... في حدِّه الحدُّ بين الجِدِ واللعبِ

وأبو تمام من الشعراء الذين قرؤوا الشعر بوعي، وهو دارس له قبل أن يكون شاعرًا، ومن قرأ اختياراته المتعددة والكثيرة والتي لم يصل إلينا منها سوى الحماسة ولم يصل إلينا إلا مع شرحه، وقد سمعت مؤخرًا أنه وُجدت له مخطوطة مستقلة، والوحشيات وهو في ذكر أبيات لم يقل صاحبها سواها، وليس كما ظن البعض أنها غريبة أو غير ذلك، أقول من قرأ اختيارات أبي تمام وقراءته للشعر وحفظه له؛ يرى أن أبا تمام أعقل من أن يستصغر الكتاب وخبره بهذا البيت، والسيف لا قيمة له إلا بكتاب يهدي، والكتاب يُهان بلا سيف يحمي، فكيف لو علم القارئ مناسبة البيت والقصيدة غير مدح فتح عمورية؟! ثم كيف لو تابع قارئ القصيدة الأبيات التالية لهذا البيت؟!

لقد ذكر المؤرخون أن المعتصم لما أراد فتح عمورية ردًا عما قام به الروم من نقض العهد وذلك سنة ٢٢٣ للهجرة النبوية الشريفة؛ زعم بعض أهل الطوالع من المنجمين أن المدينة لن تفتح قبل الصيف ونضج الثمار، فلم يأبه المعتصم لقولهم بل غزاها قبل ذلك مكذِّبًا طوالعهم وكتبهم الملفقة المكذوبة، فقال أبو تمام أبيات:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... في حدِهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللَّعبِ

بِيضُ الصَّفائحِ لاَ سودُ الصَّحائفِ في ... مُتُونِهنَّ جلاءُ الشَّك والرِيَبِ

والعِلْمُ في شُهُبِ الأَرْمَاحِ لاَمِعَةً ... بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لا في السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

أَيْنَ الروايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا ... صَاغُوه مِنْ زُخْرُفٍ فيها ومنْ كَذِبِ

تخرُّصاً وأحاديثاً ملفَّقةً ... لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ ولا غَرَبِ

عجائباً زعموا الأيَّامَ مُجْفلةً ...عَنْهُنَّ في صَفَرِ الأَصْفَار أَوْ رَجَبِ

وخَوَّفُوا الناسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَةٍ ... إذا بَدَا الكوكبُ الغربِيُّ ذو الذَّنبِ

وصيَّروا الأَبْرُجَ العُلْيا مُرتَّبةً ... مَا كَانَ مُنْقَلباً أَوْ غيْرَ مُنْقَلِبِ

وهي أبيات تكشف مراد الشاعر كما ترى، لا كما يتوهمه الكثيرون ممن يحتقرون الكتب، وهؤلاء نموذج من القراءة الكسولة كما سيأتي في أصول القراءة.

مفهوم القراءة

يقول تعالى في سورة البقرة واصفًا بذم بني إسرائيل: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ} [البقرة:٧٨].

والأماني هنا هي "القراءة" كما هو معروف في لغة العرب، لكنها قراءة مذمومة أنشأت الوهم والظن الفاسد، ولم تُخرجهم هذه القراءة عن أميَّتهم القبيحة.

فالقراءة ليست مجرد تلاوة للفظ، بل هي علم مؤصَّل مقصدها إنتاج العلم والمعرفة والوصول للحقيقة، وعدم سلوك أصول القراءة تنتج معارف باطلة مغلوطة.

فالقراءة علم ومن أجل تحقيق علم كذلك، وكل قراءة لا تُكوِّن علمًا وتغييرًا فهي حركات ارتعاش صورية، وهي مذمومة في ذاتها لسلبيتها حينًا ولإنتاجها الباطل حينًا آخر.

وهذا العلم له صور وجودية متعددة يجمعها البحث والنظر والتفكر؛ فكل بحث لتحقيق كشف هو قراءة، وكل نظر لإدراك شيء هو قراءة، وكل تفكر لإنتاج علم هو قراءة، فليست القراءة تتعلق بالحرف فقط بل هي تتعلق بالوجود كله، فكل ما هو مخلوق أو مأمور أو مُخبَر عنه أو مُتصوَّر هو المعرفة والبحث والنظر والتفكر فيه هو قراءة، وهذا المعنى داخل في قراءة الوجود في قوله تعالى : {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} كما تقدم سابقًا، فإنها قراءة للتكوين كما قال تعالى:
{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} فهذه الآية تفسر بعض قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ}.

إن ما يمارسه الشاعر من التصوير -أي إيقاف الحدث أو الشيء- وتمثيله قبل التعبير عنه بالبيان الشعري هو قراءة سامية راقية، وإن إنتاج رغيف الخبز –وهو أعظم ما أنتجته البشرية في تاريخها- وذلك حين نظر الإنسان إلى حبة القمح وصنّعها ثم عجنها وطبخها ثم خبزها، هي قراءة تدل على أن العقل الإنساني الأول ليس بأقل من عقل الإنسان اليوم، بل إن قراءة الأوائل هي الأعلى لأنها أوجدت الأسس لما يتمتع به هذا المتأخر المغرور، والذي لا يفتأ يتهم أجداده بالغباء والتخلف، وإن إرسال الطرف إلى السماء لمعرفة ما فيها من هوادي، وتشكيل ما تفرق في زمر سميت بالأبراج هي قراءة لهذا اللوح

الإلهي العظيم، وإن تغلغل الحكيم في تيار الزمن وأحداثه لرصد سننه وقوانينه وصوغها في كلمات قليلة سهلة على الناقلين فيها جرس موسيقى جميل هو قراءة علمية راقية.

إن القراءة ليست اطلاعًا فقط، بل هي تشكيل كذلك، أما جعلها مجرد ارتعاش شفاه فهو الجهل بعينه.

ومن الناحية البدنية البحتة فإن الوقوف أمام أي لوحة والنظر فيها لفهمها هو عين الجلوس مع كتاب والنظر فيه، ولذلك وُجد في البشر من كتب حروفه على شكل رموز وهيئات كما هو شأن الكتابة "الهيروغلوفية" المصرية القديمة، والصينية وتسمى بـ"الايديوغرام"، وكل هذا يتم من خلال أمرين: ١- الرؤية، ٢- ثم المعالجة.

هذا مع الاعتراف أن القراءة غير التفكير، وإن كان ما أعنيه هنا هو المزج بينهما تحت كلمة "القراءة" الجميلة الرائعة، فإن التفكير مهما كان فيه من تخصص زائد عن مفهوم القراءة فإنه يكون ولا شك تابعًا لهذا المفهوم وأثرًا من آثاره ورافدًا له بعد ذلك، والقراءة كذلك فيها تخصص زائد عن التفكير.

وأما الإجابة عن ماهية القراءة من جهة بدنية وتعريفها وماهية حدوثها في الانسان؛ فإني أُخبر قارئي هذه الكلمات: أن كل ما قيل حول هذا الأمر انتهى إلى ما يعرفه الكثير من الناس، ثم وقفت كلمات الباحثين على شفير العجز المنبئ أن {الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}.

إنَّ الآيات الأولى التي منَّ الله فيها على عبيده بأمر القراءة ختمها ربنا بقوله: {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}؛ فمقصود القراءة هو حصول العلم، فإن لم يحصل؛ فلا قراءة، إنما هو ارتعاش وفقط، وهذا مما لا يُمدح به الإنسان في هذا الباب قط[٢].

فالقراءة مفهوم شامل لممارسات بدنيَّة وعقليَّة ونفسيَّة؛ فهي حوار هادئ بين الإنسان والكتاب، وإنتاج وتشكيل لإبداع جديد، وتذكُّر لعلوم ومتع ذهنية سابقة، ورحلة ذهنية لتأويل الحرف ونقله إلى صور متخيلة، وليس فقط تلاوة للفظ أو معرفة جديدة.

والقراءة مدارك ومراتب معرفية متعددة الدرجات، فكلما ارتقى الإنسان كلما كانت قراءته أمتع وأرفع وأوضح، ولهذا فالقراءة ليست حالة تلقي فحسب، لكنها حالة تفاعل بين المقروء والقارئ، وهي مع ذلك حالة وجدانية يمكن بها حصول

---

[٢] ذِكر الله تعالى باللسان دون القلب له أجره لقوله ﷺ: (أنا مع عبدي ما تحركت بي شفتاه)، وهو قول الكثير من العلماء والله أعلم، وهذا له باب آخر غير ما نحن فيه.

الحب والرضى كما يمكن حصول الكره والغضب، سواء بين القارئ والكتاب أو بين القارئ وعالم آخر صنفه هذا الكتاب وقدمه لقارئه.

أعداء القراءة وعوائقها

"أعداؤها هم أعداءُ فوائدها"

في التاريخ الإسلامي ومجتمعاته –وهو ما يعنينا هنا ليس غير– العدو الأكبر للقراءة هم الزاعمون كذبًا وزورًا بإمكانية حصول المعرفة عن طريق آخر سوى القراءة، وأئمتهم في ذلك وكبار دهاقنتهم هم الصوفيّة والخرافيُّون؛ فللعلم عند هؤلاء طريق آخر هو الفتوح الغيبية على الإنسان إنْ ترقَّت نفسه في معارج الغيب عن طريق الذكر والصوم والخلوة، حينها تنكشف له الحقائق المعرفية مشاهدة حقيقية تغنيه عن تصورها الذهني الذي تصنعه القراءة.

هذه الحالة المَرَضيَّة لها تجلٍّ أعلى عند هؤلاء الخرافيين، ولكن لها تداعيات عند آخرين ربما يعلنون صبح مساء أنهم أعداء التصوف والصوفيين، وربما تتقنَّع هذه العداوة بغطاء شرعي تدفع السامع للتسليم وعدم الاعتراض.

شيوع الجهل وعدم المعرفة وضيق الأفق الذهني وفساد التصورات بيئةٌ تستفيد منها مجموعات متعددة ترى فيها مجالًا خصبًا لقنص الغافلين واتخاذهم عبيدًا وسُخرة لتنفيذ تألُّههم الباطل عليهم، وبالتالي يخوفونهم دومًا من النور ويرهبونهم من العلم وينشرون الرعب من القراءة، وإني لا أنسى قط أن أمي –حفظها الله ورعاها ورفع درجتها في الصالحين– كانت تؤكِّد لي في طفولتي ثم فتوَّتي حين تراني مُنكبًّا على كتاب وقتًا طويلًا أن هذه القراءة هي التي تجلب الجنون، وأن كثرتها هي طريق ضياع العقل ولا شك، ولم تختلف الحالة عند بعض من سار لإعادة الدين في حياة الأمة حين ردَّد أمامي "بطريقة أكثر رقيًا!!" أن مصيبة الأمة في هذه الكتب، وأن كثرتها هو الذي خلط الأمور وأفسد الذهن وشتت الوحدة، ولذلك لم أعجب حين طلع بعضهم تحت ستار العلم والفقه والورع إلى اتهام الوعي السياسي والقراءة فيه أنه بدعة حادثة تضر دين الرجل وتؤذي طهره وتشوش عليه مراتب السلوك العلمي والفقهي، فهذه وإن بدت مختلفة المراتب؛ إلا أنها حقيقة واحدة –وهي العِداء للكتاب والقراءة–، وإن "العالِم!!" الذي يحرِّم القراءة في باب من أبواب العلم لم يختلف قط في جوهر رؤاه عن عاميّ ساذج لا يحسن قراءة الحروف، وأمي وإن أرادت الحفاظ على عقل ابنها لرِقَّتها ورحمتها؛ فإن غيرها أراد الحفاظ على كرسي طاغوت من أن يبصر الناس وحشيته ورجسه وخبثه وظلمه، ومبعث الأمرين هو الجهل ولا شك.

هذه العداوة تشكلت في أمتنا من خلال منهج له جذوره التاريخية، رعاه سدنة ودعاة وقنّن له مفتون، وحافظت عليه مؤسسات متعددة لكنّها متواطئة متعاونة، وخدمته عوامل مساعدة كالدول والسلطنات العجمية والتعرب الذي شاع في الأمة في وقت من الأوقات متغافلة عن النهي النبوي الشديد عن التعرب الذي جعله رسول الله ﷺ كبيرة من الكبائر.

يدرك كاتب هذه الكلمات أن العداء للقراءة له جذوره الدينية والسياسية في غير أُمتنا، وأن العداء للكتاب وقراءته له تاريخ أسود قاتم طويل في الغرب والشرق عند غير المسلمين؛ فالكنيسة الكاثوليكية –وهي التي كانت تسيطر على الغرب– كانت تُحرِّم النظر في أي كتاب طبي أو رياضي، وأما كتابهم المقدس فلا يجوز تفسيره لأي أحد سوى السَّدنة الكبار، وكم خرجت من مظاهرات شعبية محتفلة بحرق الكتب وإهانتها كما فعل النّازيون في ألمانيا مرددين أن الحذاء أولى من الكتاب. وهناك المئات من القرارات الحكومية المحرِّمة لنوع من الكتب أو المجرِّمة لكاتب من الكتاب، والغرب في هذا يحوز قصب السبق بلا منازع لمن قرأ تاريخه ووعاه؛ لكن كل ذلك لا يعفينا أنَّ أُمتَنا عانت من وطأة كُره القراءة وهجرانها وما زالت كذلك، وأنَّ أمة متَّسعة الأركان بهذا الاتساع لا يمكن طباعة كتاب فيها –مهما علا شأن صاحبه– أكثر من ثلاثة آلاف نسخة لَشيء يثير الحزن والألم مع العجب والاستنكار.

إن الوصول إلى هذه الحالة العجيبة ليس وليد اليوم، بل مرَّ خلال تعاقب تاريخيّ مُتتالٍ؛ فإن البؤر الضيقة التي كانت في المجتمعات الإسلامية الداعية إلى الجهل بدأت تتّسع وتكبر حتى غلبت علينا وصارت هي الطاغية الحاكمة، وها هنا صورتان متضادتان:

- الصوفي يرى محبرة في يد مريد من المريدين فيصرخ فيه: استر عورتك.
- وَيُرى الإمام أحمد بعد شيخوخة يحمل محبرة في يده مسرعًا الخطى إلى مجلس علم فيُقال له: وإلى الآن يا أحمد؟! فيقول: مع المحبرة إلى المقبرة.

كانت الصورة الثانية هي صورة الأمة في حركتها وذهابها وإيابها، في حلها وترحالها، ترتفق الكتاب وتتأمله، تصطحبه معها في السفر الشاق البعيد، وتجعل الكتب في عدة المرأة إن تزوجت جزءً لا يتجزأ من وجودها وفرحها، والنساخ يتبارزون في الإنتاج والتجويد، صورة رائعة فريدة متألقة، يأوون إليه حين تلقى عليهم ستائر الراحة، وينشر بين أيديهم في مجالس السمر، ويتفاخرون باقتنائه افتخار الجوهري بدرره ولآلئه، فهو عنوان العالم والذكي والحاكم والغني.

ولم يُترك الكتاب عبثًا بلا ضوابط، بل كان له منها نصيبٌ من صوارم الضوابط يحفظه من التزوير والتبديل والتصحيف، ويُقام فيه شواهد صحة النِّسبة لقائله وراويه ومالكه، ويترك للقارئ حواف وهوامش يُنفِّس له فيها عن حواره معه، ونصحوا

الكاتب بأمور تتعلق بالرسم والحرف والغَلط والاستدراك والعناية والمذاكرة علاوة على تحليتها وتزيينها، كل هذا وغيره لم يصل إليه شيء في تاريخنا من العناية والرعاية والضبط، فلا الجواهر الثمينة لها قريب من هذا، ولا الأسلحة مع أهميتها، ولا الثياب، ولا الأبنية؛ لأنهم علموا أن الكتاب هو أُسّ وجودهم وهو عنوان حضارتهم؛ فوجودهم مرتبط بالرسالة وأدائها بوضوحها العلمي وبيانها الأخلاقي وجوهرها القائم على العبودية لرب العالمين.

داخل هذا البناء الشامخ الجميل المتين غزت طلائع وثنيّة وافدة متقنِّعة بالتعبد والنسك والزهد، حانية على الجهالة المركَّبة أنها تدرك سر الوجود وحقيقته الخفيّة، مقتطعة البناء بصور متعددة قوامها "الباطنية" التي خفيت على الكل إلا هم وسادتهم، وغزت أول ما غزت أسلوب العلم وطريقته؛ فالكتاب وأدواته من قلم ومحبرة عورةٌ وخطيئةٌ يمارسها أهل الظاهر المحجوبون عن العلم "اللَّدُنّي" الخفي، ولم يطُل الأمر في عمر الوجود حتى صار لهؤلاء دول وممالك، فصار المغرب لهم وكذا جزيرة العرب ومصر وأجزاء كبرى من الشام، وأطراف الجزيرة من البحرين واليمن، وتحصنوا بالقلاع، وجنّدوا الأغرار الجهلة يتخذونهم مطايا بالخداع والمكر، ولم يكن لهذه الباطنية من طريقة توقف مدَّها الجاهل إلا بالمدارس التي قادها نظام الملك السَّلجوقي والتي سُميت باسمه "المدارس النِّظامية".

ولكن هيهات أن تعود الجدة العلمية كما كانت عند الأوائل؛ فإنه وإن قُضي على تلك الممالك والدول؛ فإن صُروف الحياة وتقلُّب السلطان آلت إلى انشغال الناس، وتباعد البلدان، وضعف الحواضر المدنية، مع هجمات خارجية توالت صبَّت حقدها على العلماء وكتبهم حتى كان من هجمة التتار أن مُلئ أحد النهرين الكبيرين في العراق بالكتب وأحبارها، وصارت ألوانه بلونها.

والعلم يحتاج إلى الاستقرار والأمن، ولكن في واقع الأمر لا أمان ولا استقرار. حتى آل الأمر إلى سلطان العجم من الترك الذين لم يقيموا للعلم سوقًا، بل كان عماد اهتمامهم وتوجههم للقوة فقط، فلسانهم غير لسان العلم الذي تنطق به الأمة وعلماؤها، ولم يُعرف عنهم قط أنهم اهتموا بمدرسة أو معهد، بل شغلهم الجند والقتال، والفاضل فيهم من يتعبد على مذهب المتصوفين ومعارفهم، وأما النصر العلمي فهو نصف نصر إذ التقى العلم مع الجهل في وسط الطريق، فلم تنحسر الباطنية كلها بل انحسر نصفها وبقي جزؤها الآخر من خلال التصوف وفقهه ومعارفه، فلم يأنف العالم أن يكون صوفيًا يرى أن الشرع بالعلم والحقيقة بالجهل، فالكتاب لأهل الظاهر، ولكن للواصلين إلى الحقائق الكشفية غير طريق الكتاب، هذا في الصفوة، أما مجموع الأمة؛ فإن حفظ القرآن دون قراءته هو حد المعرفة ولا مزيد، وأما الكتاب الذي يُقرأ ليحصل به العلم فلا وجود له، وتلاشى القرآن ككتاب يُقرأ ليهدي ويرشد ويقوِّم، وبقي فقط ليجوَّد وتردِّده الشفاه.

وانحسر الحديث حتى عند أهل العلم إلا من أجل البركة فلا دور له حتى في الفقه، إذ الفقه له مصادره الأخرى من المتون وغرائبها وافتراضاتها العقلية العجيبة، وإذا كان الحديث حُسِرَ عن أهم مطالبه –وهو الفقه– بين يدي العلماء؛ فما بالك في غير ذلك من الدروب والمسالك الحياتية والعلمية، وإذا أخرج كتاب من كتب الحديث لقراءته؛ فإنما هو للبركة حينًا أو لرد غوائل الدهر حينًا آخر، فالبخاري يصلح لرد عدوان المعتدين وجيوشهم، والآيات لرد خطر الأمراض وإبراء الزُّمنى والصرع والعصاب العقلي، وهكذا كنت تسير في نهاية دولة بني عثمان في مئات القرى في الإقليم الواحد لا تجد من يتقن القراءة والكتابة –أقصد معرفة صور الحروف فقط–، فانتهى أمر الأمة من قوم كانوا يرون المحبرة عورة إلى أن كُشفت عورة الأمة على صورة من الجهل يخجل الناظر إليها، وصاروا كما قال تعالى: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}، فعادت عليهم عوادي الأمم السابقة، ونخرت فيهم الأمراض حتى استفاقوا على انهيار كامل لبنيانهم تحت ضربات قوم لم يملكوا شيئًا من الخير سوى البارود الذي أرادوه لتنفيذ جهالاتهم وسعارهم ضد أمتنا.

خلال هذه الرحلة نشأت الأمراض واستقرت مفاهيم مغلوطة مصاحبة لأوضاع اجتماعية واقتصادية وسياسية مَرَضيّة كذلك، وكلها تكاثفت على صنع إنسان لا يرى القراءة شيئًا، ولا حاجة له بها ولا أهمية لها، وإن أراد فدونها عوائق داخلية من أمية تتراوح درجاتها بين أمية الحرف إلى أمية الكلمة إلى أمية الفهم والإدراك وغيرها من صور الأمية التي قالها الله في كتابه: {وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ}، حتى إن أحد الباحثين اكتشف مؤخرًا عائقًا مهمًا وخطيرًا يمنع الأمة من القراءة وهي "العامية" التي هي واسطة الإبانة اليومية واختلافها عن واسطة الإبانة في الكتب مما يُشكِّل لدى الإنسان العربي فجوة بين ما يفهمه وبين ما هو موجود في الكتاب؛ فيشق عليه ذلك فينزع للهروب والهجران.

أعمق من ذلك كله هو الهجوم الشرس على مكونات ثقافة الأمة ونثر العوائق أمامها كخيالات وأوهام تكون حواجز نفسية بين الإنسان والكتب، ومن ذلك:

- **اتهام هذه الثقافة بالصعوبة والعسر**، فهي لا تصلح إلا للمتخصّصين، فالشِّعر لا يمكن فهمه وصعب الإدراك، فهو مجرد طلاسم وألغاز لا يمكن لغير المتخصص فهمه وإدراك مرامي أصحابه وبالتالي لا يمكن تذوقه الجمالي، وكذا كتب التاريخ والفقه والحديث والتفسير وغيرها، كتب لا يمكن قراءتها لتحقيق المعرفة والمتعة؛ لأن أي عمل لا يحقق المتعة فلا بدّ من النظر في فائدته وجدواه، وهذه لا متعة ولا جدوى، فَلِمَ يبذل المرء ماله ووقته ويفارق بعض لذائذه وصلاته من أجل هذا الأمر الشاق والمتعب؟! فهجرانها أولى وأروح للنفس والعقل والمال، ولو دعوت أحدًا لمجرد التفكير في هذا الأمر لأدرك كم من الوهم يعيش معه ويتلبَّسه، وفي مرات كثيرة كنت أقرأ لأحدهم قصيدة فلا يلبث أن يسألني

عنها لتمتعه بها وتذوقه لجمالها، أين هي هذه القصيدة وأين أجدها؟! ولا يدري صاحبي أنها في كتاب كنت أقرأ فيه قبل قليل ملقى في بيته لا يأبه له ويرى أن فتحه يحتاج إلى طاقة غير متوفرة فيه.

لا أنكر أن بعض الكتب عسيرة على غير أهلها، لكن ليس الأمر لهذه الدرجة من الوهم القابع في نفوس هذه الأمة، وإنه بقليل من السؤال والبحث سيكتشف القارئ متعة المحتوى وروعته وأنه يستحق هذا العناء والذي هو أقل من معاناة كثير من المتع الحياتية التي يمارسونها.

الشعر مثلًا مع وجود بعض وحشية الغريب، لكن في أغلبه سهل ميسور، حتى الشعر الجاهلي، فإنك إن أزلت غرابة بعض الأسماء -كأسماء الأماكن أو النباتات أو الحيوانات-؛ تجده مفهومًا يمكن تذوقه والاستمتاع بجماله وروعته، وها هي أُمّات الشعر الجاهلي؛ الطوال المعلقات يمكن فهمها بسهولة بعد بعض الجهد والاستعانة بشرح الأماكن والأسماء، مع التنبيه أن الشعر لا يمكن التمتع به إلا بالقراءة الإنشادية وليس بالقراءة الصامتة كما سيأتي في طقوس القراءة، إذ الإيقاع والموسيقى جزء أصيل من أسس الجمال فيه، والدراسة الجماعية تعين المبتدئ في ذلك وتفتح له الطريق.

هذا في الشعر وهو أشق ما يعاني منه القراء ويستثقلونه، فكيف بغيره؟!

لنرى بعض المقاطع من المعلقات والتي يعتبرها الكثير اليوم أشبه بالطلاسم التي لا يمكن حلها ومعالجتها وفهمه،ا لنرى سهولتها ويسرها وروعة التصوير، أما الموسيقى والإيقاع فهذا يمكن للقارئ أن يمارسه بنفسه مع أهله أو إخوانه حين تضبط بطريقة صحيحة في النطق والتلفظ.

يقول طرفة بن العبد في معلقته:

لِخَولةَ أطْلالٌ بِبُرقَةِ ثَهمَدِ ... تلوحِ كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

وُقوفاً بِها صَحبي عَلَيَّ مَطيَّهُم ... يَقولونَ لا تَهلِك أَسىً وَتَجَلَّدِ

كَأَنَّ حُدوجَ المالِكيَّةِ غُدوَةً ... خَلايا سَفينٍ بِالنَواصِفِ مِن دَدِ

عَدَوْلِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِيْنِ ابْنَ يَامِنٍ ... يَجُورُ بها الـمَّلاح طوراً وَيَهتدي

يَشُقُّ حَبَابَ المَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا ... كما قسَمَ التُّربَ المُفايِلُ باليَدِ

إن علمت أن "خولة" هي اسم حبيبة الشاعر، وأن "برقة ثهمد" اسم مكان، وأن "المالكية" نسبة إلى بني مالك والذين هم جزء من قبيلة كلب، وأن "دد" اسم مكان، وأن "عدولية" نسبة لقبيلة عدولي في البحرين، و"ابن يامن" رجل من رجالها، فماذا بقي فيها من صعوبة لفهم مراد الشاعر؟!

فكلمة "الأطلال" ما زال الناس يستخدمونها ويتفنَّون بها، و"الوشم والمطايا وخلايا والسَّفين -جمع سفينة- والحيزوم" كلها كلمات متداولة معلومة، وربما يشق على البعض كلمة "حدوج" وهي الهودج أي مراكب النساء، و"حباب البحر" هو عباب البحر أو الماء وهي الأمواج. و"النواصف" هي ما كان حول الأودية من الطرق وغيرها. و"المفايل" هو اللاعب بالتراب. فهل يشق على المرء بعد ذلك إدراك مراد الشاعر في تصويره لما يحس ويرى؟!

فهل معانيه غامضة كما يتصور الناس ويتخيلون؟! وهل هي طلاسم معقدة وسرٌّ غامض؟!

أما معلقة زهير بن أبي سلمى فهي أوضح في معانيها من شروط العقود التي تكتب في عقود الإيجار، ولم أقل عقود التأمين لأنها شاقة على المتخصصين، وإن الكثير من معلقة زهير ما لو قُرئت على عامي لتمتع بها وطرب لها لحكمة القول فيها، اقرأ قوله:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ وَمَن يَعِش ... ثَمانينَ حَولاً لا أَبا لَكَ يَسأَمِ

رَأَيتُ المَنايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِب ... تُمِتهُ وَمَن تُخطِئ يُعَمَّر فَيَهرَمِ

وَأَعلَمُ عِلمَ اليَومِ وَالأَمسِ قَبلَهُ ... وَلَكِنَّني عَن عِلمِ ما في غَدٍ عَم

وَمَن لا يُصانِع في أُمورٍ كَثيرَةٍ ... يُضَرَّس بِأَنيابٍ وَيوطَأ بِمَنسِمِ[٣]

وَمَن يَكُ ذا فَضلٍ فَيَبخَل بِفَضلِهِ ... عَلى قَومِهِ يُستَغنَ عَنهُ وَيُذمَمِ

وَمَن يَجعَلِ المَعروفَ مِن دونِ عِرضِهِ ... يَفِرهُ[٤] وَمَن لا يَتَّقِ الشَّتمَ يُشتَمِ

وَمَن يُوفِ لا يُذْمَم، ومن يُهدَ قلبه ... إلى مطمئن البر لا يَتَجَمْجَمِ

وَمَن هابَ أَسبابَ المَنِيَّةِ يَلقَها ... وَإِنْ يَرْقَ أَسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

وَمَن يَجعلِ المعروف في غيرِ أَهْلِهِ ... يَكُنْ حَمْدُهُ ذمًا عليه ويَنْدَمِ

---

[٣] والمنسم هو أسفل خف البعير.

[٤] يفره من التوفير وهو الحفظ

وَمَن يَعصِ أَطرافَ الزِّجاجِ ينلنهُ ... يُطيعُ العَوالي رُكِّبَت كُلَّ لَهذَمِ[٥]

وَمَن لَمْ يَذُدْ عَن حَوضِهِ بسلاحِهِ ... يُهدَّم، وَمَن لا يَظْلِمِ النَّاس يُظلَمِ

وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوًا صَدِيقَهُ ... وَمَنْ لا يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لا يُكَرَّمِ

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امرِئٍ مَنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

وَكَائِن تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيَادَتُهُ أَو نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ

لِسَانُ الفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إَلا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

وَإَنَّ سَفَاهَ الشَّيْخِ لا حِلْمَ بَعْدَهُ ... وَإِنَّ الفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمِ

سَأَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُدْنَا فَعُدْتُمُ ... وَمَنْ أَكْثَرَ التَّسْآلَ يَوْمًا سَيُحْرَمِ

فهذه الأبيات أكثر من ربع المعلقة والتي عدد أبياتها (٦٢) اثنين وستين بيتًا ماذا فيها من الصعوبة المتوهمة التي يقذف بها الشعر العربي حتى على العامي بل المثقف القارئ؟!

إنه ربما فقط ما يحتاج لتفسير قوله:

وَمَن يَعصِ أَطرافَ الزِّجاجِ ينلنهُ ... يُطيعُ العَوالي رُكِّبَت كُلَّ لَهذَمِ

ومراده من أَبَى الصُّلح، وكنّى عنه بالأخذ بأعقاب الرماح فإن الحرب ستُلينه وتُذلِّله، وكنى عن ذلك بطاعة عوالي الرماح وأسنَّتِها.

وأما ما يُشكى من معلقة لبيد؛ فإنما لكثرة أسماء الأماكن فيها، فإن قلت الأبيات من هذه فإنما هي سهلة ميسورة، اسمع إليه وهو يقول:

إِنَّا إذا الْتَقَتِ الَمجَامِعُ لَمْ يَزَلْ ... منّا لِزَازُ عَظِيمَةٍ جَشَّامُها[٦]

ومُقَسِّمٌ يُعطي العشيرةَ حَقَّها ... ومُغَذْمِرٌ[٧] **لحقوقها هَضَّامُها**

فضلًا، وذو كرمٍ يُعينُ على النَّدى ... سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائبٍ غنَّامُها[٨]

---

[٥] الزجاج جمع زج وهو الحديدة أسفل الرمح، واللهذم هو أسفلها.

[٦] وكلمة لَزَّ ما زال الناس يستخدمونها ويظنونها غير فصيحة وهي فصيحة، وتجشّم الشيء أي قاساه

[٧] والغذمرة يقولها البعض وهي الغضب.

[٨] رغائب جمع رغبة وهي ما تطلبه النفس، وغنام مبالغة لغانم وهي كلمة جارية على ألسنة الناس اليوم في مدح الرجل.

مِنْ مَعْشَرٍ سنَّتْ لهم آباؤُهمْ ... ولكلِّ قومٍ سُنَّةٌ وإِمَامُها

لا يَطْبَعون[9] ولا يَبُورُ فَعَالهُم ... إذ لا تَميلُ مع الهوى أحلامُها

فاقْنَع بما قَسَمَ المليكُ فإنَّما ... قَسَمَ الخلائِقَ بَيْنَنا عَلَّامُها

وإذا الأمانةُ قُسِّمتْ في معشرٍ ... أَوْفَى بأَعْظَمِ حَظِّنا قَسَّامُها

فَبَنى لنا بيتًا رفيعًا سَمْكُهُ ... فَسَمَا إليه كَهْلُهَا وغُلامُها

وهُمُ السُّعاةُ إذا العشيرةُ أُفظِعَتْ[10]... وهُمُ فوارِسُها وهُمْ حُكَّامُها

وهُمُ رَبيعٌ للمُجَاوِرِ فيهِمُ ... والمرملاتِ[11] إذا تَطَاولَ عامُها

وهُمُ العشيرة أن يُبَطِّئ حاسِدٌ ... أو أن يَلومَ مع العدوِّ لوَّامُها

فهذه خواتم معلقته، فماذا فيها غير مفهوم؟ أو كما يتوهم الناس أنها مستحيلة الفهم عليهم؟ أو أنها طلاسم وأسرار؟

إنها الأوهام التي غلّفت نفوس هذه الأمة فحجبتها عن متعة النظر والقراءة والتفكر.

اسمع إلى لبيد في بعض شعره وهو يقول:

بُلينا وَمَا تُبلى النُّجومُ الطَّوالِعُ ... وتَبْقَى الجِبالُ بَعْدَنَا والمَصانِعُ

فَلا جَزِعٌ إنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنا ... وكُلُّ فَتىً يَوْمًا بهِ الدَّهْرُ فاجِعُ

ومَا المَرْءُ إلاَّ كالشِّهابِ وضَوْئِهِ ... يحورُ رَماداً بَعْدَ إذْ هُوَ ساطِعُ

لَعَمْرُكَ ما تَدري الضَّوَارِبُ بالحصَى ... وَلا زاجِراتُ الطَّيرِ ما اللّهُ صانِعُ

إنها أبيات يمكن للمرء أن يُردِّدها ويتأملها ويذهب بطرفه فيها؛ معتبرًا متفكرًا متذوقًا ناشدًا، وهي أبيات قالها في قصيدة لرثاء أخيه أربد، وقال في رثائه قصيدة كان مطلعها أصدق بيت قالته العرب كما حكم فيه رسول الله ﷺ.

أَلَا كُلُّ شَيءٍ ما خَلَا اللهَ بَاطِلُ

وتتمته:

---

[9] والطبع: هو الفعل السيء.

[10] أفظعت: أي وقع فيها أمر فظيع.

[11] المرملات: السنون الجديبة.

وكُلُّ نَعيمٍ لا مَحالة زَائِلُ

أما معلقة عمرو بن كلثوم، فهي ما لو قرئت على الصبيان لما وجدوا فيها عسرًا ولا مشقة في أكثرها، انظر إليه وهو يقول في بعضها:

نَزَلْتُمْ مَنْزِلَ الأَضْيَافِ مِنَّا ... فَأَعْجَلْنَا الْقِرَى[١٢] أَنْ تَشْتِمُونَا

قَرَيْنَاكُمْ فَعَجَّلْنَا قِرَاكُمْ ... قُبَيْلَ الصُّبْحِ مِرْدَاةً[١٣] طَحُونَا

نَعُمُّ أَنَاسَنَا وَنَعِفُّ عَنْهُمْ ... وَنَحْمِلُ عَنْهُمُ مَا حَمَّلُونَا

نُطَاعِنُ مَا تَرَاخَى النَّاسُ عَنَّا ... وَنَضْرِبُ بِالسّيُوفِ إِذَا غُشِينَا

بِسُمْرٍ مِنْ قَنَا الخَطِّيِّ لُدْنٍ ... ذَوَابِلَ أَوْ بِبِيضٍ يَعْتَلِينَا

كأَنَّ جَمَاجِمَ الأَبْطَالِ فِيهَا ... وُسُوقٌ بِالأَمَاعِزِ يَرْتَمِينَا[١٤]

نَشُقُّ بِهَا رُؤُوسَ القَوْمِ شَقًّا ... وَنَخْتَلِبُ الرِّقَابَ فَتَخْتَلِينَا

وهذه الأبيات التي ذكرتها ربما هي أصعب ما في القصيدة وإلا فهي على منوال:

أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَا ... وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليَقِينَا

بِأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضًا ... وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْرَاً قَدْ رَوِينَا

وَأَيَّامٍ لَنَا غُرٍّ طِوَالٍ ... عَصَيْنَا المَلْكَ فِيهَا أَنْ نَدِينَا

أو مثل قوله:

بِأَنَّا المُطْعِمُونَ إِذَا قَدَرْنَا ... وَأَنَّا المُهْلِكُونَ إِذَا ابْتُلِينَا

وَأَنَّا المَانِعُونَ لِمَا أَرَدْنَا ... وَأَنَّا النَّازِلُونَ بِحَيْثُ شِينَا

وَأَنَّا التَارِكُونَ إِذَا سَخِطْنَا ... وَأَنَّا الآخِذُونَ إِذَا رَضِينَا

---

[١٢] القِرى: طعام الضيف.

[١٣] والمرداة ما زال البعض يستخدمها وهي الحجارة التي يرمى بها الأعداء.

[١٤] وسوق: جمع وسق وهو مكيال يكون حمل البعير، والأماعز: الأماكن التي تكثر فيه الحجارة.

وَأَنَّا العَاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا ... وَأَنَّا العَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا

وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا المَاءَ صَفْوًا ... وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدَرًا وَطِينَا

فأي مشقة يجدها القارئ اليوم حين ينظر إليها ويتأملها ويتعرف على مقاصد قائلها؟!

إنها تهمة عارية عن الدليل، قَصَد مُطلِقوها قطع الأمة عن لغتهم وتراثهم وتذوق هذه اللغة الجليلة الرائعة وشعرها الدَّافق الرَّائق.

ويكفي ما قدمته من أمثلة من الطوال، ومثل ما قدمت معلقة عنترة والحارث بن حلزة وقبلهم جميعًا امرؤ القيس، ولو نظر الناظر للشعر الجاهلي؛ لرآه في أكثره على هذا النحو: سهل ميسور ولا يحتاج إلا لقليل من المعالجة في بعضه ليبدو مراد قائله منه، وإني لأعجب من هذا الجيل الذي يُقبل بعضه "وهم من يقال لهم بالمثقفين والمفكرين" لقراءة ما يقال له بالشعر الحداثي الذي يعترف قائلوه أنه ليس من أجل التواصل مع القارئ، ولا من أجل التذوق والإنشاد، ويعاني الدارسون له معاناة شديدة لفهم مراده كما اعترف أحدهم –وهو من كبار نقاده– أنه بذل سنوات عديدة حتى يدرك بعض ما يراد منه، وكلامهم أشبه بهذيانات الصرعى والموسوسين، ومع ذلك يُقبلون عليه ويُعرضون عن الشعر الحقيقي، مع أن هذا الشعر الحداثي هو جزء من أسباب القطيعة بين الأمة والقراءة، والشاعر وجمهوره، والبيان والتذوق، وها هو بعض من يمدح الإنتاج الإنساني عند غيرنا يعترف أحدهم –وهو مترجم– أنه بذل من عمره سبع سنوات لفهم مصطلحات الكاتب الذي لا يكتب عن اللغة السنسكريتية ولا الصينية بل يكتب عن الإسلام والقرآن! يقولون هذا بافتخار ورفعة نفس وامتداح بالعلمية، فإذا قيل له: هل قرأت في كتب التراث الإسلامي؟ قال لك: لغة القدماء شاقة صعبة، وقواعد النحو تتعبني ولا أقدر على فهمها.

وهذا كما اتهم أحدهم أن أكبر معضلة في البيان العربي هو "علم النحو"، فإنه المانع الأكبر عندهم لحصول العلم من مصادر المتقدمين كما يزعمون، بل علقوا نهضة الأمة على تدمير هذا العلم وإحلال العامية، وصار من المسلَّمات أن "النحو" وقواعده أصعب من فهم نسبية أينشتاين، وتواطأ على هذا الاتهام تعليم قاصر في المدارس الرسمية، ومعلمون لم يُحكِموا علم ما يعلمونه للتلاميذ.

والحق أن علم النحو هو من أجمل وأَقْعَد أنواع علوم العربية؛ فهو علم بناء اللفظ وهو علم المعنى، إذ لا يمكن إجراء الإعراب إلا إذا فهمت المعنى، وليس فيه من قاعدة إلا لها علتها وسببها الرائع الجميل، وهو علم أشبه بالنَّياشين على

صدور المتكلمين والخطباء والكتاب والمفسرين، فهو يحمل الدلالة على رقي كل واحد من هؤلاء، وهذا هو الفارق بين العلم الحقيقي وبين لعب الأطفال وبناء أبنيتهم وقصورهم بالرمال على شواطئ البحار.

أي مشقة عند إنسان يَعقِل يُعلَّمُ أقسام اللفظ الذي ينطقه؟؟

حين يقال لك أن لفظك ثلاثة أقسام: اسم وفعل وحرف، وعلامات الاسم كذا وعلامة الحرف كذا وعلامة الفعل كذا؛ فهل هذا شاق إلا على السفهاء والحمقى والمرورين؟!

أو حين يقال لك: والفعل ثلاثة أقسام: ماضٍ ومضارع وأمر، وعلامة كل قسم.

أو حين يقال لك عن الإفراد والتثنية والجمع.

أو حين يُضبط لك المنادى وأدوات النداء، أو حروف الجر.

تعال لأحدثك عن قاعدتين من قواعد النحو الجميل، واصبر معها قليلًا لترى سهولتها ويسرها؛ القاعدة الأولى: قاعدة العدد، فإنك تعلم أنك ما لو نطقت عددًا ما؛ فلا بدَّ أن تذكر بعده ما تريد عدّه وهو المعدود، والأعداد من واحد إلى عشرة، والمعدود إما أن يكون مذكرًا أو مؤنثًا.

فإن كان العدد واحدًا أو اثنين فإنه يكون كالمعدود في التذكير والتأنيث فتقول:

جاء رجل واحد، وجاءت امرأة واحدة.

فالرجل مذكر فكان العدد مذكرًا –أي واحد–، والمرأة مؤنث فكان العدد مؤنثًا –أي واحدة–، وكذلك تقول:

جاء اثنان –تقصد رجلين–، وجاءت اثنتان –تقصد امرأتين–.

أما إن كان العدد من ثلاثة إلى تسعة فإنه يكون العدد على عكس المعدود في التأنيث والتذكير فتقول:

جاء ثلاثة رجال، وجاء ثلاث نساء.

فلما كان المعدود هم الرجال وكان العدد "ثلاثة" لم يتطابق العدد مع المعدود، وكذا في قولك جاء "ثلاث" نسوة.

وتقول: رأيت خمسة رجال، أو رأيت خمس سيارات.

أما إن كان العدد "عشرة" فله حالتان:

فالعدد "عشرة" إما أن يركب مع غيره كأن تقول أربعة عشر أو خمس عشرة فهذه يكون التوافق بين العدد والمعدود، فتقول:

رأيت ثلاثة عشر رجلًا؛ فالرجل مذكر وكذا كان العدد "عشر" مذكرًا، وأما ثلاثة فقد تقدم أنها تكون على خلاف المعدود.

وتقول: رأيت ثلاث عشرة امرأة؛ فعشرة توافقت مع تأنيث النساء كما ترى.

ولكن قد يكون العدد "عشرة" مفردًا غير مركب فتقول:

رأيت عشرة رجال، ورأيت عشر نسوة.

فهكذا جرى العدد "عشرة" على قاعدة الأعداد من ثلاثة إلى تسعة.

فهل هذه ألغاز وأحاجي، أم أنها تُعلَّم للأطفال فيدركونها؟! وهل هذه أصعب أم ذلك الفعل المساعد في اللغة الإنجليزية والذي يهز المعلمون هناك رؤوسهم وهم يسألون عن اضطرابه وعدم اطراده وغرائبه ويجيبون بكلمة واحدة: "لغة غريبة".

مع أن هذا التوافق والاختلاف له أسبابه وعلله العلمية الجميلة ولولا مخافة التطويل لذكرتها لك.

أما القاعدة الثانية فهي تتعلق بالرسم، وهي تُذكر مع النحو عادة، أي رسم الألف المقصورة أو الممدودة، فإنك تكتب "الربا" هكذا بالألف الممدودة وتكتب "هدى" بالألف المقصورة، وقاعدتها سهلة ميسورة. اسمع إلى أحد العلماء كيف صاغ قاعدتها بشعر جميل واضح:

إذا الفعل يومًا غُمَّ عنك هجاؤه ... فألحق به تاء الخطاب ولا تَقِفْ

فإِنْ تَرَهُ بالياء يومًا كتبتَهُ ... بياءٍ، وإلا فهو يكتب بالألِفْ

ف"رَبَا" إن أُلحقت بها التاء صارت: "ربوت"، فتحولت الألف إلى واو فحينئذ كتبتها بالألف الممدودة، أما "هدى" فحين إلحاق التاء بها صارت: "هديت"، فتحولت الألف إلى ياء فكتبت بالألف المقصورة.

وإذا تجاوزت الكلمة ثلاثة حروف تكتب بالألف المقصورة مثل مصطفى، ومرتضى، واستدعى.

وهكذا انتهت القضية، فهل هذه أصعب أم تلك اللغات والتي فيها مئات الكلمات التي لا ضابط لها في الرسم والتصوير، وإنما تكتب بلا قاعدة بل الرسم المجرد وفقط؟!

وهذان مثالات يدلان عما وراءهما من هذا العلم السهل الممتع الجميل، ومع معلم متقن متذوق، وكتاب (الآجرومية) فقط، وبُمدة قليلة؛ تكون عالِمًا بأسسه الأولى وقواعده الأصلية، ولكل علم مراتب أخرى فوق القواعد والأصول يرتقي فيها المرء وترتفع درجته فيه.

ومما يُستغرب منه أن بعض المأمونين على هذا التراث اليوم يعجبهم وينشرون القول بصعوبة هذه العلوم وأنها تحتاج الحياة كلها ولا يتقنها الناس، وهذا لعمرُ الحقِّ انحراف وضلال وموافقة قبيحة لأعداء الأمة في تنفيرهم الناس وصرفهم عن الكتب والقراءة.

لو رجعت إلى ما قاله بعض الأصوليون في شروط المجتهد لرأيت أن شرط المجتهد عندهم أيسر مما يشيعه هؤلاء المتكلفون جهلًا أو الحاقدون عماية، بل إن أصول العلوم التراثية أسهل من كتب الطبخ التي يضعها الطباخون اليوم ولا شك، لكنه الحقد من قوم، والجهل من آخرين، والوهم في عموم الأمة، وفساد التعليم وأساليبه، كلها تؤدي إلى هجران العلم والكتاب والقراءة.

مما لا شك فيه أن الأمة الضعيفة المهزومة عاجزة من الاستفادة من مقوّمات قوتها أو الافتخار بمكوناتها لأنها مفعمة بالشك من جدوى هذه المكونات، وقد سكن في مشاعرها أنها لم تصلح لرد الهزيمة ووقوع الخسران، وهاهم غيرهم قد حققوا النصر من غير هذه المكونات بل بمكونات أخرى مناقضة.

هذه معضلة أخرى تتعلق بالصراع مع الغزاة وأذنابهم من المبهورين والمأجورين في داخل الأمة، وهو إعادة الثقة بهذه المكونات، مع تحقيق فعاليتها الحقيقية، وليس ممارسة الخداع الذي يفعله البعض مِن جَعْل التراث غطاءً للواقع القبيح كما يفعل مشايخ السلطان، أو الظن أن مجرد الحرف وانتشار الصراع حول معناه الذهني التَّصوري فقط يحقق العزة المنشودة، وهؤلاء قد بُلينا بهم كثيراً.

- من هذه العوائق الكبرى أمام القراءة -وهاهنا كما في النكتة الأولى تتعلق بالتراث- هو رفع الغطاء العلمي عن هذا التراث، فالتراث ليس علمًا، بل فاقد لشروط العلمية، وهذه الكوّة الفاجرة وإن فتحها المستشرقون؛ إلا أنها وُسِّعت

وخُدمت من قبل أطراف أخرى أكثر فجورًا من حقد المستشرقين، وجاء قوم آخرون بجهل مسالك العلم ومقاصد المؤلفين ليكرسوها في نفوس المتدينين في بعض جوانبها كما سيأتي شرح ذلك.

فالقرآن الكريم متهم في تاريخيته وسنده، وليس هو بأكثر علمية من كتب الديانات الأخرى، وهذه تهمة المستشرقين المكسورة هي عند بعض الطوائف الضالة المنتسبة للإسلام عقائد تُلقى وتُعلم، وهذه التهمة –بفضل الله تعالى– مكسورة الجناحين ميتة القلب لا وجود لها في مجموع الأمة.

أما الحديث النبوي فهو الذي شُنَّت عليه أقذر الحروب، ورُمي بأشد الاتهامات، وبذل عليه أعداؤه جهودًا عجيبة لإسقاط علميته، فلمجرد وجود الموضوع والضعيف والمتهم في الحديث؛ يكون الحديث النبوي فاقدًا لأصول العلمية التي تقرر أن العلم هو الحقائق لا الأكاذيب، ولو طُبقت هذه القاعدة على ما هو من علوم المادة والحس؛ لما كان هناك في الدنيا علم يوثق به ويُطلَق عليه لقب العلم، فما من علم إلا وفيه الدخن والافتراضات والشكوك، يميز بينها أهله القائمون بحقه، ولا يمنع ذلك من قراءته والنظر فيه والاستفادة منه من بقية الناس والقراء.

والحديث النبوي كذلك فيه الصحيح الثابت يقينًا وفيه ما هو أدنى درجةً عن ذلك إلى أن يصل إلى ما هو ثابت الكذب في نسبته لرسول الله ﷺ، وكل ذلك من خلال طرق علمية صارمة معقولة عند أصحاب النظر والفهم، وهذا العلم فيه علوم أخرى رائعة جميلة كالتاريخ والرجال والأسانيد والتفسير وغيرها من العلوم التي تمد الذهن بالعلم والمعرفة المتقنة.

ومن تلك العلوم التي رفع عنها خصومها العلمية علوم التاريخ بأنواعها كالسيرة مثلًا، والاتهامات الموجهة إلى هذا العلم هي الموجهة للحديث النبوي؛ إذ القواعد الأولى مشتركة بين العلمين، وعلم التاريخ علم رائع جميل له فوائده الكثيرة كما قال عنه ابن خلدون: "فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الأمم والأجيال، وتُشد إليه الركائب والرِّحال، وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال، وتتنافس فيه الملوك والأقيال –العظماء–، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار ... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يُعد في علومها وخليق".

فهو علم المتعة والنظر، والفهم والخير، يصلح لكل الناس على اختلاف مراتب البشر.

ولعلنا لا ننسى مِحنة الشعر الجاهلي الذي قام بِكِبَرها طه حسين حين أصدر كتابه (في الشعر الجاهلي)، فإنها لم تكن فتنة علمية فقط؛ لكنها ألقت بظلالها على نفوس الأمة، فما لها ولمعاناة شيء مكذوب مُنتَحل مُزوَّر، لا يفيد شيئًا سوى الإبانة عن نفس قائله من غير دلالة ومعرفة عن هذا القائل بعينه!!

إسقاط العلمية عن هذا الكم الهائل من الكتب صرف الناس عنها، فلا متعة إذًا ولا جدوى من طريق آخر، فمن رام العلمية؛ فإلى غيرها وجهته، ومن رام المتعة؛ فسبل الحياة الأخرى هي المقصد، وقد شارك في إسقاط العلمية كذلك أنصاف المتعلمين ممن لا يحترمون ولا يعرفون مقاصد المؤلفين ولا مراتب العلم ولا طريق ثبوت العلوم المختلفة، وهذا أشرحه في "مقاصد المؤلفين"، ولكن أشير إلى ما له ارتباط بالموضوع هنا.

فقد رأينا من يُسقط العلمية عن علم التجويد بحجة عدم الدليل عليه، والدليل عنده لهذا العلم هو الحديث الشريف، فَحيث لا يوجد في الحديث النبوي هذا العلم إذًا فهو غير شرعي، وهذا هو منتهى الجهل؛ لأن هذا العلم ليس دليله الحديث النّبوي، فهل يقال يا قوم: أين رواية القرآن الكريم وألفاظ القراءات في الحديث النبوي؟ بل هل يقال: أين في الحديث النبوي كيفية نطق الحروف؟! وهل الخلاف في نطق الضاد –وهو موضوع رائع جميل- يمكن الفصل فيه من الحديث النبوي الشريف؟!

إنه الجهل بطرق إثبات العلم، وذلك كمن لم يُفرِّق بين التواتر الذي وُصِفت به رواية القرآن وبين التواتر الذي يوصف به بعض الحديث النبوي الشريف وطريق روايته.

فإسقاط العلمية عن علم التجويد يصرف الناس عنه ويبعد اهتمامهم إلى غيره، مع أنه علم جليل عظيم القدر واجب على الأعيان، وكذا ما له علاقة بالتجويد وهو اللحن العربي الذي يُقرأ به القرآن، فإن التغني بالقرآن أمر رباني بنص حديث رسول الله ﷺ، والغناء العربي له لحنه الخاص به والذي ضاع أكثره هذه الأيام، بل ربما بعض الجهلة يتَّهم من يقول به بالانحراف وإلحاقه بالعاصين من أصحاب الغناء المذموم.

وكذا ما نراه اليوم من "تحقيق!!" مزعوم لكتب التراث، ووضع تعليقات جاهلة على هذه الكتب، كمن يأتي إلى كتاب لغة يستشهد فيه صاحبه بحديث نبوي يدلل على صحة لفظ وعربيته، فيُعلِّق عليه مدّعٍ أنه حديث ضعيف ويذهب لتخريجه على طريقة انتشر أمرها هذه الأيام، وقد يزيد ضِغثًا على إبَّالة –كما يقول الأقدمون- فيرسل قلمه طعنًا في رواية الضعيف محذرًا منه مقيمًا النكير على صاحب الكتاب أنه لم ينبه على ذلك، إلى غير ذلك من التبجُّح القبيح المَقيت من هؤلاء الصغار على الأئمة الكبار، وهذا لأنه لا يدري هذا المتعالم أن الحديث الضعيف والاستشهاد به في اللغة أولى من غيره،

وهو حجة في هذا الباب عند المحققين منهم، وهو أقوى حجة من بيت شعر لا يُعرف قائله، هذا مع علمي بوجود قول بعضهم بعدم جواز الاستشهاد بالحديث جملة في اللغة وعلومها وهو قول ساقط مرذول لا قيمة له، ولولا الإطالة التي تخرجني عن الموضوع لبينت أن هذا القول لم يقل به من يُعتَدّ به في هذا الباب مهما انتشر اسمه وعلا صيته، لكن هذا الصنيع من هؤلاء "المحققين!!" الجهلة —وقد مررت بهذه الفترة حينًا- يصرِف الناس عن هذه الكتب، لأنه يُفقدهم احترامها وعلميتها.

وكذلك ما يصنعه هؤلاء "الأنصاف" من تحقيقهم لكتب السيرة النبوية على طريقة الحديث، وبعضهم يؤلف في ذلك مختصرات باسم (صحيح السيرة) وذلك لجهله بمقاصد هذا العلم وأنه أوسع من مقاصد الحديث، وقد يقول قائل: أليست السيرة من الحديث؟! إذ السيرة هي وصف لأقوال وأفعال رسول الله ﷺ وهذا هو الحديث أو بعضه؟!

فيقال: السيرة النبوية علم من علوم الرواية، لها مقاصدها التي تتسع أكثر من كونها دليلًا للفقه، وهذه المقاصد تسمح باتساع زائد عما هو عليه حديث رسول الله ﷺ، ولهذا أفرد لها العلماء كتبًا خاصة، وتواطؤوا على التسمح برواياتها أكثر من الحديث النبوي وروايته والتصنيف فيه، وهذا عند المتقدمين الكبار كعصر مالك بن أنس وما قبله، فتشدُّد هؤلاء الصغار اليوم ليس من العلم في شيء بل هو الجهل الذي يجعل الناس يُعرضون عن هذه السيرة الجميلة الرائعة.

وأوسع من السيرة في التسمح هو التاريخ؛ فإن إعمال قواعد رواية الحديث على أخبار التاريخ جملةً غير صحيح، وهو خلاف العلم، فإن رجالًا لا يُقبلون في الحديث كالواقدي مثلًا هم العمدة في التاريخ لا يقدح فيهم في هذا الباب أحد، وردّ أخبارهم التاريخية كردّ روايتهم للحديث جهل بأصول العلوم وطرق إثباتها ومقاصد العلوم واختلافها، فالكلبي متهم في الحديث لكنه العمدة الذي اعتمد عليه الجميع في الأنساب، كلهم أخذوا عنه من أبي عبيد القاسم بن سلام إلى ابن حزم لم يتجنّبه أحد في هذا الباب.

وحتى أُقرِّب لهؤلاء "الأنصاف!!" بما يفهمون فيقال لهم: هذا عاصم بن أبي النجود —بن بهدلة- فيه مَقَال في رواية الحديث وضبطه لكنه الذي لا يقال فيه أدنى حرف في كونه أحد القُرَّاء السبعة المشهورين، فهل عقلتم الموضوع وأدركتم الفرق؟!

لا أقول إن مقاصد المستشرقين الخبيثة هي عين مقاصد هؤلاء "الأنصاف"، فليس مَنْ رامَ الباطل فأصابه كمن أراد الحق فأخطأه، لكن كلاهما عمَّق الفجوة بين الأمة وتراثها، وجعلها تُعرِض عن قراءته والانتفاع منه والتمتع به، وكما قلت: سيأتي مزيد بيان في فصل "مقاصد المؤلفين" لهذا الموضوع إن شاء الله تعالى.

وإنه من غرائب أهل الخبث مع هذا التراث أنك تجدهم يطعنون في المصادر الموثوقة من كتب الحديث والسيرة والتاريخ والرجال، ومع ذلك يستخرجون ما يحبون من قيح نفوسهم مما في (ألف ليلة وليلة)، وكأن واضعها لم يرد بها متعة القصِّ الخيالي فقط، وإنما تسجيل التاريخ وأحداثه ووقائعه.

وهكذا يلغون ما هو حقيقي وعلمي ليثبتوا الخيالات وقصص الوهم.

وأنا لم أعلق على كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني؛ لأني اعتبره كتابًا علميًا، فيه ما فيه من الخلط والغلط، لكن إن وضعناه في سياقه الصحيح أو مقصد مؤلفه؛ لصلح لها ولا شك.

بل إن (ألف ليلة وليلة) إن وضعناه في سياقه الصحيح أو مراد مؤلفه؛ لـمَا كان في ذلك انحراف قط في قراءته –كما سيأتي–.

القراءة في كل الكتب أوسع من العلميّة، لكنّ علميّة المقروء أساس القراءة، وفقدانها يبعث في النفس الكراهة والإعراض؛ فإن المرء يريد المتعة ولا شك لكنه يريد أن يعرف ويعلم ويرتقي بفكره وعقله، والعلميّة أساس ذلك، فرفع غطاء العلميّة عن كتاب ما أو موضوع ما هو السبيل الأول للهجران والهروب.

هناك كتب للمتعة فقط وتختفي وراء ستارها بعض المعالم الفكرية مثل كتب الروايات والقصص، بل ربّما يُخفي الكاتب أهدافه ورُؤاه وراء الحكاية؛ وهو فن قديم حديث من التخفي الذكي، فكل هذا يجعل العلمية غير بعيدة عن أي كتابة مهما بدا للبعض خلوّها منه.

الشعر مرآة الحياة بخصوصها للشاعر، وعمومها للمحيط الإنساني والثقافي والاجتماعي والسياسي، ومع ذلك اتُّهم الشعر من قبل البعض أنه لا يحمل سوى دلالة لحظة انفعال عابرة لا يمكن تعميمها أو قَنْص الفوائد منها، مع أن قائل هذا القول هو عين الذي أراد تعميم حكايات لسُمّار وفجّار وثوّار على عموم تاريخنا الإسلامي كله، فليس في تاريخ الفتوحات الأولى إلا فتنة علي مع معاوية –رضي الله عنهما–، وتاريخنا كله مرتبط بثورة الزنج والقرامطة والحشاشين، وهكذا يكون التاريخ مجرد استحضار لجلد الثقافة وأصولها التي شكلته ورَعَته وبنت عمره وقواعده.

إن كل ما كُتب في تاريخنا نحن بحاجة إليه، وكل حرف مهما بدا شذوذه عند البعض له ضرورته في الإحياء، ولذلك أنا ضد الدعوة إلى "تطهير" بعض الكتب كما دعا لذلك بعض الأمناء على التراث عند طباعة كتاب (الأغاني) بحجة وجود أخْبار مكذوبة أو أنها داعية للفجور والانحلال، فهذه دعوة لم يقلها الأوائل الأطهار، وقدح كتاب وذمه لا يعني عند

الأوائل حرقه أو إهلاكه أو تطهيره، بل هو من أجل تحقيق علميته على الوجه المطلوب عند قارئيه، وهذا يمكن فعله من خلال مقدمات يضعها العلماء لهذه الكتب تبيّن مقاصد مؤلفيها أو طرق الحكم عليها، وإنّه مما يحمل الفخر لتاريخ أمتنا أنني لم أقرأ قط لعالم من العلماء يُحرِّم قراءة كتاب أو يدعو لحرقه أو تطهيره، نعم يوجد التحذير وإطلاق الأحكام القاسية على الكثير من الكتب، لكن هذا شيء وحرقها شيء آخر، وعدم التفريق بينهما مزلة خطرة.

إن القراءة لا تعرف الحدود، شأنها شأن كل ما سخره الله لنا في الكون، لكن من تزوج الأفعى فهذا خطؤه في عدم وضع الشيء موضعه.

- يتبع هذا العائق عائق له علاقة به، وهو: **منع البعض من قراءة بعض الكتب أو الموضوعات تحت حجة عدم جدواها أو تحت حجة فسادها**، وهذا عائق يكثر بين المتدينين هذا اليوم.

وقبل أن أشرح هذا العائق أُطمئن هذا البعض إلى إيماني بقضيتين:

١- أن لكل علم مراتبه، ولا بد لكل قارئ علم أن يبدأ بقواعده وأصوله، وأن يشرع في المهمات الأولى له، لأن هذا ما يحقق الفائدة الأعظم من القراءة –وستُشرح هذه النكتة في "أصول القراءة" إن شاء الله تعالى-.

٢- أن العلوم والكتب تختلف مراتبها في الأهمية، فصرف المرء وقته في الأولى مُقدَّم عما هو أقل أهمية، وهذه قضية فطرية لا يخطئها أحد من جهة العلم بها، وإن أخطأها الكثير عملًا وسلوكًا، وقد يخطئ البعض في تقدير المهم فيؤخره ظانًا أن غيره أولى منه، وقد يتأثر الإنسان في أجواء معينة تجعله مهتمًا بباب من أبواب العلوم والمعرفة، أو برغبات ذاتية عنده، أو بباب من أبواب الرزق التي يتكسَّب منها إن كان رزقه منها، ولكن هذا لا يمنع أبدًا من أن يفتح الباب كاملًا كقاعدةٍ أولى لكل القراءات، إذ لا تخلو قراءة أبدًا من علم يُعينه في تعبُّده، أو متعة هي من ضرورات الحياة الفطرية التي لا يستغني الناس عنها.

ما هو عائق هو إغلاق الباب أمام القراءة أو بعضها، وهذا غير سديد وغير علمي، فالمطلوب هو فتح الأبواب كلها، وإذا كانت كل كلمة قيلت في التراث نحن بحاجة إليها لعملية الإحياء أو لحاجة من الحاجات؛ فإن كل كتاب في العالم لا يخلو من منفعة يحتاجها آحاد من الناس أو مجموعهم، فلا يوجد كتاب يمثل عورة يجب سترها أو التخفي من قراءتها، وما زلت أذكر هذه الحادثة قبل خمس وعشرين سنة وأنا في الثامنة عشر من عمري وقد حملت قصص الدكتور نجيب الكيلاني –رحمه الله– الرائعة، فجلس بجانبي أخ في الله فبذلت وسعي لستر القصص مخافة أن يراها الأخ فتكون التهمة أني أقرأ

القصص والروايات، وقد احتجت لوقت طويل في رحلة المعرفة والقراءة والتفكير لأكتشف أن القص والحكاية هي فن كتابي علمي يستخدمه المرء لأسباب علمية وفكرية وهو أسلوب ذكي لإثارة الفكر ونشره تحت ستار المتعة، وقد شكرت للدكتور نجيب بعد ذلك أنه فتح لي من خلال بعض قصصه قضايا العالم الإسلامي ومشاكله ومعاناته من تركستان إلى الحبشة، وأما قصته (دم لفطير صهيوني) فهي العمل الرائع الذكي الذي كشف حقيقة تلمودية خفية، وممارسة يهودية خسيسة يحاول اليهود اليوم بكل قوة طمسها وتكذيبها مع أنها ثابتة في الملفات، معروفة مشهورة من خلال حادثة الدكتور توما وقتله في دمشق الموثقة في ملفات نشرت بعد ذلك في كتاب قدم له أستاذنا مصطفى الزرقا –رحمه الله تعالى–.

وفي بيئات غريبة فيها أمراض ذهنية يعاب على المرء بعض القراءات، ومما عِيب عليَّ واستهزئ بي –وسيبقى يستهزأ– هو أني إن قرأت الجريدة مثلًا لا أوفر فيها خبرًا، من السياسي إلى الفني إلى الثقافي إلى الرياضي، وإن وقع لدي كتاب لا أوفر قراءته مهما كان، وأنتقي من الكتب للقراءة ما يعد بعضها من غرائب الكتب في بيئاتنا، وأصدق القارئ أن الدافع في مرات كثيرة هي متعة القراءة لكن لا أذكر يومًا ما ولا في قراءة ما أن قراءة خذلتني وردّتني بلا فائدة ومنفعة، بل ما من قراءة مهما بدت بعيدة هن الهم الديني وإحياء الأمة إلا ووجدتها تشكل مَعينًا ورافدًا لهذا الهم وقضايا الإحياء.

كم يعجبني حديث البوح الإنساني ليس لمتعته فقط ولكن لفوائده العميقة؛ اللقاءات الصحفية مع الناس على اختلاف اهتماماتهم ورُؤاهم تكشف الإنسان، ضعفه، تجربته، كذبه، اضطرابه، غروره، فهل هذه إلا معينة على النظر على ما في النفس كما قال تعالى: {وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}.

قد يعجب البعض أن يكون كاتب هذه الكلمات يعترف أنَّه يستفيد من اللقاءات الصحفية مع الممثلين والممثلات الغربيين استفادة تجد مكانًا في عبوديته لرب العالمين وفهمه للدين والحياة.

ممثلة تعترف أن الصور كاذبة، خادعة، مزورة، بل أجسادهن مصنوعة كدمى الثلج، سيلكون هنا في الثدي والوجنتين، وشاكوش وإزميل أَعْمَلا عملهما في الأنف، وسكين جزار قطعت الإلية، وبعد ذلك كله يأتي الكومبيوتر ليكمل التزوير والخداع، فهل قراءة هذا اللقاء تفيد العابد لربه، الخائض لسبل الحياة، المجاهد للقيم الأخلاقية البالية، نافعة أم لا قيمة لها؟! تفكَّر قليلًا وستجد الجواب.

وها أنا أتحدى أن يثبت أحدهم عدم جدوى قراءة كتاب ما أو موضوع ما في تنمية عقله ودينه ومعارفه، فكل القراءات مهمة ونافعة، وما من حرف يكتبه كاتب إلا وهو إبانة عن نفس إنسانية أتت بحاجة للولوج فيها والاطلاع على دخائلها.

حرف يدلك على جهل صاحبه وغروره، وحرف يدلك على جنون صاحبه واضطرابه، وحرف يدلك على صدق صاحبه وأمانته، وحرف يدلك على علم صاحبه وقوة معارفه ..، وهكذا تكون القراءة غوصًا وإبحارًا في عالم الإنسان الغريب والمتنوع، لتكتمل عندك صورتك أنت التي ربما تكون غائبًا عنها بسبب مشاغلك أو ضعف بصرك الداخلي الراصد لمحيطك المتلاطم المتتابع ولنفسك الباطنة الغائبة عنك، وهي أنت لا غير.

الكتاب ليس عدوًا حتى لو كان صاحبه عدوًا، فلك أن تحذر هذا العدو ولكن واجب أنه تعرف ماذا يقول وكيف يفكر وماذا يريد، وفوق ذلك من هو هذا العدو: {وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}.

إن أي قيد لمنع قراءة ما هو قيد يدعو للجهل، حتى لو كان الكاتب جاهلًا فالجهل نفسه يحتاج المرء لمعرفته والإبحار فيه وتحليله حتى لا يكون هو هذا الجاهل كأقل منفعة يحصل عليها المرء.

ثمَّ نحن في عالم مفتوح، ونحن نعيش فيه، وهو يتسلل إلينا، وهو كذلك قضيتنا، نعم هذا العالم هو قضيتنا، والإنسان فيه محور وأساس دعوة الهداية والرسالة، فنحن مدعوُّون رغم أنوفنا إليه ومعه من أجل تحقيق هذه الرسالة التي هي أمانة الله في أعناقنا.

وقد دلنا التاريخ وسيرته أن ما حُرِّم يومًا من الكتب والموضوعات لمنع فساد أو منع ضياع وقت أو اكتفاء بالموجود، حدث بعد ذلك أن اضطر الناس لقراءتها والغوص فيها وإدراك مرامي أصحابها ثم بعد ذلك معالجتها، فحركة الكتاب والفكر لا توقفه هذه الطرق؛ بل تنشره وترغِّب فيه.

سلمان رشدي لو دفع مليارات الدولارات للدعاية ما كان ليحصل على شهرةٍ ورواجٍ كما حصل عليها من خلال فتوى الخميني بإباحة دمه.

سيد قطب حطم كل الأسوار المظلمة الساعية للحَجْر على كلماته وأوراقه.

ومئات من المغمورين الجهلة حققوا الشهرة الواسعة والانتشار الكبير من وراء هذه الطريقة التي لم ينتبه المانعون إلى أنها الترياق العجيب للدعاية وليست السم الزُّعاف.

حرم العلماء علم المنطق والنظر في كتبه، فانتهى الأمر إلى أن صار هذا العلم جزءً من أصول الفقه، ولم يتلاشَ هذا العلم إلا بالعلم به ومناقشته وإثبات هشاشته وعدم الحاجة له كما فعل ذلك ابن تيمية معه.

البعض يظن أن الحق هش يحتاج للحماية من جهة علميّة فيهبون صراخًا وعويلًا، والصواب أن البعض ضعيف فيحمى كالمريض عن بعض الأطعمة وهذا شيء شرعي صحيح، فالناس مراتب ودرجات وهناك من هو غافل ساذج جاهل، وهناك من يظن أن كل ما يلمع ذهبًا، فهؤلاء يُعتنى بهم ويُراعى أمرهم بقدر الحاجة اللازمة لحفظهم وحفظ دينهم وعقلهم، ولكن الحق في نفسه مع مجموع الأمة ليس كذلك، والحديث الآن في العموم، وخاصة في هذه المرحلة التي تحول العالم فيها إلى ثورة صغيرة لا تنفع فيها الحجب ولا الحدود.

- هذا العائق له علاقة **بطريقة التربية التي تحياها الأمة في مدارسها ومعاهدها وجامعاتها**؛ فإن أسلوبها العقيم هو من أقوى الأسباب لدفع الأمة بعيدًا عن القراءة ومصادر المعرفة. ولقد عجبت لهؤلاء الناعقين من أجل تغيير المناهج الدراسية متهمينها أنها سبب انتشار التدين والبراءة من المشركين والغاصبين ومعاصيهم، وما دروا أن أبغض شيء على قلوب الطلاب هي الكتب المقررة دراسيًا، لا يعرفونها إلا من أجل الامتحان وتجاوزه، وبعد ذلك لو سألت الطالب عنها لرأيت استنكارًا وكراهية، وما ذلك إلا لكراهة الطالب للتعليم وما فيه، وخاصة ما يتعلق بالمواد غير المادية، كالعلوم الدينية والإنسانية، فإن أغلبها ليس أساسي التدريس ومتأخر الاهتمام والعناية.

فجهل طلابنا باللغة وعلومها والشريعة وعلومها أمر مشاهد معلوم، وذلك لجهل المعلمين في باب، وعدم شعور الطالب بأهميتها في باب آخر؛ فالمُقبِلون عليها هم أقل الطلاب تفوقًا وذكاءً، ومن كان متدينًا راغبًا بعلوم الشريعة أو اللغة فتوجهه الدراسي أولًا للمواد العلمية المادية وما يحصله بعد ذلك من أمور أخرى فلها طرق أخرى وسبل بعيدة عن المدارس والمعاهد والجامعات.

ما تنتجه الآلة التعليمية في بلادنا شاذ معوّق، إذ يرى الطالب أن المعلم هو في أدنى مراتب التحصيل المادي، لا تكفيه وظيفته لحاجاته المعيشية، فهو في داخل الفصل مهموم مشغول البال بعمله بعد المدرسة، وأنا أتحدث لك عما كنت أراه في مدرستي من غرائب أحوال المدرسين البؤساء المساكين:

–لقد درست في المدارس الأردنية، ومع أني بدأت الدراسة الابتدائية والإعدادية في مدارس وكالة الغوث الراعية لشؤون الفلسطينيين المهجَّرين من بلدهم، وقد تميزت هذه المدارس يومها بوجود معلمين يحملون هموم شعبهم، ولهم رغبة شديدة في تعليم الطلاب بدافع الحرص أنهم ينشؤون جيلًا يقاوم الأوضاع القاسية التي يحياها الشعب الفلسطيني، وإني ما زلت أشكر لكثير من هؤلاء الأساتذة حرصهم ورعايتهم الأبوية الحانية؛ إلا أنّنا عشنا مشكلتين اثنتين هما:

١. ضعف تحصيل الكثير من هؤلاء المعلمين؛ لأن أغلبهم خريج لمعاهد متوسطة وذلك لارتفاع الرواتب، فكانت الوكالة تتجنب خريجي الجامعات، وهذا كان يؤثر على التدريس وإتقان إيصال المعرفة اللازمة.
٢. قلة الوقت الذي كنّا نحياه في المدرسة؛ فالمدرسة فيها فترتان دراسيتان فلا يوجد أي نشاط تعليمي زائد عن الدراسة، وحتى الحصص الدراسية مضغوطة بطريقة كبيرة.

لم تكن في تلك الأيام مشكلة في الفارق بين المعلم وغيره في الدخل المادي، لكن بدأ تفجُّرها حين انتقلت إلى المرحلة الثانوية، زيادة في ذلك ضعف رواتب المعلمين في المدارس الحكومية، فقد كنت أرى المعلم وهو ينظر إلى ساعته أكثر من نظره إلى الطلاب والكتاب، وما أن يقرع الجرس مؤذنًا بانتهاء الدراسة حتى تجد المعلم قبلك على بوابة المدرسة، وتعجب أين يذهب؟!

لحاجة المعلمين لدخل زائد عن الراتب فقد انتشر بين المدرسين العمل سائقي تاكسي عمومي، وبعضهم اشترى سيارة حمَّلها بضائع يطوف بها على القرى والأرياف لبيع مواد يشتريها بالجملة ليبيعها هناك طالبًا الربح والمنفعة، وكان المنظر مؤلِمًا محزنًا مُسقطًا هيبة المعلم أمام تلاميذه، شاغلًا إياه من أن يقوم بدوره في التعليم والتوجيه.

هل هذا المعلم نموذج للطالب الذي يتمثله ويسعى لتقليده في جده وقراءته وعلمه؟! والعجيب أن الحكومة بدل أن تحل مشكلة هذا المعلم البائس أصدرت قانونًا يمنع حصول الموظف –ومنه المعلم– على رخصة سواقة عمومية، لكن المعلم لم يكُفَّ عن التحايل.

هذا هو حال المعلم أمام تلاميذه نموذجًا يثير الشفقة حينًا وعدم الاحترام حينًا، وفي كل حين ليس نموذجًا للعالم والقارئ والمدرِّس.

إن مرحلة التعليم الأولى للطالب هي التي تغرس فيه القيم الأولى، وتنمي فيه الغرائز النافعة ومنها حب القراءة والحرف، والنهم في الطلب من العلم والمعرفة، وإذا كان كاتب هذه الكلمات يشعر أن أهم رافد نمَّى لديه حب الحرف والكتاب واللغة فهو ذلك الأستاذ الذي وقف أمامه في الصف الرابع الابتدائي، طويلًا، عريض الجسم، درسه متعة جميلة لهذا الطالب الصغير، يلقي أمامه بعض أبيات الشِّعر ويصرخ في التلاميذ مقومًا لهم حرف "القاف" الذي ينطقونه هشًا كما هو شأن القروي الفلسطيني قريبًا من حرف "الكاف"، فيقول بصوت عالٍ: "يا ابني قل قنبلة، –مالئًا فمه بها– .. ولا تقل: كنبلة".

إنه الأستاذ الطيب الأبوي الحاني الرقيق: نايف مسودة.

أستاذ من مدينة الخليل، درس العربية وآدابها في الأزهر، وحصل فيها عدة مرات على بطولة السباحة والمصارعة، ومع هيبته أمام تلاميذه لم أذكره قط يضرب تلميذًا إلا مرات قليلة وبطريقة لم تكن تثير الألم كما يفعل غيره من المعلمين.

سمعت من يومها اسم الشاعر: حافظ إبراهيم، فسعى الطالب إلى المكتبة المسكينة في المدرسة، وهي بناء لبيت سكن استؤجر ليكون مدرسة، مكتبة هي فقط خزانة ملابس أبحث فيها عن ديوان الشاعر فوجدته، وهناك قلَّبته وبدأت بقراءته وفيه وجدت بيتًا له يصف فيه أحدهم وهو ينطق الكاف بقوة فقال:

يُرغي ويُزبِدُ بالقافاتِ تَحسَبُها ... قَصفَ المدافِعِ في أُفْقِ البَساتِينِ

فردَّده الطالب الصغير في نفسه حتى حفظه، وبيَّت فعلًا ما قصده، فالمعلم آتٍ غدًا، ولا بدّ من مشكلة القاف والقنبلة، وما إن فعلها المعلم وقال: "يا ابني قل قنبلة ولا تقل: كنبلة"، حتى رفع الطالب أصبعه مستأذنًا فأذن الأب المعلم له، وقفت وعلا صوتي:

تُرغي وتُزبِدُ بالقافاتِ تَحسَبُها ... قَصفَ المدافِعِ في أُفْقِ البَساتِينِ

وقف الأستاذ راميًا ببصره الحنون، باسمًا بسمة الحب الأبوي، وفتح باب الفَصل وغاب دقائق ثم عاد وإذا معه مدير المدرسة مع مجموعة من المعلمين يدخلون الصف ويطلب من الطالب إعادة البيت، وهكذا فعل الطالب، وهكذا بدأت رحلة الكتاب الأولى مع (ديوان حافظ) لطالب غر صغير يحاول صعود حائط طويل أملس لوحده.

وكان الكتاب التالي مع "الشوقيات" حين حدَّث المعلم طلابه عن الصداقة الحميمة بين شوقي وحافظ، وروى لهم حادثة بينهما، لم يطَّلع عليها الطالب إلى اليوم في كتاب، لكنه ما زال يحفظها من فم ذلك المعلم العملاق ومن المرة الأولى، وقد كان ذلك الطالب يومها لشدة انتباهه لهذا المعلم يكاد يحفظ منه مقطوعات تصل إلى عشرة أبيات، تقول الحادثة حسب روايته:

أن شوقي لِغِناه كان دائمًا هو الذي يقدِّم القهوة والشاي على حسابه إن جلس مع حافظ إبراهيم على المقهى، فأراد شوقي يومًا أن يناكف حافظ، فبعد أن شربا مرادهما حضر النادل فغطى شوقي وجهه بجريدة في يده محرجًا بذلك حافظ، فقال حافظ:

يقولون إن الشَّوق تُحرق ناره ... فما بالُ شوقي اليومَ أصبح باردًا

فرد عليه شوقي:

أَوْدَعتُ إنسانًا كلبًا وديعةً ... فأنكرها الإنسانُ والكلبُ حافظُ

فيذهب الطالب مرة أخرى باحثًا عن شعر شوقي، فيعرف من معلم هو المسؤول عن تلك الخزانة الصغيرة أنَّ له ديوانًا يسمى (الشوقيات)، فيأخذه مجلدًا مجلدًا وهناك يكتشف خطأ المعلم حين قال إن حافظ رثى شوقي في قصيدة مطلعها:

قَدْ كُنتُ أُؤثِرُ أَنْ تقول رثائي ... يا مُنصِفَ الموتى من الأحياءِ

فإذا هو لشوقي.

ويماشي الطالب معلمه بعد أيام يترصَّده لوحده آتيًا من بيته إلى المدرسة إذ هو قريب منها، فيُخبره الخبر ولمن البيت، فيبِشُّ له المعلم ويُربِّت على كتفه، وهكذا انطلق الطالب نحو خزانة الكتب في المدرسة متعرّفًا عليها قارئًا (قصة مدينتين) لديكنز، وكتب مصطفى محمود التي راقت له وخرج بها أشد الفرح إلى أن أنهى المكتبة –الخزانة اليتيمة- كلها، وبدأ البحث عن غيرها إلى أن قادته رِجلاه يومًا إلى رجل أَشْيَب مقطوع أحد القدمين، لحيته كثَّة، ينشر كتبًا تحت واجهة حائط مُهدَّم يقابل بناية أمانة العاصمة عمان، فيقف أمام الكتب متمنيًا التهامها، لا يملك في جيبه مالًا، يقوّي نفسه ليتقدّم للمساومة، وفي لحظة شجاعة نادرة مدّ يده إلى رواية (الشيخ والبحر) لهمنغواي، وقلَّبها ثم بصوت خائف مرتجف سأله عن ثمنها ولا يدري ماذا حدث معه بعد زلك سوى أن قبل الرجل بعض القروش التي يحملها ثمنًا للرواية التي ذاق معها متعة رائعة يحن إليها إلى اليوم ويحاول قراءة الرواية مرات متعددة ليتذكر تلك المتعة العجيبة!

إنه التشكيل الأول الذي نحتاجه مع أول قدم لنا في المدرسة لنأتلف معها ومع الكتاب، لكن الواقع غير ذلك، فلا أعلم في أيامي بغضًا في قلب الطلاب يعادل بغض المدرسة والكتاب المدرسي، وما ذلك إلا لأساليب التعليم وحال المعلمين، وقد قرأت تجربة الشيخ محمود شاكر مع اللحظات الأولى مع المدرسة التي رمت في قلبه كراهية الكتاب والمدرسة، وهذا يدل على أن الحال واحد والتجربة تتكرر، ومما لا شك فيه أن الحال اليوم أسوأ وأشد مأساوية؛ إذ كَسَدت سوق المعرفة والعلم، وطارت هموم الشباب إلى متع حياتية تأكل الكتاب وقيمته، فالأحلام مسروقة إلى أمراض عصابية وخمول ذهني، ورغبة جامحة نحو السفاهات، مع ضياع القيم التي يجب فرضها في المدرسة واحترامها، وجو يكرس في كل لحظة أن الحياة وقيمتها طريقها لا تمت إلى العلم والمعرفة بأدنى صلة، بل ها هي الحياة بين أيدي جهلة لم يتقنوا شيئًا سوى الكذب

والخداع والثعلبة من رئيس الدولة والذي لا يكاد بعضهم يفك الخط -كما يقولون- ومع ذلك فهو راعي الثقافة وأبو العلم وباقر الحكمة وأس المعارف، إلى الثري الوجيه والذي عُرف في كل أدوار دراسته بالبلادة وثِقل الذهن، ومن سلك سبيل العلم والمعرفة فهو حذاء عند هؤلاء يمتطونه لحاجاتهم، وسيف يُستأجر لمدحهم وذبِّ الخصوم عنهم، لا فرق بين شاعر القصر ومفتي الديار، ولا بين دكتور الجامعة وصحفي ساقط، فما للشاب وهذه الطريق؟! إذ لا يجد التشجيع لها ولا هي موجودة أمامه لتكون إحدى خياراته.

تقول طرفة أن رجلًا أراد أن يشتري جارية فسألها: "بيدك صنعة؟" فقالت: "بل برجلي"، وقد صدقت فقد كانت راقصة، وما زلت أذكر مقال الشيخ محمد إبراهيم شقرة في جريدة الدستور الأردنية تحت عنوان: "آه يا دكتور منصور لو كنت راقصًا!!"، فهذا الدكتور منصور أستاذ جامعي سَجَّل باسمه بعض النظريات العلمية وله اهتمام أدبي، بل وله كتاب ضد طائفة الأحباش بعنوان (الرحمن على العرش استوى، بين الحنابلة والتنابلة) -أرجو أن لا أكون مخطئًا في العنوان فقد قل اهتمامي كثيرًا بعناوين الكتب، مع أن متعتي الأولى كانت حفظ أسماء الكتب وأسماء مؤلفيها، لكنها الرحلة وندوبها-، وقد قرأت أنه سجل أخيرًا اكتشاف دواء عشبي لمرض السكري.

أراد الشيخ شقرة أن يقول: من يسمع بك يا دكتور؟ فلو كنت راقصة لتسامعت بك ركبان الصحراء، لكن من يسمع بك وأنت مهنتك الحرف والعلم والحكمة؟!

إنها ليست جريمة الناس بل جريمة الإدارة السياسية في بلادنا فهم الذين يُحطِّمون قيمة المعرفة كل يوم ويسقطون قيمة أهلها.

ألم يقل أحد وزراء هذه الإدارات المجرمة عن المثقفين: "سأُدخلهم الحظيرة". وقد نجح هذا المجرم —وللأسف-.

كان مما ذكر من رصد عميق بين الحاكم واهتماماته وبين الشعب والرعية أنَّ سليمان بن عبد الملك كان له اهتمام زائد بالبناء والإنشاء، فكان الناس في عصره أشد اهتماماتهم بالبناء والتشييد وتزيين العمائر والمساكن، ثم كان عمر بن عبد العزيز والذي كان اهتمامه بالعلم والعبادة، إذ في بعض الروايات أنه أول من أمر بتدوين —نقول تدوين لا كتابة وهناك فرق بينهما- الحديث النبوي، فلم يكن للناس من همٍّ أعظم من همّ مذاكرة العلم وحفظه والعبادة، فماذا نقول عن أمة فيها مثل هؤلاء النوكى، والذين لا هم لهم سوى سجن الإنسان وقتل عقله وذكائه؟!

لاعب كرة القدم برجله أرفع وأعظم وأغنى وأشهر من كل حملة الأقلام في مجتمعاتنا.

الراقصة برجلها كذلك.

العلم والمعرفة ومحبة الكتاب صناعة وبنية ومحيط وروح تُرعى وتُقوّم ويُعتنى بها، فلو تُركت لوحدها لماتت أمام شهوات النفس الأخرى وحرب الشيطان عليها؛ فكيف لو حوربت من قبل السيف والمال والسلطان؟!

كيف لو وُجد حاكم يقول: "ليتنا لم نُعلِّم هذا الشعب الجاهل، فمنذ أن بدأ يقرأ ويكتب فتح عينيه وبدأ ينافسنا ويُتعبنا"؟!

المعركة ضد الكتاب والقراءة قائمة سوقها ولم تنته بعد، لكننا الآن نجزم أن الكتاب ما زال خاسرًا ضعيفًا، ويتخبط تخبطًا يجمع بين ثورة الرفض والهذيان.

- كان آخر ما تشكل من عوائق تمنع القراءة وانتشارها وإحياءها هو هذه الكتابة الجديدة التي أرادت القفز عاليًا فدُقَّ عنقها، كتابة أول ما جَنَتْ جنت على نفسها فقطعت الصلة بينها وبين القارئ، **كتابة الحداثيين وأمثالهم** ممن يشكون ليل نهار أن كتبهم لا تُقرأ، وهم يهرفون بعصاب وهذيانات، يحاولون بجهلهم التقليد واللحوق بالحداثة وما بعد الحداثة.

إن الرحلة الإنسانية بنائية تُعدِّل ولا تهدم، توصل ولا تلغي، لكن هؤلاء نسفوا كل القديم، وسفَّهوا كل التراث، وليتهم أبدعوا بدائل حقيقية بل ذهبوا يتخاتلون تقليدًا مقيتًا خارج بناء الأمة ومشارعها وذوقها وإحساسها وآلامها وآمالها، فما عادوا إلا بهذيانات الحشاشين ورقص المجانين، وَهَمُّ الواحد منهم أن تتبناه مؤسسة "القطاء الفكر" –فرنسية أو أمريكية– ليشتم أمته ويلعن كل من فيها، ويكتب عن رحلة اللواط مع الحمير التي عاشها– إي والله– أو يكتب سبًّا لأبيه وأمه، وشهوته أن ييسر الله له شيخًا مُعمَّمًا يُحرِّم النظر في كتبه، أو فتوى تطلِّق منه زوجته ليصبح ضحية الظلاميين، وشهيد الكلمة، وهو لا يزيد أن يكون حمار مخلاة، يخطئ في أبجديات اللغة ونحوها وكتابتها ورسمها، ومع ذلك فهو مثقف خطير عند نفسه "العظيمة" وعند أمثاله الجهلة، وبمقدار خبثه وتملقه يكتب عند النقاد كتابة لو سُئل كاتبها عنها وما معناها لم يجد جوابًا، لكن يكفيه فقط أنه افتتح مقاله أو كتابه بكلمة لكاتب أجنبي، حتى لو كانت هذه الكلمة يقولها بائع أسطوانات الغاز في بلادنا مائة مرة في اليوم، لكنها هنا تشير إلى أنه الرجل مثقف عالمي، يتابع الفكر المنتج هناك.

مأساة طردت البقية الباقية من مُحبِّي الثقافة والعلم والمعرفة، وبعض الشعراء لفقرهم –الذي يعادل فقر الكنائس في أوروبا– أحضروا معهم في ندواتهم الشعرية عازف موسيقى لعلّ الناس يأتون إليه كما يذهبون إلى حفلة رقص

مهووس.

لم يحققوا تواصلًا بين الإنسان العربي وتاريخه وتراثه، بل أعملوا هدمًا بكل ما له صلة به، ولم يبسطوا طريقًا يبين هذا الإنسان وقضاياه وإنسانيته، بل غابوا مع ذواتهم المريضة المضطربة مترفِّعين عن هذا الإنسان، فجَنَوا نتيجة ذلك إعراضًا وذمًا وتحقيرًا، وهم أهل ذلك كله.

سبوا التراث ولعنوه بكل شتيمة، وأشاعوا أنه ما وُضع إلا لأحذية السلاطين، مع أنهم كانوها بكل جدارة .

عرّوا التراث من العلمية، فلا يوجد فيه مسرح إذًا هو لا شيء.

يا للهول تراث ولا مسرح فيه، هذا شيء مقرف ومخجل!!

التراث الديني معوق، نص جامد، الروح الإنسانية مفقودة منه، والكتابةُ-أيُّ كتابةٍ- عن غير الإنسان ليست أدبًا ولا تستحق النظر.

هكذا شطبوا أطنان الروائع العميقة الجميلة، الكاشفة عن أجمل ما في الإنسان من غرائز[١٥].

وإن مدحوا شيئًا من التراث فإنما هو مدح الآخرين له، وإن درسوا شيئًا منه فلاعتناء الآخرين به.

صدَّعوا رؤوس الناس بثلاثة أو أربعة لا يعرفون غيرهم من تاريخنا مع أنهم في الحقيقة يشوّهونهم ويُلبسونهم ثيابًا غريبة عنهم، فأبو الوليد بن رُشد على كل لسان منهم، ولو سألت أحدهم كم قرأت له من كتب؟ لحرن كالحمار وهرش ذهنه، وربما قال لك: (فصل المقال)، ثم لا غير، وإن زاد قال: (تهافت التهافت). وإن سألت عن سيرته وحياته لكان الجواب مأخوذًا من فيلم ساقط صنع من ابنة العلم الجليل راقصة غواية وفسوق، ثم نهقوا وقالوا: شكرًا للغرب الذي عرفنا بتاريخنا وكشف رجالنا!

رحم الله الشيخ شاكر حين استعار من (رسالة الغفران) للمعري قولةً تلائم هؤلاء: "أف وتف ثم جورب وخف"، قيل له: ما أف وتف؟ قال: "واديان في جهنم".

ثمَّ يأتون ويشكون أن كتبهم كاسدة، لا أقصد أنه يمكن بيع مائة نسخة من كتبهم، بل والله لا يُباع منها كتاب على وجه الطلب الحقيقي.

---

[١٥] **للذكر فقط: الغرائز ليست هي الشهوات كما يقصد معناها البعض اليوم فالتدين غريزة والعقل غريزة...**

كم قرأت من مرات لأمثال هؤلاء أنهم جلسوا في معارض الكتاب هنا وهناك وراء كتبهم يروّجون لها فلم يلتفت لهم أحد، وفي الختام -لبقايا حياء أو مصانعة- قاموا واشتروا من بعضهم البعض، موقِّعين على كتبهم لبعضهم، ثم يلتفتون وإذا بقايا القُرَّاء في هذه الأمة همهم: (زاد المعاد) لابن القيم، (وطوق الحمامة) لابن حزم، (وديوان المتنبي)، (وفي ظلال القرآن) لسيد قطب، و(رحلتي الطويلة من أجل الحرية) لنلسون مانديلا؛ لأنهم يجدون إنسانيتهم وغرائزهم فيها.

العلم والثقافة والمعرفة لِتكون مشاعًا مرغوبةً؛ لا بد أن تكون إنسانيةً تحقق التواصل مع الإنسان، وذلك أن يجد نفسه فيها، لا أن تقدم له ما يعرف كما يزعم البعض، ولكن أن تقدم له الإنسان.

ما الذي يجعل كتابًا مثل (رأيت رام الله) لمريد البرغوثي مطلوبًا، تتعدد طباعته؟

الجواب: لأنه كتاب إنساني، فيه الإنسان الحقيقي الذي نعرفه، فيه الإنسان السوي الذي نحبه ونكرهه، فيه أنا وأنت، يُضحكك ويُبكيك، ومع رحلة القراءة معه تحس أنك رافقت إنسانًا.

إن هذا الجنون المنفلت من عِقاله والذي وصلت هذيانات قائليه إلى أن اللغة ليست للتواصل، والنص ليس للفهم، والعبارة ليست للإبانة، لا يبني ثورة قراءة بل يهدم البقية الباقية من رغبة القراءة المتحشرجة.

جريمة تستحق التهمة حين تدمر أجمل غرائز الإنسان؛ غريزة البيان، كما قال تعالى: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}.

وهذا عائق يثير غيظي أكثر مما يثير عقلانيتي، فأمسك القلم مجبرًا إياه على الوقوف، معللًا النَّفْس أنهم هم من صنع السم وهم من سيحتسيه، ولولا بقية نفط وعمالة ومؤسسات خبيثة لحصل مجلس العزاء تامًا.

هؤلاء يسحبون بساط الجهل نحو مساحات جديدة فيها الخداع أن ما تحته ثقافة ومعرفة، وهذه جناية أخرى لا علاج منها، كما وصفها الخليل بن أحمد: "جاهل ولا يدري أنه جاهل، وعلاجه بكلمة واحدة: عظّم الله أجركم".

- هناك عوائق أخرى تتعلق بالوضع الاقتصادي والقدرة الشرائية في مجتمعاتنا، ولكنْ هذه عندي أمور خادعة؛ فإن الإدارة السياسية لو كانت أمينة حقًّا على عقول الأمة لتلاشى هذا العائق واكتشفنا وهميته، وكذا لو كانت الأمة تحب الكتاب لرأيناها تقدمه على بعض الكماليات الزائفة والتي ينتشر فيها التنافس والتباهي، فإن أمة يدخل المستقبِل

للفضائيات إلى بيوت يعيش أهلها بين المقابر لِحرصها عليه لمدعوَّة إلى إدخال الكتاب في حياتها، ولكنه الزهد القبيح الجاهل.

هذه عوائق يجتمع فيها الكاتب والقارئ والمحيط، وإحياء القراءة وأهمية الكتاب مرتبطة بإحياء الأمة، ومعرفتها بأهمية وجودها ودورها الرِّسالي، وأنه كما قال الشيخ الفاضل أبو الحسن الندوي -رحمه الله- في عنوان كتابه المفيد القيم: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟).

نعم لقد خسرنا أنفسنا وخسر العالم الكثير، فهو عالم من في رجله حرفه بلا عقل أو قلب، وعمت في حضارته: السجون والمستشفيات وضاق فضاؤها بالنزلاء.

متعة القراءة

سُئل الإمام أحمد: هل طلبتم الحديث لله؟ فقال: "هذا عزيز، إنما هو شيء أحببناه".

كذلك إن كون القراءة عبادة، لأن فيها رقيًا لنفس الإنسان وعقله وما يجعله أقرب لمعرفة ربه ونفسه وحياته؛ فإنها كذلك متعة هي أجلّ متع الحياة وأنبلها شرفًا وقدرًا وأثرًا، ولم يكن أبو الطيب مجازفًا الحقيقية وهو يقول: "وخير جليس في الزمان كتاب"، وكان أستاذنا نايف مسودة يستهزئ بهذا العصر ويقول: "وخير جليس في الزمان دينار".
استمع إلى صوت جار الله محمود الزمخشري وهو يرسل روحه إلى أجمل الآفاق وأرفع المتع يحلّق فيها مُعتدًّا متساميًا:

سَهَرِي لِتَنْقِيحِ العُلُومِ أَلَذُّ لي ... مِنْ وَصْلِ غَانِيةً وَطيبِ عِنَاقِ

وتَمايُلي طَرَباً لحلِّ عويصةً ... أَحْلَى وأَشْهَى مِنْ مُدَامَةِ سَاقِي

وصَرِيرُ أقلامي على أوراقِهَا ... أغلى منَ الدَّوكاةِ والعُشَّاقِ

وَأَلَذُّ مِنْ نَقْرِ الفتاة لِدُفِّهَا ... نَقْري لِنَقلِ الرَّملَ عن أوراقي

أَأَبيتُ سَهْرانَ الدُّجى وتبيتهُ نَوْمًا ... وتريدُ بَعْدَ ذَاكَ لحَاقِي؟

القراءة رحلة يبدأ بها القارئ بأوضاع مختلفة:

– بعض هذه الرحلات تبدأ حين يشتهي المرء كتابًا يسمع به، وتقتحمك أخباره قبله، فتتشوف إليه، حينها تكتنفك الرغبة وتسكن فيك، أين هو وكيف الحصول عليه؟! يشوقك الوصول إليه، وهذا الشوق يسكن في نفسك بأثر ما حتى بعد الحصول عليه. ومما يقع لي من عجائب هذا الشوق أنني بعد الحصول على الكتاب تبقى رغبة الحصول عليه ساكنه فيّ، فكم من كتاب طال شوقي له ثم اقتنيته ومع ذلك ما إن أراه مرة أخرى حتى أقتنيه مرة أخرى غير ملتفت أنه عندي وأني قرأته، فكتاب (النُّكت على ابن الصلاح) لابن حجر العسقلاني طال شوقي له لأنه طُبع أولًا برعاية مؤسسة ووزع مجانًا، ومثل هذه الكتب في مجتمعاتنا لا تصلها إلا أصحاب الأيدي الطويلة والصِّلات الواسعة ولم أكن منهم يومًا بحمد

الله تعالى، ثم اقتنيته وما إن رأيته مرة أخرى حتى اقتنيته، حتى كانت أربع نسخ، ولولا تقييد نفسي لكان العدد أكبر، وهذه حالة مطردة تجعل هذه الرحلة المبتَدَأة بهذا الشوق صاحبة ذوق خاص وطعم مميز.

– بعض آخر من هذه الرحلات تدخلها اقتحامًا، تجد نفسك في داخلها، لا تعرف ماذا سيقابلك، تتلمس كل حرف فأنت لا تعرف الكاتب ولا الكتاب، الكل مغلق أمامك، فتبدأ التحسس بوعي متحفز مستطلع مستكشف، وكم هي فحصتك أن تكون هذه القراءة فاتحة أخرى لقراءات تالية، تكون أنت سببًا للتعريف بها لغيرك، أو أن ما وجدته عظيمًا رأيت بعد ذلك أنك التقيت بهذا الحكم مع أصحاب القراءات العالمة الواعية.

وأنا أسوق لك ثلاث أمثلة حصلت مع كاتب هذه الكلمات كشفًا لهذا النوع من الرحلة:

الأول: قد تعجبت أنني لم أسمع قط في بيئتي باسم ابن تيمية أو ابن القيم، فلست تلميذ شيوخ ولا خريج مدرسة دينية، وليست بيئتي من العلم الشرعي في شيء، وتشجع الفتى البالغ السابعة عشر من عمره ليدخل مكتبة لبيع الكتب بجانب المسجد الحسيني في عمان، ووقع في يده كتاب (مفتاح دار السعادة) لابن القيم، وما زال يذكر لون غلافه الرمادي وأوراقه الثخينة الصفراء، وساوم عليه صاحب المكتبة والذي قال له كلمة واحدة: "كتاب مفيد". لكن لم يعرف الفتى يومها أن صاحب المكتبة لا يرحم في الأسعار، ومِن هذا الكتاب اكتشف عالَم ابن القيم التربوي الرائع، لا يعنيه منه سوى الروح وجمالها وتربيتها وصقلها، ومن خلاله سمع بكلمة تتردد في طيات كتابه "شيخنا" فمن هو هذا الشيخ؟! إنه ابن تيمية.

فما إن تجمع بعض المال حتى ذهب لعين المكتبة إياها وسأل عن كتب لهذا الشيخ، وكان أول كتاب: (الفتاوى الكبرى) –وليس (مجموع الفتاوى)– ومن ذلك الأمر بدأت الرحلة، رحلة من أجمل وأروع وأمتع الرحلات، ولم تنتهِ إلى يومي هذا، لم يحققها شيء يستحق الفضل إلا القراءة ونهم الاطلاع والمعرفة، رافقها وتواصل معها شعور بالفرح أن هذه الفتى عرف لوحده روعة الجواهر.

الثاني: يُقلِّب الفتى كتابًا في مكتبة صديقٍ هبطت عليه المكتبة مرة واحدة، وهذه لا أستطيع أن أقول إنها طريقة سيئة لكنها طريقة لها سيئاتها وتبعاتها الثقيلة، وأحزن على من وقعت معه إن كان قارئًا حقيقيًا، إذ ستكون سعادته مدفوعة الثمن غاليًا بعد ذلك، في هذه المكتبة طاب له السهر مع كتاب راقه عنوانه (أباطيل وأسمار) لمحمود شاكر، وتفجَّر الصبح وهو معه لا يؤثر عليه نومًا ولا غيره.

أي روعة هذه؟! أهي روعة العلم والثقة وإدارة الكلمة، وتنسيق الفكرة التي يخوض فيها كأنه أبوها وابن بجدتها؟!

وتواصلت الرحلة مع شيخ العربية يحيا معها وينشرها بين الناس ويشكر لها صنيعها عليه ترغيبًا لمن جهله أو رمى ببصره بعيدًا عنه، وكم كانت فرحة الفتى عظيمة مرة أخرى أنه اكتشف الجواهر بنفسه دون تذويقٍ من أحد، وكان الفضل لعبادة القراءة ونهمتها التي لا تعرف الحدود.

الثالث: الرجل الثلاثيني صار له معرفة بخبايا الكتب، وما من بلد يحل فيها إلا والمكتبات نهمته ورغبته، حتى المكتبات الخاصة، إذ في بعض المرات يكون عارفًا بمواضع الكتب فيها أكثر من أصحابها، يدرك بخبرة تمرَّسها الفرق بين مكتبة الزينة والافتخار وبين المكتبة الحقيقية، بل ويعرف ما هي الكتب المحبوبة لصاحبها وما هي التي وُضعت لشيء آخر، أو وصلت إليه لسبب من الأسباب، ويقع في يديه في مكتبة تجارية كتاب صغير الحجم، وهذا أمر لا يهم هذا القارئ أبدًا، فكُتيب (الحيل النفسية) –أظن أن صاحبه نهاد درويش، فالكهل بدأ ينسى، وهو في غرفة عارية تمامًا فلا مذكِّر له–، وهو أثمن عنده من عشرات المجلدات المنفوخة ورمًا. هذا الكتاب اسمه: (عندما ترعى الذئاب الغنم) للأستاذ رفاعي سرور، ومنه وبالتحسس معه يكتشف نفسًا عالمة، ذوَّاقة، نادرة الوجود في الصف الإسلامي الذي ينتسب للسلف والسلفية، فالنص له روح أخرى فيها قواعد الأوائل وذوق جديد يلزمنا ونحتاجه في هذه الأيام، ومنه يبدأ البحث عن هذا الرجل من خلال كتبه التي تكشف الإنسان الذوَّاق البصير بما يلزم أمته يومها هذا.

إننا في وضع قلَّ فيه المرشد، وغاب عن كثير من المناطق الولي الذي يرعى هذه الغريزة الواجبة، وحينئذ لا يقال لك ماذا تقرأ، بل يقال لك: اقرأ، اقرأ؛ لتكتشف بنفسك، وستكون في خطر عظيم حين تتوقف عن القراءة، لأنك تكون أسيرًا لقيد لا تدري أَيُودي بك إلى جنة أم إلى نار، وإنه لمسكين خاسر من قرأ هذه الكلمات فبدأ بالقراءة في أول كتاب صادفه ثم كَلَّت عزيمته فكان أسير ضلال هذا الكتاب، حينها يكون سبب هلكته هو، لا لنصيحتي.

فإن قيل لك: إن الغثاء كثير، فقل: هذا هو قانون عروق الذهب المختفية المتلوية بين الصخور والأتربة في عمق الجبال والوديان.

فإن قيل لك: دع غيري يعانيها وأنا آخذ صفوًا بعد تلخيصها، فقل: فأين متعة الرحلة؟!

وتتواصل الرحلة مع الكتاب، رحلة استكشاف الحرف والكلمة والصورة، ففيه ومعه تتشكل الصور الذهنية، وتستعرض نفسها أمامك، وكلما أَعطيت الصورة فضاءً عقليًا أعطتك جمالًا وفتحت لك مجالات ومجالات، وكل صورة لا تذهب وإن أتت أختها، بل تختزن في باطنك كعالم المثال، ويبدأ تواصل الإمداد بين عقلك وعلمك وبين الكتاب، تغذيه ويغذيك حتى تكتمل رقيًا إلى درجة التفاعل ثم دخولها إلى الوجدان والأحاسيس، أحاسيس الفرح والحزن والرضا والغضب.

وفي هذه الرحلة تنشأ الحوارات الباطنة مع هذه الصور الفكرية حينًا وصور حلم اليقظة حينًا آخر، فكرًا وتجسيدًا بحسب الحرف وتمايله أمامك، حوارات في كثير من الأحيان لا تقدر عليها إلا هناك مع الحرف والكلمة.

هذه الصورة لا تخضع لها كالخاضع لمنظر جميل أو لصورة ورقيَّة أو لصور الأفلام المرئية بل هي صورة تشترك أنت في تشكيلها، وكلما ارتقت معارفك وعلومك وقراءاتك كلما كنت أكثر فنًا في الإمداد والإعانة والتشكيل، من هنا كان البيان سحرًا كما سماه حبيبي وسيدي رسول الله ﷺ، وهو سحر حلال، كما قال الشاعر في وصف حديث حبيبته.

إنها رحلة تعيدك إلى طفولتك الحالمة الخالصة من النفاق والكذب والخداع، المرتفعة عن حطام النفس، التي وصلتَ إليها خلال مشاقِّ الحياة وقسوتها، فهل قرأت عما كان يبحث سيد قطب بعد أن صار ناقدًا وأديبًا وكاتبًا؟!

كان يبحث عن الصور التي كانت في طفولته وهو يسمع كلام الله تعالى، الصور الجميلة البريئة، ولما وجدها صرخ صرخة أرخميدس: "وجدتها.. وجدتها"، كما حكى ذلك في كتابه: (مشاهد القيامة في القرآن الكريم)، وما فعل من شيء جديد سوى أن نمَّاها وكبَّرها، ثم عرضها بعلمية الأدوات التي اكتسبها في رحلته العلمية.
فهل هناك من متعة أعظم من تلك المتعة التي أحسَّها أكثرنا –وأنا منهم– في أحضان جداتنا وهُنَّ يروينَ لنا حكايا الليل؛ "حديدون" و"البنت الحمرا" وغيرها، مما هي عند غيرنا تشكل البناء الأوّلي للإنسان؛ فإن عمدة بناء الطفل اليهودي خلال رحلة اليهود إلى أرض فلسطين كانت تُبنى كأُسسٍ تستعصي على كل عوامل الهدم والتَّعرية من خلال تلك الحكايا الليلية.

القراءة إحضار للحدث كلما تريده ليبعث فيك الإحساس الذي تريده؛ فحين أحتاج إلى إعادة الإنسان في داخلي لا أتردَّد في فتح (صحيح البخاري) لأقرأ أجمل وأروع وأصفى صورة إنسانية برواية الإنسان الصادق الحساس الأديب، قصة الإفك مع أمي الحبيبة عائشة بنت أبي بكر الصديق زوج سيدي وحبيبي رسول الله ﷺ، حينها أبكي ولا بد من بدايتها إلى نهايتها، لكن دمع نهايتها مختلط ببسمات حاولت مرات أن أفرز معانيها المتعددة ففشلت.

تعالوا إليها يا قساة القلوب لتلين قلوبكم.

يأتي إليك الحديث وتقف على مِنَصَّته، لا، لا تقف على منصته، بل تدخل فيه حتى تصبح جزءًا منه تحس به، فآلامه فيك وأفراحه فيك، تبكي لبكاء صاحبه وتفرح لفرحه، فيه تحب عائشة –رضي الله عنها– حبًا تتمنى فيه أنك فديتها بنفسك ومالك وأهلك أجمعين، تحبها لطُهرها وسماحتها ورقَّتها وعفويّتها، تحبها لألمها حين تُتهم ذلك من ذئاب النفاق

ومُستَغفَلين خُدِعوا ثم تابوا فتاب الله عليهم. تتألم مع هذا الحب الذي يدفع دمع الحب والتألم رغم قساوة القلب وغفلته، ثم تحبها وهي تقود معركة المرأة الجريحة فتنادي أباها العظيم وأمها الحانية: "أجيبوا عني رسول الله"، ولا مجيب ليس لجبن –عياذًا بالله–، وليس لعدم إيمانهم بقضيتها، فهي عندهم أنقى من ماء السماء، ولكن الحياة أعقد من ذلك، ليس خيطًا واحدًا ولا خيطين ولا ثلاثة، فالذي يقول لها: "يا عائشة: إنْ كنتِ قد أَلمتِ بذنب فتوبي إلى الله، فإن العبد إذا أذنب ثم اعترف بذنبه فاستغفر غفر الله له"، هو زوجها والذي هو أولى بها من نفسها ومن أبيها وأمها، وهو حبيبها وهي حبيبته.

ثمَّ في أعلى درجات العقدة القصصية، وأقسى درجات الظلمة والفتنة يأتي الوحي بشمسه وإشراقه ونوره وهدايته ليكشف ويهدي ويقوِّم ويحكم ويسبغ فضلًا جديدًا على هذه النفس العظيمة، نفس أمنا عائشة، فتسمو مع هذا الفضل، وتشعر أنها كانت مع ركن عظيم هو الذي يستحق الثناء وحده، فتبكي وتضحك ويرتعش بدنك مقشعرًا وهي تقول: "والله لا أحمده ولا أحمد غيره، ولكن أحمد الله وحده".

وتحبها لعزة نفسها ودلالها على حبيبها، وأعمق من ذلك كله أنها تعرف موقعها من الحياة؛ موقع العبودية لله تعالى، ويرتد الحوار ملتفتًا إلى حبيبها وزوجها، فتدخل الصورة هناك، صورة لا تبكيك أبدًا، بل شيء آخر لا أدريه على وجه التحديد، لأنها صورة العظمة الإنسانية المُمتَحنة، لكنها راسخة، تعاني وهي ثابتة، كالجبال تحسبها جامدة وهي تمر مَرَّ السحاب.

يقف ﷺ بين الناس وهو يعلم أنه أحبُّ إليهم من أنفسهم ويقول: "من يعذرني في رجل يؤذيني في أهلي؟!"، يا الله أي عظمة هذه؟! وأي إنصاف هذا؟! وأي حنان هذا؟! وأي انفعال إنساني هذا؟!

فليس هو بالملك، وهو أكبر من كل السلاطين والملوك.

وليس هو بالضعيف، وهو أرق وأصفى من كل البشر.

وتكتشف نبوَّته أولًا وحبه لزوجته ثانيًا، ذلك الحب الذي يقبل الدلال الراقي الرفيع وهو يبتسم راضيًا لقولها: "والله لا أحمده ولا أحمد غيره، ولكن أحمد الله وحده".

فيبتسم ابتسامة الرضى لقولها، فما حياته ولا جهاده ولا هدفَ له في الحياة إلا أن يحمد الناس ربهم.

وتذهب الرحلة بك إلى غضب شديد نحو أعداء هذه الأم العظيمة، مَنْ أظلمت قلوبهم واشتد عليها الران، فاتخذوا عداوتها دينًا والكذب عليها طريقًا.

إن القراءة رحلة الاشتباك، رحلة الإنسان كله، رحلة العقل والروح والعاطفة والتأمل مع الصور المعقدة المتشابكة، وإنها في بعض جوانبها رحلة أعمق من شهود الحدث نفسه، فإن الشهود العياني للحدث في أغلب الأحيان لا يُحقّق لك التأمل العقلي لأنك غارق في المتابعة البصرية، مشدود إلى الأجزاء، وقد يتأخر التأمل العقلي، بل الأغلب أنه يتأخر، لكن مع القراءة الحال مختلف، فالصورة تتجرد عن زوائدها، وتبرز معالمها المعنوية حضورًا طاغيًا.

حين تريد رحلة المتعة العلمية نحو العلاقة الظاهرة بين الرجل والمرأة مع زمن متقدم، اقرأ حديث "أم زرع" من (صحيح البخاري)، وهناك ستشتبك مع حبال متعددة تحاول الخلوص من الحرف والكلمة بوعي لغوي، ثم الخلوص إلى الصورة لتتجرد أمامك، ثم التفاعل معها لتتذوقها، ثم الخروج منها لتدرك وعيًا علميًا يتلاءم مع قراءتك لكل ما قاله وسمعه رسول الله ﷺ؛ فإن قراءة هذا الباب من الكتب له مساحات أعمق وأوسع من كل قراءة أخرى؛ لأنها قراءة التعبد والوعي في أجلى صورة.

مع أن الجهلة الأغبياء من أعداء القراءة الدينية يظنونها قراءة عرجاء لا فَهْم فيها ولا إدراك ولا تفكر ولا حوار ولا مراجعة، وهذا من جهالاتهم؛ فإن القراءة الدينية قراءة المتعة وقراءة الوعي وقراءة الالتزام وقراءة الفعل، ولا يوجد قط قراءة بمساحتها ورحابتها، فإنها شاملة لكل الإنسان، وعقلاء البشرية هم قوادها في العلم والمعرفة، وهم الأكثر تأثيرًا على الإنسان ولا يوجد أحد أثَّر تأثير الأنبياء وأتباعهم في هذا التاريخ الطويل، لكن سبب كُره هؤلاء للقراءة الدينية لأنها كاشفة لإرادتهم المحطمة ولالتزامهم المفقود وهروبهم من أعظم غرائز البشر رقيًا وهي غريزة التعبد والفقر لله تعالى.

ولكل قراءة متعتها ورحلتها، فقراءة الفكر المجرد رحلة أخرى، تصنع لك أبعادًا ذهنية من الوعي والإدراك، وتُطلقك في فضاءات قاصرة فقط على صناعة الحرف والكلمة، لا يمكن صناعتها من أي شيء آخر يمارسه الإنسان من فنون كفن الرسم والنحت والبناء والتصوير، ويكفي الكلمة جلالًا في هذا الباب أن الله تعالى بعظمته وجلاله وقدوسيته وسبوحيته وهو فوق الإدراك وفوق التخيل والتوهم، عرَّف نفسه لعبيده عن طريق الكلمة، وأبلغت المراد وحققت أجلى العلم وأوضحه وأرقاه.

اقرأ قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}.

اقرأ قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

اقرأ قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}.

كلمات تعلّمك وتؤدّبك وترقّق نفسك وتصنع لك حب الموصوف وعظمته وجلاله فتقشعر لجمالها وجلالها، فهل هناك أروع من التقاء الجمال والجلال؟

سُبُّوح قدوس رب الملائكة والروح.

مع القراءة يكون الطرب وتكون النشوة، تهزك الكلمة الجميلة برونقها، وتعجبك من جمال صناعتها وعمق وتصورها، وتتساءل كيف صنعها صاحبها؟!

انظر إلى قول عنترة في معلقته:

وَخَلَى الذُّبَابُ بِهَا فَلَيسَ بِبَارِحٍ ... غَرِداً كَفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ

هَزِجاً يَحُكُّ ذِراعَهُ بذِراعِهِ ... قَدْحَ المُكَبِّ على الزِّنَادِ الأَجْذَمِ

ألا تطربك هذه الكلمات؟! ألا تهزك؟! لقد صدق من قال: "أن هذا التشبيه الذي قاله عنترة –ومعنى عنترة الذباب الأزرق– لم يستطع أحد بعد ذلك أن يقلده".

وقف أبو العتاهية لينشد المهدي يوم توليه الخلافة وهو على المنبر فقال:

أَتَتْهُ الخلافة مُنْقَادةً ... إليه تُجرِّرُ أذيَالها

فَلَم تَكُ تَصلُحُ إلا لَهُ ... ولم يكُ يصلحُ إلا لها

ولو رَامَها أَحدٌ غَيرَهُ ... لَزُلزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالهَا

ولو لم تُطِعْهُ بَنَاتُ القُلوبِ ... لما قَبِلَ اللهُ أَعْمَالها

فاهتزّ أبو معاذ –بشار بن برد– وقال لمن حوله: "ويحكم ألم يَطِر الخليفة عن أعواده؟" وبشار هو من هو الذي لا يعجبه العجب، واعتِدَادُه بشاعريته حتى لا يرى سواها، لكنها سطوة الكلمة وروعتها المنشية رغم أنف سامعها إن كان صاحب ذوق وأدب ومعاناة.

في القراءة تكون الرحلة عبر الزمن والتاريخ وعبقه، أحداثه، مسرّاته وأحزانه، تتراءى لك الجيوش وتتهاوى أمامك ممالك وتنتصب أخرى، وتعيش سير الآخرين، فالإنسان أعظم من أن يكون واحدًا، إنه يستطيع أن يعيش آلاف البشر، ويستطيع أن يعيش آلاف القرون ويستطيع أن يتجاوز ما هو أسير له في بدنه من مكان وزمان.

مع القراءة تطوف في كل الأماكن، تحضر بناء المدن وتشييدها وهدمها، وتختلي في أزقتها مع أنفاس أهلها البسطاء، كما أراد ذلك الشيخ علي الطنطاوي في كتابه (قصص من التاريخ)، ومع ملوك وسفههم كما أراد لك شكسبير في (الملك لير)، ومع الطغيان وفلسفته في (ذئب البحار) لجاك لندن، ومع قطوف دانية من المقاربات الإنسانية المتعددة والمختلفة في (وحي القلم) لمصطفى صادق الرافعي، ومع رحلة القلق الفكري الذي يعزز واقع يحتويها، وصراعها يمتد من حلقة العلم إلى المعارك والجيوش في (المنقذ من الضلال) لمحمد بن محمد بن محمد الغزالي.

وبعد الإياب من الرحلة يبقى صخبها، ضجيج الحرف لا يزول بإزالة عينيك عنه، ورائحة التاريخ تبقى سحائبها، وقيم العلم تستقر في قلبك وعقلك، تُشكِّلك بعد أن طحنتها كلها أنت في داخلك، تَلبَّستك بعد أن أحضرتها أنت ضيفًا عليك، فأنت تبنيها وهي تبنيك، وحين تتعب تسرح نفسك متأملة تأمل الرقي والوعي الذي صنعته القراءة، ومدندنًا بالحرف الذي راقت لك موسيقاه وجرسه، وحين تجتمع مع الإخوان تأخذهم إليك، إلى حديقتك، تصنع لهم جديدًا من خليط قراءاتك، وتروي لهم حروف قراءاتك، وحينها تستحق في ختام الرحلة اسم: عا لم.

(يُقال لقارئ القرآن يوم القيامة: اقرأ وارتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها).

هذا هو أمر قراءة القرآن في الآخرة، وهو أمر كل قراءة في الدنيا.

طقوس القراءة

قال الحبيب المصطفى ﷺ لعبد الله بن مسعود: (اقرأ عليَّ القرآن)، فقال له عبد الله: أقرأُهُ عليك وعليك أُنزل؟ قال ﷺ: (نعم فإني أحب أن أسمعه من غيري).

لآلية القراءة اعتناء كآلية الكتابة، وقد تشوّف الكثيرون لطقوس الفكر محاولةً منهم الاقتراب من هؤلاء وممارسة أفعالهم؛ فإن الأجواء لها تأثير على الإنسان ونشاطاته، والفكر له شِقّان: فطري وصناعي، والكثير يحس في نفسه الاستعداد الفطري مع الرغبة الشديدة فيه فيسعى إلى تحصيل الصناعي. والحق أن الفكر لا يتلبّس الإنسان رغمًا عنه، وإن بدا أن الفكرة تبدأ كخاطرة، بل كل شيء لا بدّ مِن قَصْدِهِ؛ فالقصيدة ليست وحيًا ولا إلهامًا تغزو الإنسان فيخضع لها كما يتوهم البعض، بل هي تُقْصَد ولذلك سميت "قصيدة"، فليس هناك شياطين الشعر الذين يوحون لشعرائهم كما تقول الخرافة الجاهلية ورددها الناس بعدهم، فزهير بن أبي سلمى تسمى قصائده بـ"الحَوْليّات"؛ لأنه كان يُعاينها ويحبّرها ويراجعها حَوْلًا (عامًا) كاملًا، فهي صناعة تامة، ومن قرأ ما قاله الآمدي في (الموازنة) عن أمر أبي تمام وكيف صار شاعرًا علم هذا الأمر؛ فقد قال عنه أنه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا مُحدَث إلا قرأه واطلع عليه، وقد قال عن نفسه –كما روى عن ابن خلكان في (وفيات الأعيان)–: "أنه لم ينظم الشعر حتى حفظ سبعة عشر ديوانًا للنساء دون الرجال".

وهذا هو شأن الشعر كله والأدب كله والفكر كله: معاناة وتأمل وصناعة ومراجعة وتنمية وتشجيع وتعلم، وإلا فهو أوهام داخلية يحس المرء المريض فيها أنه الشاعر النحرير والأديب الخطير، والمفكر المستنير، والكاتب القدير، فلو أراد لأتى بما لم تأتِ به الأوائل، يَنْعى على قلة الوقت حينًا، أو على ظلم الزمان حينًا آخر، أو على قلة أمل قادم يفجّر من عبقريّته التي ستجعل العالم يقف عندها، وربما لا يأتي ذلك أبدًا! ولو حاول لوجد أنه ليس في الحقيقة إلا معوّقٌ جاهلٌ لا يستطيع أن يُنشئ جملة من غير خطأ، ولا أن يُحرِّر فكرة من غير تشويش، لقد صدق رسول الله ﷺ حين قال: (إنما العلم بالتعلم)، وأكثر الناس إدراكًا لوهم هؤلاء هم المعانون لهمّ الفكر وكتابته وقراءته.

كم تسمع من أحدهم: "هذا أمر هيّن لو شئت لفعلته"، لكن السؤال: لِمَ لَمْ تفعله؟! والحق أنه لو أراده لانقلبت قفزته على قفاه، وكم من الأمور تبدو لنا سهلة ميسورة لإتقان القائمين بها وسرعتهم في أدائها، فنظن يُسرها، فإن حاولنا علمنا كم من التدريب والِمران والعرق والجهد والقراءة والتجربة نحن بحاجة إليه حتى نصل إلى هذه المرتبة أو هذا الفعل.

قد لا يدري القارئ وهو يُقدَّم له كتاب يلتهمه في يوم أو أسبوع أن صناعة هذا الكتاب احتاجت سنين طويلة حتى كان هكذا بين يديه؛ فهذا الإمام مالك –رحمه الله– يزفر زفرة المعاناة والحكمة –لا أجد لها اسمًا آخر وهي لا شك أعمق من ذلك وأوسع–، وهو يقول لتلاميذه وهم يحملون عنه كتابه العظيم، (الموطأ): "كتاب عانيته في ثلاثين عامًا يأخذه أحدكم في أسبوع".

ثلاثون عامًا، رحلة السماع والمراقبة والتأمل والاختبار والجوع والعطش والإرهاق والتعب تُقدَّم لك في دفتين ترحل معها وبينها في أسبوع!

وليس عجيبًا أن يقول أبو نواس عن نفسه: "ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة غير الخنساء، فما ظنك بالرجال؟ وإني لأروي مائة أرجوزة لا تُعرف".

ما أجهل هؤلاء الذين يظنون أن رحلة الكتاب لا تعدو أن تكون على الأرائك المريحة والفرش اللينة.

نعم يوجد من لا يُفرِّق بين الفحم والماس بجامع أن كلًا منهما كربون، لكن لا تجد مجنونًا يعلق على صدر حبيبته قطعة فحم سوداء أخذها قبل قليل من موقد التدفئة.

وهذا بسطُه في "مفاتيح الكتب" إن شاء الله تعالى، ولكن هذا يقال هنا ليُعلم أن ما يتحدث الناس عنه ويحرص عليه المتعلمون من طقوس الفكر هي متمّمات لصناعة الفكر، فحين يسمع أحدهم أن لون القلم يؤثر على نشاطه الكتابي، فيذهب المبتدئ مقلدًا ظانًا أنه يمكن بقلم من هذا اللون أن تصنع منه كاتبًا.

في لقاء مع مجموعة مشهورة الأسماء في عالم الفكر والكتابة –وأغلبهم من أصحاب التوجه القومي والعلماني– كان الحديث عالي النبرة في بعض الأحيان، وكنت ألبس الثياب الأفغانية وأتحدث بطريقتي التي لا أتكلَّفها حيث أشير بيدي وأنفعل مع كل كلمة أقولها، فأراد أحدهم أن يُرطِّب الجو، وهو دكتور مشهور، فقال للجالسين: "صدقوني أنكم لو خرجتم جميعًا إلى الناس الآن وتحدثتم جميعًا فإنكم ستجدون الجميع مشدودًا إلى أبي قتادة بلباسه هذا ونبرة صوته هذه"، فقلت له: "إن كانت القضية هي قضية لباس في اتباع الناس فلك عليَّ هدية من هذا اللباس لنرى الحقيقة!".

طقوس الفكر تؤثر ولا شك، لكنها من متممات العملية الفكرية، فقد كان أرسطو مع أتباعه يتحاورون ويتراجعون وهم يمشون ولذلك سموا بـ"المشَّائين"، وكان أرسطو يرى أن المشي يعين على الفكر والتعمق فيه، لكن ماذا تصنع مثلًا لو

ابتُليت بمن إذا ماشاك كلما أراد الحديث شدك بضبعيك وكتفك يريد إيقافك لتسمع له؟! حينها لا بد أن تسكت طالبًا جلسة تفصل بينك وبينه مسافة لتسمع له ويسمع لك.

وما من مفكر إلا وهو مشهور **بطقس فكري**، أذكر لك بعض الأمثلة على غير تنسيق:

- ذكر الأستاذ محمد سعيد العريان عن الأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي –وقد كان أصمًا رحمه الله تعالى- كما في كتاب (حياة الرافعي) أنه إن أراد الكتابة يدخل مع العريان في غرفة كتبه وهي ضيقة ويغلق عليه منافذها وهم في حر القاهرة الخانق، وهناك يلقي على تلميذه ما يريد كتابته، فإن حاول التلميذ فتح النافذة لضيق الجو عاد الأستاذ لإغلاقها.

حالة غريبة ولا شك، لكن الأستاذ الرافعي غريب كله، رائع كله، وله في عنقي دَيْن ولا بد أن أرويه، لا دين المتعة والفائدة، بل دين الالتزام الديني:

في الرابعة عشر من عمري تعرفت على (وحي القلم)، كتاب وقع في يدي عرضًا كأغلب الكتب وذلك خلال تنقيبي بين الكتب في المدرسة الثانوية التي انتقلت إليها بعد الإعدادية، وكانت أكبر بكثير من الخزانة اليتيمة إياها التي حدثتك عنها سابقًا، وكنت قرأت قبل (وحي القلم) (حديث الأربعاء) و(على هامش السيرة) و(بين بين) لطه حسين، وهذا فقط ما قرأته لطه حسين يومها، ومع (وحي القلم) طِرتُ كما أراد بشار من المهدي عند سماعه لأبيات أبي العتاهية، وما زلت أذكر تلك اللذة الطاغية مع كلام الأستاذ الرافعي، وإني أُشهد الله تعالى في تلك السن، ومع تلك القراءة الفطرية عجبت أن يكون طه حسين هو عميد الأدب العربي! ولم أكن أعرف لم سمي بهذا الاسم ولا بفن الألقاب وصناعتها، وقلت في نفسي: إن الرافعي من يستحق هذا اللقب لا طه حسين.

ومع (وحي القلم) بدأت أنزلق في داخله حتى وصلت إلى قصة توبة مالك بن دينار –رحمه الله تعالى–، وهي قصة صاغها الرافعي على طريقته الرائعة الجميلة والفريدة التي لا يقدر عليها سواه، كما قال الدكتور محمد رجب بيومي في كتاب بعنوان (مصطفى صادق الرافعي).

وعندما وصلت إلى حكاية الرؤيا التي رآها مالك بن دينار بعد وفاة ابنته من رؤية النار وعذابها حتى رأيتني أغلق الجزء الثاني من (وحي القلم) –وفيه القصة– وأرسل عيني باكيًا متأملًا أن مثل هذه الرؤيا قد حصلت معي، فقد تذكرت أن ثمة رؤيا مناميّة مرت عليّ يومًا وأني رأيت القيامة، فصرخت في الرؤيا قائلًا: يا رب لو أخرتها قليلًا حتى أصلي. وكنت أيامها لا ألتزم بالصلاة، أصلي يومًا وأترك أيامًا.

في لحظتها قلت: ها قد تأخرت القيامة فهلا صليت! وقمت من فوري إلى الاغتسال والصلاة، وكانت صلاة المغرب، ومن يومها كان الالتزام.

رحم الله الأستاذ الرافعي وشكر الله له فضله عليّ، وهذا فضل آخر من أفضال القراءة عليّ بحمد الله تعالى.

- ذُكر من أخبار أبي نواس أنه قال: لا أكاد أقول شعرًا جيدًا حتى تكون نفسي طيبة وأكون في بستان مؤنق، وعلى حال أرتضيها من صلة أو وصل أو وعد بصلة، وقد قلت على غير هذه الحال أبياتًا ولا أرتضيها.

- ذكر ابن القيم -رحمه الله تعالى- أمرًا غريبًا عن شيخه ابن تيمية حين استعصاء بعض المسائل العلمية عليه، وكيفية حلها، ذلك أنه كان يذهب إلى مسجد مهجور في نواحي دمشق، ويسجد طويلًا مبتهلًا متبتّلًا بقوله: "يا مُفهِّم إبراهيم فهّمني"، حتى يري أحد الوجوه قوية في قلبه حول المسألة.

وهذه الطريقة العظيمة في طلب الحق قاصرة على المتعبدين الذين يعلمون حقيقة العلم وصلته بالعبادة ومقصده في الوصول إلى رضى الله تعالى، وقد بيّن ابن تيمية -رحمه الله تعالى- في كتابه (الرد على المنطقيين) هذه الطريقة الفريدة العظيمة في مبحث الاهتداء وطلب العلم، وذكرها ابن خلدون في آخر كتابه (المقدمة) وذلك تحت فصل "في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريقة إفادته".

وها أنا أحكي لك عن تجربة صادقة لعلك تنتفع بها:

أول ما صادفني الخلاف في موضوع الأسماء والصفات وعلاقتها بذات الله تعالى وأنا في الصف الثاني الثانوي حيث كنت في رحلة مع جماعة التبليغ، وكان فيها شباب سوريون من حماة، علمت بعد زمن أنهم من تلاميذ الشيخ الصوفي المربي أديب الكيلاني، والذي قُتل بعد ذلك على يد النظام النصيري الخبيث خلال الحركة الجهادية في سوريا، كان هذا في سنة ١٩٧٧ ميلادية، وجرى نقاش بينهم وبين شاب آخر حول هذا الأمر، وكنت وقتها مقتنعًا بقلبي كما هو أمر جماعة التبليغ؛ فالعلم عندهم علمان: علم المسائل وهذا لا نخوض فيه، وعلم الفضائل وهذا هو همّنا. فما أن طرق البحث سمعي حتى أحسست بانقباض شديد وهزة خفت فيها على إيماني الفطري، وشكوت أمري وخوفي بل رعبي لأمير الجماعة وهو رجل عاقل اسمه صبحي عمران كان مع العمل الفدائي زمنًا ثم التزم بطريقة صوفية وهي "الرفاعية" فيما أظن ثم صار إلى جماعة التبليغ، وفيه ذكاء وإن كان قليل العلم، فداراني بطريقة جيدة حتى ذهب ما في نفسي من الأمر، وكان مما أذكره من كلامه: أن هذه المسائل ليست من الشريعة في شيء، فالفطرة على طريقة ساذجة هي الجواب، وأن الصحابة لم يكن

يعنيهم هذا العلم، والغريب أن قول هذا المربي رأيته بعد ذلك مع معلم "العقيدة" في كلية الشريعة وهو الدكتور راجح الكردي الذي كان يردد عند بحث هذه المسائل بقوله: "عقيدتنا قبل الخلاف"، وهو قول غير علمي وفيه الهروب والتحايل على الحقيقة العلمية، كما هو شأن هذه المسألة العظيمة وقد ذكر معتقده هذا في كتاب له قد طُبع.

ذهبت هذه المسألة من ذهني ولم تعد إليه حتى كانت السنة الأولى لي في الجامعة وفي كلية الشريعة حيث كانت مادة تحت عنوان: "الدعوة منهاج الدعاة" للدكتور أحمد نوفل، وهو دكتور تتمتع في دروسه لخلطه العلم بالدعابة، ولإشراقاته الفكرية الجميلة وخاصة ما يتعلق منها في تفسير القرآن الكريم، وكم كنت أحزن أن لا أراها –أي هذه المتعة– في دروسه التلفزيونية المسجلة.

في هذه المادة عادت المسألة للظهور، حيث جرى نقاش شديد بين "سلفي!!" وصوفي حولها، والعجيب أن الصوفي قال قولًا فيها يحكم شيخ الأحباش الصوفي عبد الله الحبشي عليه بالكفر، وكانت صداقتي لطالب آخر صوفي على طريقة الشاب الصوفي المناقش، وكان هذا الصديق حريصًا إن حملني في سيارته أن يحذّرني من بدع السلفيين وضلالاتهم، ولنهمة المعرفة لشاب الثامنة عشر من عمره كان لا بد من الرحلة في هذه المسألة من خلال القراءة وهكذا كان.

كتاب وراء كتاب، وكتاب يدلك على آخر، والأمور تتعقد، فليست مسألة الأسماء والصفات إلا واحدة معها مسائل الإيمان والاختلاف فيه، والقدر، وكلام الله تعالى، و ...و ....، والشاب لا يقلد، ومع ذلك ليس معه ما يحكم به بين الأقوال، ويزداد الاشتباك وتزداد الحيرة، فصار يهجر الجامعة لأيام وهو منطوٍ يقرأ ويراجع، لا يعرف حلقات علم يأوي إليها، ولا شيوخ يفضُّون له الاشتباك، فقط القراءة والتأمل، وما أن انتهى الفصل الدراسي للجامعة حتى كان قد قُدِّر أن يعتمر ويلتجأ إلى الله عند المُلتَزَم، والذي كان يسمع حديثًا عنه يقول: (هنا تُذرف العَبَرات)[١٦].

وهكذا كان....

وإني أُشهد الله تعالى أني لا أدري وإلى وقتي هذا كيف حُلَّت المشكلة، وكيف وجدتُني مبصرًا لكل دروبها المعقدة، وكيف انحَزتُ بوعي ودليل إلى مذهب السلف، أعرف الأقوال ولوازمها ومزالقها، حتى أن بعض المسائل لم أكن أعرف ما تقول الفرق المختلفة فيها ومع ذلك أتوقعها منهم من خلال لوازمها وإدراكي لأصول الفرق وطرق استدلالها.

---

[١٦] وهذا من تأثير طريقة جماعة التبليغ في ترغيبها وتحريضها على النسك والتعبد.

إنها القراءة وطلب المعونة من الله تعالى، وهو مسلك علمي حقيقي بل هو التطبيق العلمي لقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ}.

- ومن عجائب ما ذكره ابن تيمية عن نفسه في طقوس الفكر وممارسته كما في كتابه العجيب الرائع (درء تعارض العقل والنقل) أنه كان في صِباه يحضر الفخر الرازي عنده في منامه ويناظره في عقائد المتكلمين وأفكارهم، وابن تيمية يرى أن الرازي وخاصة في كتابه (الأربعون في أصول الدين) هو أفضل مَنْ جمع قواعد المتكلمين وبسطها.

- ومن أحلام العلماء في هذا الباب ما سمعته من أحدهم- ولم أقرأه في كتاب- أن أبا حامد الغزالي رأى موسى -عليه السلام- في النوم، فقال له موسى -عليه السلام- ما اسمك؟ فقال أبو حامد: محمد بن محمد بن محمد الغزالي، فقال له موسى: أما يكفيك أن تقول: محمد الغزالي وكفى؟ فقال له أبو حامد: وأنت عندما سألك الله عما في يدك أما كان يكفيك أن تقول عصا وكفى بل قلت: {هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى}.

- وهناك من كتب علمًا في السجن، وهم كثر جدًا منهم السرخسي العالم الحنفي الذي كتب في الجُبّ كتابه (المبسوط) حيث كان يلقي على تلاميذه كلامه وهم يكتبون جلوسًا فوق الجب.

- وابن تيمية ألّف بعض كتبه في السجن ومنها ما هو من أفضل كتبه -وكلها فاضلة- وهو: (تفسير آيات أشكلت على كثير من أهل العلم حتى لا يوجد في بعض الكتب عنها إلا الخطأ)، أظن هذا عنوانه وهو عنوان طويل كما ترى فإنه من أفضل الكتب في كشف كذب عدل الشيوعيين المزعوم -كل بحسب طاقته وكل حسب حاجته-؛ فإن الشيوعية تقضي على الطبقة الثرية ولكنها تصنع طبقة أكثر ثراءً كما كتب ذلك حسين مؤنس في كتابه الرائع (باشوات وسوبر باشوات)، ومنها آخر كتبه وهو (الرد على الإخنائي) وغيرها.

وسيد قطب أتم وراجع تفسيره: (في ظلال القرآن)، وصاحب كتاب (الطبقة الجديدة) لنائب جوزيف تيتو -وقد نسيت اسمه الآن-.

- وهناك من ألف كتبه في السفر وهم كثر كذلك، كـ(زاد المعاد) لابن القيم؛ فإنه ألفه في السفر، وهذا غريب، وقد ذكر هو هذا مع أني أعتقد أنه ربما نظر فيه بعد ذلك بعد أن ألقت عصا التّرحال واستقرّ به المقام.

وكذلك الإمام البخاري فقد كتب صحيحه بعيدًا عن أصوله كما اعتذر عنه البعض في تفضيل طريقة مسلم عليه في باب والترتيب والجمع.

- وقد حدثت مناظرة سامية بين ابن حزم وأبي الوليد الباجي بعد عودته من رحلة الشرق، اعتذر فيها أبو الوليد عن بعض هنَّاته أنه ما أخذ العلم إلا بالجوع والمعاناة، وذلك تعريضًا بابن حزم -ابن الوزير ربيب الجواري ورفاهية الحياة-، فرد عليه ابن حزم معترضًا معرضًا: بأنه أخذ العلم في الترف والنعيم، وكأنه أراد أمرين:

١. أن العلم في الغنى أشق من الفقر لكثرة الملهيات والمنافِسات للعلم.

٢. أن البعض يطلب العلم طمعًا في الغنى وأما في الغني فلا يطلب العلم إلا للعلم.

وقد حاول الدكتور عبد المجيد تركي، وهو تونسي مقيم في باريس اتصلت به بعدما كتبت عنه في مجلة المنهاج تعليقًا عما كتبه في مقدمة كتاب أبي الوليد الباجي في أصول الفقه، واسم الكتاب (إحكام الفصول في أحكام الأصول)، أنه يتعامل مع التراث لهدمه تحت دعوى الاجتهاد الجديدة كما يريد تيار اليسار الديني، وكان هذا تحت عنوان: (زندقة اليسار الديني)، فاتصل بي أحدهم من أمريكا يخطّئني في فهمي للدكتور وقدم لي تليفونه حاضًا لي على السماع منه مباشرة وقد فعلت، وللأسف وجدته يصر على أن يقرأ تراثنا بمناهج غربية، مع أني أمدح له عنايته بالتراث وتحقيقه كتابًا آخر حققه لأبي الوليد هو (المنهاج في ترتيب الحجاج)، وتحقيقه جيد وخاصة أن كتبه تطبعها دار الغرب الإسلامي ولا أعلم لها مثيلًا في العناية بالطباعة مع غلاء أسعارها واهتمامها فقط بكتب المغاربة وتراثهم، ولعل صاحبها التونسي الحبيب اللمسي فيه نزعة تعصب لأهل بلده وللفقه المالكي، هذا اليوم، أما أفضل الكتب طباعة قديمًا فهي المطبوعة في دار الخانجي، وقد عرَّفَ الشيخ محمود شاكر شيئًا عن صاحبها في مقدمته لتحقيق كتاب (طبقات فحول الشعراء) لابن سلام الجمحي، وإن كان الشيخ شاكر هجر لفظ "تحقيق" إلى "قراءة"، لما كان يرى أن لفظ تحقيق فيه التبجّح والتّعالي والادعاء، وقد سمى المقدمة (برنامج طبقات فحول الشعراء).

فحاول الدكتور عبد المجيد تركي أن يستخرج لنا موضوعات هذه المناظرة في كتاب ألفه بالفرنسية ونقله عنها الدكتور عبد الصبور شاهين.

- وأما حال الفقر والغنى مع الفكر فهي قضية مشهورة لا تحيطها ألوف الورقات من تجارب العلماء والمفكرين، والكتابة فيها تزيد غير حميدة هنا.

فهذه الأحوال وتعددها تدل على أن الفكر حالة إنسانية يستدعيها المرء في كل الأحوال والظروف، ويستطيع غشَيانها دون أن تحدّه حدود أو تمنعه موانع، ومعرفة ظرف الفكر وطقسه ربما يعين المرء في فهم المفكر وطبيعة إنتاجه ومستواه؛ فهناك

من يتعذر بسبب هذه الظروف كمن يقول: "في فمي ماء" لسبب سياسي، أو يقول: "بالي مشغول" بسبب همّ ركبه، وغير ذلك من الاعتذارات، أو كمن يعلق قساوة الألفاظ على حال المؤلف كما قال النقاد في كتاب أبي حيان التوحيدي في (مثالب الوزيرين) وما جرى له معهما.

أو كما يزعم البعض أن ما كتبه سيد قطب عن الجاهلية والبراءة منها إنما هو وليد معاناة السجن وقسوته، ويقارنون بين هذه الكتابة وخاصة في كتابه (معالم في الطريق) و(في ظلال القرآن) وبين كتبه السابقة سواء كانت أدبية ك(كتب وشخصيات) أو (طفل من القرية) أو (الأطياف الأربعة)، أو كانت كتبًا إسلامية (كالعدالة الاجتماعية في الإسلام) أو (التصوير الفني في القرآن الكريم) أو (مشاهد القيامة في القرن الكريم).

والحق أن تعليق الفرق على هذا السبب خطأ وغير صحيح في فهم سيد؛ فإن الموضوع يتعلق بالمنهج وليس بطقس الكتابة وظروفها، وقد سمعت شقيقه الأستاذ محمد قطب يرد هذا من جهة خبرية وهو أن سيد قطب كان عند تأليفه هذين الكتابين –المعالم والظلال– في مستشفى السجن ومعه أبرّ أصدقائه يعتنون به، حتى قال محمد: "لو كان سيد في البيت ما وجد هذه العناية والملاحظة".

ولكن مما لا شك فيه أن طقوس الفكر تؤثر في الإنسان، فمعرفتها جزء من فهم الكتاب والكاتب والوعي بهما.

هذا **موجز عن طقس الفكر**.

أما **طقوس القراءة**:

فإني أعتقد أن أول قراءة في التاريخ البشري هي الإلقاء من متكلم والإصغاء من سامع؛ لأنه –كما هو ظاهر بل هو الحقيقي الذي لا شك فيه– أن الإنسان متكلم سامع قبل أن يكتب؛ فالحرف منطوق قبل أن يكون مكتوبًا، بل هناك من اللغات ما هي لغات صوتية فقط لا يُعرف لها كتابة، فهذا الطقس هو السماع، وفيه الوعي التام والانتباه الكامل، وإن أول معلم هو آدم –عليه السلام– حيث كان نبيًا لأبنائه، وقد علّمه الله الأسماء؛ أسماء الأشياء كالسماء والأرض والحجر كما قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} وكان هذا التعليم هو مصدر قابلية آدم وذريته لعمران الأرض واستحقاقهم لوراثتها.

وقد تكلم العلماء كثيرًا حول اللغة وهل هي توقيفية أم اصطلاحية، وقد أعجبني ما كتبه ابن جني –مع اعتزاليته– في (الخصائص) فيُرجع إليه، مع أن أغلب كتب التفسير تكلمت عن هذه المسألة، وكذلك كتب اللغة وفقهها، والذي أعتقده

أن اللغة توقيفية في أصل وضعها، ولكن اللغة تتطور وتموت وتحيا، فكم من اللغات ماتت كليًا، وكثير من اللغات نشأت، وهذا كذلك في اللغة الواحدة، فاللغة العربية مات الكثير من ألفاظها إما لعدم وصوله إلينا كما قال أبو عبيد معمر بن المثنى، وإما لوحشية الألفاظ وصعوبتها كما قال ذلك ابن قتيبة في (أدب الكاتب) وضرب على ذلك مثالًا في أسماء المطر حيث بقيت بعض الأسماء مثل: "الغيث والوبل"، وذهب اسم "البُعاق" لخشونته ووحشيته.

والحق أن القرآن الكريم قوّم اللغة العربية وبسّطها وسهّلها فلا نجد فيه كلمة وحشية بل هو سهل ميسور كما قال تعال: {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ}، وفضل القرآن على العربية في هذا واضح وبيّن، وكذلك الحديث النبوي وهناك رسالة دكتوراة للدكتور الضاوي العراقي تحت عنوان (أثر الحديث النبوي على اللغة العربية)، وهو كتاب علمي رصين بذل فيه صاحبه جهدًا مشكورًا قيمًا، وأعظم مباحثه هو الرد على من زعم أن الحديث النبوي ليس حجة في اللغة، وإن كان قد قسا فيه على الدكتور ناصر الدين الأسد في كتابه (مصادر الشعر الجاهلي) حول أوّلية الإسناد، وهل هو في اللغة أم الحديث.

وكتاب (مصادر الشعر الجاهلي) من غرر الكتب التي كُتبت في هذا العصر، وإن كان صاحبه قد أضاع نفسه في الوظائف الحكومية، مع أنه لو اهتم بالعلم ونشره لكان له شأن آخر، لكنها الأعمال الإدارية التي منعته من خوض معارك الحروف وأمانة الكلمة عما كان شيخه محمود شاكر يفهمها ويعيشها ويريدها لأمناء التراث، وللأسف فقد أخبرني بعض الإخوان أن الدكتور ناصر الدين الأسد رأى في يديه كتاب (أباطيل وأسمار) في مكتبة مؤسسة آل البيت، وهي إحدى مؤسسات السوء في عالمنا الإسلامي لسرقة الإسلام والتحدث باسمه من قِبل الحكومات الطاغوتية كمؤتمر العالم الإسلامي والمؤتمر الإسلامي الشعبي وغيرها، فأنكر عليه قراءته فيه، وهذا من خيانته لشيخ اعترف في أول الكتاب –أي (مصادر الشعر الجاهلي)– بفضله عليه، والشيخ شاكر قصّر تلاميذه فيه تقصيرًا مقيتًا، ولا همة شباب الإسلام وأمناء الكلمة في البحث عن جذورهم لما عُرف له صوت، والشكر موصول لأول باحث كتب عنه وهو الأستاذ عمر حسن القيام في رسالة ماجستير طُبعت بعد ذلك، وإن كانت قد اقتصرت على دراسة كتاب واحد له وهو (نمط صعب ونمط مخيف)، وهو كتاب أعجوبة من الأعاجيب.

وقد أدرك الإنسان ولا شك منذ أوليته بقيمة الكلمة وأهميتها وفوائدها، فكانت هي خيل الإبانة عن نفسه، تحمل مشاعره لمن يحب، ومشاعره لمن يكره، وحاجته لما يريد، بما يثير فرح السامع وحزنه وغضبه وشجاعته، وهو إدراك في ظني فهمه من خلال تبصُّره بأول خطاب في الوجود؛ وهو خطاب الله تعالى له، ذلك أن الإنسان حين رأى أن الله سبحانه يَبِينُ بالكلمة

عن نفسه، وبها يعلِّم عباده ويأمرهم وينهاهم ويرشدهم ويرغّبهم ويرهّبهم، يحبّبهم ويخوّفهم، فحينها أدرك عظمة هذه الغريزة عنده، وأن إنسانيته مختزلة في داخلها.

ثمَّ ولا بد أنه أدرك علاقة الصوت بالحرف؛ فإنه إن غضب صرخ وكذلك إن حذّر ونبّه، وإن سامر همس، وإن ناجى أو ناغى رقّق، فأدرك أهمية الصوت للكلمة، وأن نوع الخطاب لا بد من ائتلافه مع الصوت.

ثم راقب الجسد ولغته وتنوّع حركاته وتأثر به، وتأثيره على الوصول إلى الهدف بسرعة فاعتنى به وبأدواته، فاتخذ العصا وغيرها، ووقف حينًا لحديث أو إنشاد، أو ركب فرسه ودابته لإثارة أو تشجيع.

وبهذا نشأت فنون السماع والإلقاء.

فعرف الإنسان الخَطَابة، وأقام لها أصولًا وضوابطَ تكمن في النفوس فتُميِّز بين الخطيب المتقن وغيره، وأول كتاب يُعرف عن الخطابة وأصولها هو كتاب أرسطو، وإنما وضعه متممًا "للمنطق" الذي أراد به أن يوقف سخافة وسيطرة السوفسطائيين، ولذلك عُدّ هذا الفن عند الأوائل جزءً من علم المنطق كما ذكر ذلك ابن سينا في (الشفاء)، والذي ترجم الكثير من هناك، وقد ترجم هذا الكتاب كاملًا إلى العربية من قبل حُنَين بن إسحاق وقد شرحه الفيلسوف الفارابي، وهذا مذكور في كتاب (الفهرست) لابن النديم -والتاء في فهرست أصلية فلا يُقال "الفهرس" قط-، وكتاب (الفهرست) من أشمل الكتب في بيان العلوم وكتبها وزمانها، وهو كما هو معلوم لابن النديم.

ومما يجب بيانه أن وضع الخطابة في المنطق إنما هو على جهة احتقار البيان، والذي ألقى بظلاله القبيحة على المتأثرين بفن المنطق اليوناني من أهل الإسلام، وشرح ذلك:

يرى أهل هذا المنطق أن الخطابة والشعر من أقسام المنطق كما هو معروف، لكن يقولون: أن المقصود من المنطق أن يوصِل إلى التصديق، والتصديق قسمان: يقيني وظني، فالبرهان هو الذي يوصل إلى اليقين، أما الخطابة -وهي من أقسام البيان اللغوي- فلا توصل إلا إلى الظن كما شرح هذا ابن سينا في (الشفاء)، وأما الشعر فلا يفيد تصديقًا البتة، لكنه يفيد التخييل والذي هو يجري مجرى التصديق، وهذا التخييل خضوع للتعجب والتلذذ تصنعه صور الكلام.

هذه القواعد المنطقية الأرسطية لها أسبابها التاريخية في بيئته، فلما تُرجمت عند العرب، وأخذها بعضهم بالتسليم والانقياد؛ أعملوها على كل بيان، ومن ذلك القرآن الكريم، فاعتبروا أن الخطاب القرآني -لأنه بياني- دليل ظني لا يفيد يقينًا، ومن هنا نشأ في أصول الفقه تأثرًا بالمتكلمين، وأصول الفقه مع عظمته وأهميته، وهو كما يعتبره بعض المعاصرين الحكماء كعلي

سامي النشار وسليمان دنيا يمثل الفلسفة الإسلامية، ولعلّ هذا أخذًا منهم لرأي مصطفى عبد الرازق، وإن كان الكثير من الأوائل ينكرون شيئًا يسمى "الفلسفة الإسلامية "كما نقل ذلك ابن تيمية عنهم في (نقض المنطق)، وكما يرى ذلك الأستاذ الكبير –وفيلسوف الإسلام اليوم إن صح هذا اللقب– الدكتور طه عبد الرحمن المغربي كما في كتابه (فقه الفلسفة) في قسم الأول الذي لا أعلم إن خرج بعده جزء آخر، وكتب الدكتور عبد الرحمن من درر الكتب وروائعها في هذا العصر.

أقول: من هنا نشأ في أصول الفقه، وهو مع عظمته وأهميته أكثر العلوم الإسلامية تأثرًا بالمنطق، تقسيم إفادة الأدلة إلى يقيني وظني، وهو مبحث طويل نشير له هنا إشارة تعريف فحسب.

بل زعم البعض أن القرآن لا يوجد فيه أدلة برهانية أبدًا، ولا يعرف بها، ومما نسمعه هذا اليوم من تقريع لأحدهم واحتقار كلامه قول الآخرين له: "لسنا في خُطبة"، وكأن الخطبة لا تفيد علمًا! ويزداد الاحتقار إن استخدم أحدهم الشعر فحينها تكون السخرية تامة، وهذا كله من طرق الشيطان وأتباعه في محاربة الحقائق ومصادر التأثير في الأمة، لكنك لو تقعّرت في كلامك بقولك: قال ميسيو فلان، والصحفي علان من الأسماء الأجنبية لكنت المثقف الخطير، وحينها تكون الأدلة التي يُطأطئ لها الحمير رؤوسهم.

ولو نظر الناظر إلى كتاب (الخطابة) لأرسطو، وهو مطبوع اليوم ومطبوع مختصره لأبي الوليد بن رشد، لرأى أنه لا نفع فيه أبدًا في تعلم الخطابة، بل من عجائب ما يذكر أن أرسطو نفسه كان بكي اللسان كما قال عنه الجاحظ في (البيان والتبيين)، بل زاد الجاحظ أمرًا حيث جعل اليونان كله عري عن الخطب، وقصر الخطب على العرب والفرس، وقدم العرب على الفرس لأنه في اعتقاده أن العرب في خطبهم كانوا على البديهة والارتجال، بلا معاناة ولا مكابدة ولا إجالة نظر، وأما الفرس فخطبهم عن طول فكرة ومعاونة ومشاورة ودراسة كتب.

فماذا يفيدك لتكون خطيبًا معرفتك بالحد والرسم والدليل– كما يشرح لك أرسطو في كتابه–؟! وأكرر أن أرسطو وضع كتابه لسلب السوفسطائيين تأثيرهم الخطابي على الجمهور، فإنه كما يذكر عن اليونان أن كبار السوفسطائيين كانوا خطباء مشهورين بل إن أحدهم وهو "جورجياس" فتح مدرسة لتعليم الخطابة.

في التاريخ العربي كانت الخطابة لها مساحة واسعة لحاجة الناس إليها في حروبهم وسلمهم، في فخرهم ورثائهم، في مدحهم وهجائهم، وفيما هو أدنى من ذلك من الأهمية، كعقود الزواج مثلًا، وقد كان للعرب أسواق للإلقاء؛ إلقاء الشعر والخُطب،

كسوق ذي المجاز وعكاظ، ولعلَّ لفظ "خطابة" أُخذ من "الخَطْب" وهو الأمر العظيم الجليل، إذ أن أصل الخطابة هو لهذه الأمور فتناسبا، ولشدة حرص الناس على سماعها يحفظونها ويتناقلونها وهي في لحظتها تثير فيهم المعاني التي تحملها، حتى قال الشاعر:

يَكادُ يُزِيلُ الأَرْضَ وَقْعُ خِطَابِهِمْ ... إذَا وَصَلُوا أيْمَانَهُم بالمَخَاصِرِ[١٧]

وخطباء الجاهلية كُثُر، لكن اشتُهر خطباء إياد وعبد القيس كما يقول الجاحظ، ومع كثرة الخطباء إلا أن الشعر وصل أكثر منها، وأسباب ذلك معروفة وأعجبها قول القلقنشدي في (صبح الأعشى) أن الشعر شعبي أكثر من الخطابة، إذ مجالس الخطابة خاصة بخلاف مجالس الشعر فإنها عامة.

وحتى لا نبعد عن المقصود فإن حديثنا عن الإلقاء عامة والسماع -ومنه إلقاء الخطب وسماعها-، وهذا الإلقاء لم ينقطع يومًا لحاجة الناس إليه ولأهميته، فقد جاء الإسلام وفيه زاد أمر الخطب وأهميتها، وقد صارت واجبًا من واجبات الإسلام كل أسبوع يوم الجمعة، وقد ابتدأ رسول الله ﷺ إعلان دعوته بخطبة مشهورة في كتب السيرة، وصار إلقاء الخطب عملًا يلازم أغلب شؤون الحياة العامة لأثر الكلمة المسموعة على النفوس، وخضوعهم لها واستجابتهم لدعواها، فقد قضى أبو بكر -رضي الله عنه- على نزغ الشيطان بعد وفاة رسول الله ﷺ بكلمات قليلة بليغة، في خطبته التي أكد فيها وفاة رسول الله ﷺ، وجمع الناس بعد أن كادوا يتفرقون في سقيفة بني ساعدة بخطبة عامرة.

ومما صنعه الإسلام في الخطب أن جعلها علمًا ودينًا، فليست كلمات تؤثر على النفس بوَقْعها فقط؛ لكن هي كذلك مع كونها تحصل الفائدة العلمية المطلوبة، وأنصح القارئ بالعودة إلى كتاب محمد أبو زهرة وهو بعنوان (الخطابة) فيه كلام طيب مفيد، ولعلَّ كثيرًا من الناس يكون استقرار المعرفة في عقولهم وقلوبهم من خلال السماع أكثر من تأثرهم بالحرف ومعالجته، لكن حفظ العلم لا يتم إلا بالكتابة.

هذه القراءة لها طقوسها عند الأمم وعند العرب تقدم **بعض طقوسها**، ومن ذلك:

[١٧] **والمخاصر: العصي.**

وقوف الخطيب بين يدي السامعين وربما خطب على دابة كما خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع، مع استخدام بعض الأدوات كالعصا، واهتمامه بزيِّه كعمامته، ورفعه صوته للتأكيد على السامعين كما كان من شأن رسول الله ﷺ، وتقليبه وجهه ليشمل كل الجهات دون أن يخص البعض دون الآخر، واستخدام إشارات يديه.

وأما السامعون فإن شأنهم الإصغاء التام، وقد وُصِف أصحاب رسول الله ﷺ بين يديه في خطبة كأن على رؤوسهم الطير؛ أي لسكونهم وخضوع أبدانهم، وكانوا يرمون ببصرهم إليه. وأما مع غيره وفي غير خُطب الجمعة فإن للسامع دور في إثارة الخطيب من ترديد عبارات الاستحسان والإشارة إلى تأثره واستحسانه لكلامه.

وهذه طقوس شاملة للخطب وإلقاء الشعر، وإن كان دور الشعر أقل من دور الخطب في حياة الناس؛ لأن الشعر معاناة، وأهله أقل بكثير من الخطباء.

وأما ما اختص به الشعر من طقوس:

فإن الشعر له جوانب متعددة في جماله والتي تُرِّغب الناس فيه؛ فهناك جانب المعاني والصور، وهناك جوانب تتعلق بالوزن وموسيقاه، ولذلك قالوا في تعريف الشعر: "هو الكلام الموزون المقفَّى"، ولهذه الموسيقى الشعرية وأهميتها كان لا بد من إلقاء الشعر والتفنن في هذا الباب. ومن أغرب سماجات القوم اليوم هو ما يقال له: ترجمة الشعر، واعتبار الترجمة شعرًا، ولكن لا يكون الأمر غريبًا حين يسمي هؤلاء نثر الكلام شعرًا، والناس إن قبلوا شعر التفعيلة لأنهم رأوا فيه بعض ما يعرفون من الشعر، لكن أن يكتب أي كلام على صيغة جمل لا تنتهي إلى آخر السطر من غير قاعدة ولا ضابط ويسمى بعد ذلك شعرًا، فلعمر الله هذا هو شأن الذي يتطيب بالعذرة ويسميها مسكًا! ويتبجح كبيرهم الذي علمهم الشعر أنه يريد أن يفجر اللغة، ونحن لا شك في عصر الغرائب، وهذه من التي قال عنها سيبويه: "سأشرب البحر في الأمس".

وترجمة الشعر ابتدأت أولًا بترجمته شعرًا، كما تُرجمت (رباعيات الخيام) من محمد صافي النجفي ومن أحمد رامي، وكما تُرجم بعض شعر إقبال من قبل الصاوي شعلان واشتُهر من ذلك قصيدته الرائعة (شكوى وجواب شكوى)، ولكنها مشهورة بسبب غنائها باسم: (حديث الروح)، مع أن الأغنية اختصرت منها الكثير وقدمت جواب الشكوى على الشكوى، ومن غرائب هذه الترجمة أن الصاوي شعلان لا يعرف اللغة الأردية التي تُرجمت عنها القصيدة، وإنما كان يترجم له شاب هندي يتعلم في القاهرة من عائلة "الأعظمي" معنى الشعر ويقوم الصاوي شعلان بكتابتها شعرًا، ومحمد إقبال كتب شعره أول

الأمر بالفارسية ثم انتقل إلى لغة أهله فكتب بالأردية، ولما رأى الشيخ أبو الحسن الندوي -رحمه الله تعالى- أن من ترجم شعر إقبال لم يوفِه حقّه بسبب اعتناء المترجمين بالنَّظم أكثر من اعتنائهم بالمعاني فإنه ترجم شعر إقبال ترجمة نثرية.

والحق أن أبا الحسن الندوي إمام في أبواب كثيرة من الخير في هذا العصر، وقد جلست معه جلسة يتيمة كان زائرًا فيها لعمان، وللأمانة لم أتذوق هذه الترجمة قط، ولا خرجت منها بفائدة، مع أني سمعت مرارًا في الباكستان عوامًا يتغنون بشعر إقبال ويسهرون معه وخاصة مدائحه لرسول الله ﷺ، وكنت أطرب وأحس بلذة الجرس الشعري لما يتغنون به مع عدم فهمي لما يقولون سوى كلمات مأخوذة من العربية، فكيف بهذه الترجمات التي يفعلها البعض اليوم لما يقال من شعر الحداثة والحداثيين، فن أراد غم النفس وقهر القلب فقراءة هذه الترجمات أسهل الطرق لتحصيل ذلك.

فالشعر نظم ومعنى، جناحان لا يحلِّق إلا بهما، وشعر الحداثة لا شعر ولا قلب، بل هراء وسخافة.

لتذوق الشعر يحتاج المرء إلى رحلة، يعاني المرء فيها لكن نتائجها تستحق هذه المعاناة، وأهم الأمور التي يحتاجها المرء لتذوق الشعر هو الحرص على طقوس الشعر؛ فالشعر لا تصح فيه القراءة الصامتة، يمكن لك أن تجلس مع قصيدة لتدرس بناءها ومعانيها وجغرافيتها ..إلخ مما يُدرس له الشعر، لكن مما يُعين على فهمها ومما لا يتحقق من التلذذ معها إلا بالإنشاد، أن تُدَندِن بها، أو تُدَندَن لك، وكان الشيخ شاكر يقول: أن شيخه المرصفي -وهو شارح (الكامل) للمبرد- كان في إلقائه الشعر على تلاميذه يُفصح عن المعاني أكثر من شرح الألفاظ، وهذا مجرب.

حين الإلقاء تقف وتواصل، ترفع وترقق، فيفهم السامع الكثير من المراد من خلال هذا الإلقاء.
ترداد بعض الأبيات أو جزء منها له دور مهم في تأكيد محاور القصيدة، فالقصيدة لها محاور ارتكاز تؤوب كثير من المعاني إليها، فهي مدار همّ الشاعر ومصدر هواجسه وانفعالاته، وهذه تبين وتُكشف من خلال عملية الإلقاء.

ومما يدركه كل متذوق للعربية علاقة اللفظ بالمعنى عمومًا، وفي الشعر هناك علاقة بين البحر ومقاصد الشاعر، وبين الروي وهذه المقاصد كذلك، وإنشاد الشعر ونغمة صوت الملقي تفصح عن بعض هذا أو كله، فالشعر تتألق حياته وتنتعش أطرافه بالصوت الجميل الذي يصاحب القراءة من عالِم بمعانيه متذوق لأسراره، ولا أظن أحد في تاريخنا الشعري كله كتب قصيدة وسادت بين الناس عن طريق الكتابة فقط من غير إلقائها، فإن هذا يتنافى مع طبيعة الشعر ومقاصده وأهم خصاله، وأما ما يفعلونه اليوم من كتابة الدواوين ثم إصدارها هكذا مرة واحدة فهو أمر يعد من أسباب تدمير الشعر

وتذوقه وإعراض جمهور الناس عنه، هذا إن عُدّ ما يكتبونه شعرًا، ولذلك اشتهر اليوم بعض الشعراء ليس لفضلهم على من لم يشتهر ولكن لوجود مجالس إلقاء لشعرهم ولإلقائهم هذا الشعر بطريقة تجذب السامعين بخلاف من يكتب ولا يلقي.

والشعر لا يمكن تذوقه بقراءة الكثير منه دفعة واحدة، بل لو أردت مثلًا أن تقرأ للمتنبي فاختر قصيدتين أو ثلاثة على أكثر الاحتمالات، وابدأ بترديدها والتمعُّن فيها، وأَدِرها على لسانك وعقلك مرات، أما قراءة الشعر كما تقرأ بقية الكتب فهذا شيء غريب عن الشعر وقراءته.

وإنه مما يعين على تذوق الشعر عند قراءته هو قراءته من خلال حدثه؛ أي دمج الشعر مع قصته وحادثته، فلو أنك قرأت معلقة امرئ القيس مع قصتها أو قصصها لوقعت في نفسك موقعًا أجمل وأحلى، ولذلك حرص شراح الشعر قديمًا تقديم القصيدة مع سببها ليكشف لك معناها أكثر ويعينك على تذوقها.

ومن المقويات على قراءة الشعر هو قراءة الشعر من خلال عيون النقاد؛ فإن النقد في حقيقته –قبل أن يحيله النقاد الكذبة غبار كوكائين، ورحم الله الدكتور مصطفى هدارة فإنه من أواخر من كان يعلّم قارئه معاني الشعر ونقده– كشف للمستور، وحديث عن المسكوت، وإبانة للمخفي، فلو قرأت ما كتبه المعري عن المتنبي في (معجز أحمد) أو عن البحتري في (عبث الوليد) فإن قراءتك لشعرهما بعد ذلك تصبح أكثر وعيًا وإدراكًا لهذا الشعر، وكذلك الكتب التي اعتنت بالشعر ككتب الموازنة؛ كموازنة الآمدي بين الطائيين أبي تمام والبحتري، وكتب الأدب ك(البيان والتبيين) و(العقد الفريد) و(الكامل) وغيرها –من غير إطالة في ذكر الأسماء–.
وهناك دراسات للمتأخرين من أهل هذه العصور رائعة جميلة تعين قارئ الشعر ككتابات العقاد عن أبي نواس والمعري وغيرهما كابن الروحي، وما كتبه الشيخ شاكر عن المتنبي وهذا باب واسع في المؤلفات والكتب نذكر منها بعض ذرات غبارها للتمثيل .

وحتى لا يفوتني نسيانًا فإني أَشيد بكتاب قليل الانتشار لكنه من أفضل الكتب التي قرأتها للمتأخرين من أهل هذا العصر وهو (تاريخ الشعر العربي)، وهو بهذا العنوان لمحمد نجيب البهبيتي، وهذا الرجل لم أسمع عنه قط ولا أعرف عنه أي خبر ولم أقرأ له أي ترجمة إلى الآن، مع أن كتابه هذا وكتابه الآخر عن أبي تمام يدلان على علو كعبه وقوة نظره وتميزه الشديد عن جهالات أهل هذا العصر، وكتابه (تاريخ الشعر العربي) درّة من الدُّرر، وقلَّما رأيت كتابًا للمعاصرين إلا وكان أوله مثيرًا أكثر من آخره إلا هذا الكتاب فإنك تدخل فيه فتحس بصوت خفيض، ثم كلما واصلت ارتفع الصوت والصَّخب العلمي العجيب.

وبقيت مسألة تتعلق بغناء الشعر وهي من طقوس قراءته؛ فإن سماع الشعر بغناء المنشدين أو بمصاحبة ما جاز كالدف؛ فهذا أمر معلوم مشتهر، لكن حرمة الأدوات الموسيقية الأخرى هو الصواب ولا التفات لغيره، وسيأتي في نهاية ذكر طقوس القراءة كذلك موضوع مصاحبة سماع الموسيقى مع القراءة وأثره السيء على الفهم -إن شاء الله تعالى-، مع عدم التطويل.

أما طقس قراءة القصص والروايات فله صور متعددة، فإن أشهر ما نعرفه في حياتنا هو إلقاء جداتنا وأمهاتنا للحكايا في الليل ونحن تحت الفراش، ومع صوتها الخفيض كانت أحلامنا تسبح مع كلمات الجدة والتي كنا نظنها أعلم من في الأرض، وقد حظيتُ أنا مع هذه القراءة بميزة أخرى:

فبيتنا لم يكن إلا غرفة واحدة في عراء، بُنيت في عمان- الأردن بعد أن ولدت في بيت ساحور في فلسطين، وولادة شقيقي الأكبر والذي يكبرني بعامين، وكان عمري ثلاث سنوات ورحلنا، وقد كان لوالدي عمة ضريرة اسمها عائشة وهي لنا جدة، ولصعوبة العيش في هذه الغرفة الوحيدة اشترى والدي بيتًا من صفيح يسمى في العامية "زينكو" قد تحول إلى الأحمر لصدئه، وهناك كنت أنا وأخي ننام في حضن هذه الجدة المباركة، جدة صارمة عاشت حياة قاسية من كل الجوانب، وكان أشد ما نلاقي منها هو رفعها اللحاف الثقيل عنا في وسط الليل البارد جدًا من أجل بسطه علينا جميعًا، فإننا كنا في عبثنا خلال استغراقنا في النوم، وعبث الصغير في نومه عجب من الأعاجيب، ولو قيل لي يومها أن هناك من ينام على سرير لما صدقت، فكيف ينام أحد على سرير ولا تتحطم عظامه من السقوط عنه!

وجدتي هذه كان لها لحاف ثقيل بمعنى الكلمة، مع أن كل أَلْحُفة البيت ثقيلة، لكنه ثقيل أكثر من الثقل ذاك، كان لهذا البيت من الصفيح فوائد رائعة، فهو بيت لا يفصلك أبدًا عن طقس الحياة، فمع المطر تسمع القطرات الجميلة أخّاذة على ظهره، ويا له بحق صوت نفقده مع البيوت الأخرى، في البرد تحس بروعة الدفء لأنك تكون حينها تعيش بحق مع طبقتين، تشعر بالدفء لكنك تحس بوجود البرد، وحينها يكون للدفء متعته العظيمة إذ تشعر بوجوده مقارنًا لخصمه، فتشكر له هذا الوجود.

كنت أنام في وسطهما -جدتي وشقيقي- ومع هذا الجو الساكن بلا سكون، الهادئ بصخب داخلي كانت جدتي عائشة تلقي علينا حكايا الليل.

كانت بريئة وساذجة، وفي أغلب الأحيان كنا نطلب المزيد فتقهرنا: "ناموا، خلاص"، ولذلك أعجب وإلى الآن أن ينام الطفل على صوت الحكايا، فالحكايات توقظني لا تُنيمني.

إني أدرك الآن أنّ ما وُجد عندي من خيال ومن التصاق بالتاريخ ومن هيام عائلي إنما ولدته طقوس تلك الحكايات، لا أقول الحكايات فقط لكن طقوسها.

الليل وظلمته الكاملة، الأجساد البريئة المتلاصقة، اللحاف الثقيل ثقلًا ما زلت متأثرًا به إلى اليوم في نومي، وبيت الصّفيح الذي يُسكنك لكنه يُذكّرك بأنك "لاجئ" ولك أرض هناك، وجدة -شهد الله- جعلتني دائم السؤال والاهتمام بالعائلة: من أنت؟ أين جدي؟ ماذا تكون لك جدتي صفية؟ -وهي أم أبي وكان أغلب عيشها في بيت عمي؛ لأنها القاعدة الفلسطينية أن الأم تعيش عند الأخ الأكبر-.

والجدة هذه لم تكن تحفظ الكثير من القصص الخيالية، فإني لا أذكر أنها حدثتنا إلا بقصتين وربما يوجد ثالثة، إنما كانت حكاياها حقيقية، من قريتها "دير الشيخ" والقرى المجاورة، وما زلت إلى الآن أحفظ أسماء كثير من القرى الفلسطينية حول قريتنا ما أخذتها إلا من فمها الطاهر.

بقيت هذه الجدة الطاهرة الجميلة، وكانت عجبًا في بياضها وطولها مع قسمات وجه عريضة، حتى عمّرت وربما تجاوزت المائة سنة، تصحو قبل الفجر كل يوم تصلي، وتنام بعض لحظات في النهار وهي جالسة جلسة القرفصاء، حتى كنت ذات ليلة بعد زواجي بشهور جالسًا في غرفة معها ومع زوجتي -وقد كبر البيت وصار فيه خمس غرف- وهي نائمة، مع أنه كان لي بيت مستقل، ولم تكن تكُفّ بنداءاتها علينا: "بلاش غوشة قوموا ناموا"، ونرد على أنفسنا بالابتسام.

في منتصف الليل قامت من أجل حاجتها، وكانت المسافة القصيرة بين الحمام ولحافها الحبيب الثقيل مشية البطة، وبعد أن قطعت نصف الطريق راجعة سقطت ميتة وهي تهلّل الله وتوحّده..

وعندما قرأت كلمات مريد البرغوثي عن جدَّته "سته" رأيت أن القلب واحد:

في يومها الأخير

جلس الموت في حضنها

فحَنَت عليه، ودلَّلَته

وحكت له الحكاية

وناما في وقت واحد

ولكنه كان بعيدًا عن وداع جدته، وأما أنا فقد وضعتها بيدي في قبرها، بين يدي الرحيم الغفور.

هذه الحكايا هي القواعد الأولى لصناعة الإنسان، وبطقوسها الفريدة تتشكل أعظم الأفكار، من خلالها يتشكل الخوف من الله، والإيمان بالغيب، الملائكة، الرسل، الجنة، النار، ويتشكل الارتباط بالجذور الصالحة، بالأسرة الحانية، وتبدأ صناعة الأحلام التي هي مصدر الفكر كله.

إنني لم أعجب مما ذكره محمد زكريا الكاندهلوي أنه حفظ جزء عمّ من فم أمه وهو في حجرها تردده على مسامعه وهي تقوم بشؤون البيت من طبخ وغيره.

هذا البيت بحرميته: جدة وجد، أم وأب، شقيق وشقيقة، ليس شيئًا خاليًا عن الدلالة في تشكيل مفاهيمنا والتصاقنا بجذورنا وآدابنا وقيمنا.

الحروف الأول مهما كانت ساذجة هي التي تشكل قواعد حياتنا، مهما بدا لنا بعد ذلك أننا عقلاء وفلاسفة، ولذلك كم هو شقي طفل هذه الأيام، وهو ينام على أريكة البيت، وكل الكبار مسمّرون أما التلفاز أو على شاشة الكومبيوتر لا يهتم به أحد.

كم ستكون روحه قاحلة وهو لا يسمع في البيت من هو، ومن سيكون، ولا يجد من يحمله إلى الأحلام البريئة.

هذا الطقس التعليمي لا يمكن أن يُستبدل، يجب المحافظة عليه ومراعاته، وترقيته مع المحافظة على خط الحلم والبراءة مع مزجها بالوعي التعليمي من غرس قيم الشهادة، الشجاعة، والإيمان، والتاريخ.

من خلال هذا الطقس ينشأ ارتباط الإنسان بالكلمة، فتنشأ القراءات الأخرى؛ لأن الأسئلة ستكبر وسيزداد ظمأ الروح، فيسعى الإنسان باحثًا عن الأجوبة وعن شبع الروح وريها، وقد صدق رسول الله ﷺ حيث قال: (منهومان لا يشبعان؛ طالب علم وطالب دنيا)، فالعلم كثرته تزيد الظمأ، وكل قراءة تجرّ أخرى حتى الوفاة، وإني أُشهد الله إن أكرمني الله بجنته أن أسأله هناك أن يذيقني ما كان الأنبياء يحسون به من لذة العلم والعبادة.

ومما كان منتشرًا في قُرانا هي قراءة الحكايات الشعبية، كالسيرة الهلالية وعنترة من خلال جلسات الساحات، حيث يجلس الراوي أمام السامعين ويبدأ بالقص الذكي والممتع، حيث يستخدم كل قدراته في إثارة مستمعيه، ويتفاعل الناس معه تفاعلًا يُدخل الشخصيات إلى حياتهم ووجدانهم، ولقد قال لي والدي مرة: "إن من عجائب ما كان يقع أنه ما لو وقع عنترة في الأسر مثلًا ثم قطع الراوي الحكاية مؤجِّلًا الإتمام لغد، فإن الجلوس يغضبون ويرفضون القيام حتى يُخرج الراوي عنترة من الحبس"!

هذا الإنسان وهذه عجائبه وهو طفل حتى الممات.

قرأت الكثير من المسرحيات والروايات، قرأْتها في طفولتي باحثًا عن القصة والحكاية، وقرأتها بعد ذلك باحثًا عن "الفكرة"، وماذا يخفي الكاتب وراء حكايته، وإن أول ما أدركت أن وراء الكاتب "عقيدة" و"فكرة" أنه كان في المدرسة الثانوية الحكومية التي انتقلت إليها من مدرسة وكالة الغوث نخبة مسرح كوّنها أستاذ نشيط سامي الخُلُق اسمه "محمد ملص" –وهو غير المخرج السوري "محمد ملص"–، كان يقوم من خلالها بعدة أنشطة، دخلت فيها أول يوم انتقلت فيه إلى هذه المدرسة، فقد مثلت دور المهرج في (الملك لير) في فصل واحد من فصول المسرحية، وقد ساعدته بعد ذلك في إخراج قصة (حديقة الحيوانات) للإنجليزي "جورج أورويل" والذي ثبت بعد ذلك أنه كان جاسوسًا ضد أصحابه المثقفين، وقد أعدَّها إعدادًا مسرحيًا، وقد عُرضت عدة مرات في مدارس متعددة وفي بعض مباريات الأطفال، وقد استقال الأستاذ بعد ذلك من التدريس احتجاجًا على اتهامه بأنه كان سببًا لتَدنِّ علامات الطلاب في اللغة الإنجليزية، وهذا بعد تركي للجنة المسرح حيث صرت مهمومًا بهموم جماعة التبليغ في آخر أيام الصف الأول الثانوي، وقد عُيِّنت قبل ثلاث أشهر مديرًا للجنة المسرح قبل تركها، وقد كان في اللجنة قبلي شاب ذكي اسمه "محمد جمال" رأيت اسمه بعد ذلك من مُعدِّي الأفلام الكرتونية الرائعة كـ"محمد الفاتح" و"رحلة سلام" وغيرهما.

في منتصف العام الدراسي طلب مني الأستاذ محمد ملص أن أُلقي محاضرة عن مسرحية "محمد" ﷺ لتوفيق الحكيم، وذلك مشاركة مع مدير المدرسة الأستاذ مصطفى الشاعر، وهذا المدير كان عضوًا من قدماء حزب التحرير إلا أنه سُجن ولم يُعفَ عنه حتى أعلن براءته من الحزب على طريقة كانت دائرة الإجرام المخابرات الأردنية تفعلها معهم، إلا أنه ظل حزبيًا إلى العمق وكان يخطب الجمعة ولا يقول فيها إلا أفكار الحزب، وكان ممن كتب المناهج الدينية للمدارس الثانوية.

في هذه المحاضرة تكلمت كلامًا ساذجًا سطحيًا عن المسرحية لمدة لا تزيد عن ربع ساعة، أُقلِّب فيها نظري بين الحضور وبين ورقة في يدي محاولًا أن أُظهر أني أتحدث عن نفسي، والارتعاش الداخلي يهزّ كل عظمة وعضلة منِّي. وكنت قد بدأت أنا في الكلام، ثم كان كلام مدير المدرسة مصطفى شاعر، وهناك بدأ الكلام عن توفيق الحكيم ومنهجه، وماذا أراد من هذه المسرحية. وأفراد حزب التحرير صغارهم شيء عجب، فكيف بواحد كالأستاذ الشاعر، وإني ما زلت إلى الآن أذكر بعض كلماته ومفاهيمه عن التدين الذي صنفه توفيق حكيم في سيرة النبي ﷺ من خلال مسرحية "محمد"، ومما أذكر أنه عَرَّض بي وبطرحي الساذج المسكين.

ثم طلب مني بعد مدة أن أقدم لوحدي محاضرة عن مسرحية ابسن "بيت الدمية"، وكان أن ذكرت فيها أمر الشيوعية والحزب الشيوعي قرأته يومها عن ابسن فما أن انتهت المحاضرة، وكان قد دُعي لها مشرف النشاطات في وزارة التربية والتعليم، حتى اختلى بي الأستاذ محمد ملص، وقال أنه أخطأ قبل أن يراجع معي أمر المحاضرة، إذ أن ذكر الحزب الشيوعي مصيبة يتمنى من الله أن يتقي شرها.

القصص والروايات لا أعتقد أن لها طقسًا خاصًا في القراءة، فهي تُقرأ على كل الأحيان، ومن نظر إلى الناس وجدهم يقرؤونها بلا ضابط، فهناك من يقرأ راكبًا في السيارة أو القطار، وهناك من يقرأها مضطجعًا في الفراش، وهناك من يحاول التفرقة بين وضعه وبين نوع الرواية، وكل ذلك يعود إلى وقت الإنسان وراحته وتعوده.

وعلينا ألا نقلل من قيمة القصة والحكاية والرواية؛ فهي فن ذكي يمكن من خلاله تعميق قيم علمية ونشرها، كما فعل الشيخ نديم الجسر في قصته (الإيمان)، وهي قصة ذكية علمية رائعة لا أعلم لها مثيلًا، صاغ فيها الشيخ قصة الفلسفة مع قضية الغيب والإيمان بالله بطريقة ذكية ممتعة تجعلك تسير معها سيرًا هيّنًا لا مشقة فيه، مع صعوبة مباحث الفلسفة كما هو مشهور، وهذه القصة قدمتها هدية في السنة الثانية الجامعية لأستاذ مادة "مبادئ الفلسفة"، وهي مادة أخذتها في الجامعة على جهة الاختيار، وكان المدرس هو الدكتور أحمد ماضي –وهو شيوعي الفكر أحمر غامق جدًا– درس في الاتحاد السوفياتي، وكان يفتخر أنه ديمقراطي حيث أنه يسمح لابنه الصغير الذهاب إلى المسجد! وقد صار اليوم قيما أقرأ في الصحف: رئيس رابطة الكتاب الأردنيين.

قدمت له (قصة الفلسفة) وطلبت منه راجيًا أن يقرأها في مدة قليلة ففعل، فطلب مني تملكها فقدمتها له، وقال: إنه سيقرر تدريسها على طلاب الدراسات العليا لأهميتها كما رأى.

ولما قرأت (قصة صوفي) والتي لاقت انتشارًا كبيرًا في العلم الغربي خاصة، ثم ترجمت إلى العربية عجبت كيف تنتشر هذه القصة مع معرفة القليل بكتاب الشيخ الجسر –رحمه الله تعالى– فإن الفرق بينهما كبير جدًا.

ومن قرأ روايات الدكتور نجيب الكيلاني عرف أثر الرواية والقصة في نشر التاريخ، ومن قرأ روايات شريف الراس وهي قليلة جدًا عرف أثرها على الطغاة.

في عالمنا اليوم الكثير والكثير من الأحداث والقصص، روائع اللوائح البشرية في فلسطين والشيشان وأفغانستان والعراق.

روائع من الصبر والشهادة والبذل.

روائع من التضحية والفداء والإيثار.

روائع من الإيمان وحب الجنان.

حكايا جليلة من المعاناة والمصابرة.

وحكايا مؤلمة من خبث الأعداء وحقارتهم.

وحكايا مليئة بالعبرة والعظة.

هذه تحتاج إلى أقلام ماهرة تكتبها، تغوص في نفوس أصحابها وفي دلالة أحداثها وفي أمواج انفعالات أهلها لتسجلها، لا حكايا سمر بل قصص عبرة وتربية.

كم كُتب عن فلسطين وأهلها؟ عن الإنسان فيها، عن أم الشهيد وزوجته، عن المهاجر الذي حفر الصخر لئلّا يتلاشى اسمه من الحياة، ولذلك كم أُكبِر تلك الدعوات الصادقة من بعض أهل فلسطين مثل رشاد أبو شاور وهو يستحث أن تُكتب هذه الذاكرة، كل الذاكرة، حتى ذاكرة مفتاح البيت الكبير الذي حملته العائلة معها في كل المَهاجر.

كم كُتب عن أفغانستان؟ عن الإنسان فيها، عن وعود الشيوعية الكاذبة، وعن السلام العالمي ودعوة الدجل التي كان يطلقها الكرملين وحاملو المظلات حين تمطر في موسكو!

كم يعرف الناس عن كشمير وعن الشيشان وحوّاء الاستشهادية هناك؟!

كم نعرف عن السجون والمعتقلات في بلادنا؟ وعن معاناة الشباب والكهول فيها؟

ولقد حاولت مرة أن أسجل تجربة مجموعة شباب صادفتهم قضوا سنين في سجون الطواغيت في الجزائر بعد الانقلاب على ديمقراطيتهم الزائفة، وكنت قد قررت أن أسجل تجربتهم على آلة التسجيل لتفريغها، وإني أُشهد الله أن بعضهم كانت تأخذه نوبة بكاء لا يستطيع معها أن يتابع حديثه لعودة تلك الذكريات المؤلمة الحزينة! ومرات كنت أنا لا أستطيع تكملة الحوار، ولكن للأسف لم تتمّ العملية بسبب ظروف وظروف.

فمثل هذه التجارب من أمانتنا للكلمة والتاريخ أن نسجلها ولا نقتصر على التحقيقات الصحفية أو التلفزيونية، بل نسجلها في كتب لأنها الأبقى والأعمق.

إن عالمنا اليوم مليء بالعبرة والعظات من خلال أحداثه، فكم سجّل من أمناء الكلمة من هذه الأحداث والتجارب؟! وللأسف إن البعض يستصغرون هذه التجارب والأحداث، مع أنه لو قرأها للآخرين لعظَّمها واحترمها وهو لا يدري أنه عاش مثلها بل أكبر منها، وقد حاولت معالجة هذا "النقص النفسي" في محاولة كتاب سميته: (لوحات جمالية معاصرة) كتبت فيه بعض النماذج التاريخية لعظمتها، المعاصرة في وقتها، لكن لأن المعاصرة حرمان فإن الناس لا يرونها:

وهل السماء ترسل نورًا ... ما الشموس منها تميت هلالا

وتعالي يا ابنتي أحكي إليكِ ...فكم فعل الآخر كالأوَّلَ

ومما لاشك فيه أن تسجيل هذه الذاكرة والتاريخ صناعة تحتاج إلى مال للنشر وقُرّاء يتابعون ويشجعون، وهذا قليل في مجتمعاتنا، وما يُشجع اليوم هو ما ترعاه مؤسسات "لقطاء الفكر" وخاصة الفرنسية والأمريكية حيث الاهتمام مُنصَب على تعهير المرأة وإفساد الذوق العام، وتسجيل التجارب الشاذة، كسيرة اللوطيين، ويسمونهم تهوينًا لشأنهم ب"المثليين" وهذا مما أخبر عنه النبي ﷺ عن الخمر: (يسمونها بغير اسمها)، وسيرة السحاقيات وعشاق الحمير والكلاب، ومعاناة الساقطين والساقطات كالزناة في مجتمعاتنا، فمثل هذه الأمور هي التي تجد التشجيع وتُرعى بالنشر والترجمة.

ومع ذلك فإن الحرف الطاهر يبقى وهو الأصل {وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ}، ولكنه حرف يحتاج إلى تضحية وشهادة، وهناك طرق عديدة لنشر هذا الحرف الطاهر متجاوزًا ظروف القتل والتضييق والإلغاء لو صَفَتِ النِّيات وشغّلنا عقولنا قليلًا.

وأما طقوس أعظم القراءات وأجلها وأعمقها –هي القراءة الدينية–؛ فإن أعظم مَن مارسها هم الذين نقلوا لنا هذه القراءة وهذه الكتب، وهم سلف هذه الأمة من أصحاب رسول الله ﷺ إلى من بعدهم، أخذوها عيانًا من النبي ﷺ ومن خلال تجاربهم وفهمهم لحقيقة هذا الدين.

هذه القراءة مقصودها تحقق العلم؛ النور، الهداية، العلم بالله تعالى، وبرسله وبالحقائق الكونية من عالمي الغيب والشهادة، وبالخبر الإلهي مما حدث في الماضي وما سيحضر في الآتي، وبالأعمال والأقوال التي يحبها الله وتحقق للإنسان سعادته لحكمتها وموافقتها لسنن الحياة، وبالأعمال والأقوال التي يبغضها الله وهي سبب شقائه وعنته.

فهي قراءة تحفُّها الهيبة والجلال من جوانب عدة، سواء حين تدرك أن ما بين يديك هو كلام الله، فالكلمة هنا هي كلمة الله، لها فضل على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، تكلَّم بها الرب وسمعها منه أمين الوحي، وحين حملها كان

للملائكة تسبيح وتعظيم لجلال ما يحمل، محلها القلوب أولاً لأنها لو نزلت على الجبال لتصدّعت الجبال خشية منها، فالأرض ليست آلة وعيها وحملها، بل هي القلوب العاقلة.

أو حين تدرك ما يترتب على هذه الكلمات من أثر، فهي محور حياة البشرية؛ من أجلها قامت سوق الجنة والنار، ومن أجلها بُعث النبيون، ومن أجلها خُلقت السماوات والأرض، ومن أجلها رُفعت راية الجهاد، فسارت أبطح الأرض سيول جيوش، فأريقت الدماء وبذلت المهج، وفارق الحبيب حبيبه، والإنسان موطنه، وقاتل الرجل أباه وأبنه وأخاه وعمه وعشيرته.

أو حين تدرك أن السعادة لا تكون إلا بها، والاطمئنان لا يأتي إلا معها، واجتناء الخير لا يكون إلا من ثمارها.

أو حين تدرك تاريخ هذه الكلمة، وكم بُذل فيها من جهود وتضحيات ودماء وعرق وسهر وجوع وخوف وتشريد وسجن حتى وصلت إليك، ففي كنف المعاناة مشت ونمت وتمددت، وفي غمرات الصِّعاب والأهوال حملها الأجداد للأبناء، جللتها الأرواح، وسقتها الدماء، ورطبها الفداء والتضحية، وعطرها زجل المسبحين ودمع الخاشعين المخبتين.
أو حين تدرك عمق ما تحمل من علم، فهي لا تبلى مع كثرة النظر، ولا تُمَلّ من كثرة الترداد، فإنها وإن انتهى تنزيلها؛ تنزُّلاتها لا تنتهي: تنزُّلات العلم والنور والهداية والأجر والثواب.

وهي قراءة يحفها الجمال؛ جمال الطلاوة التي أحسها العربي وهي تسري في بدنه.
جمال الحرف وإيقاعه اللذيذ على الآذان والأنفس.
جمال المعنى وقيمه التي تمتطي ظهر هذا الحرف.
جمال الحجاج الذي لا يقطع المخالف فقط بل يحببه ويهديه كذلك.
جمال النور الذي يغشى القلب فيطربه طرب الجبال لا خفة الذباب.

وإن التفتَّ قليلًا رأيت الحب والرحمة؛ فالرب يخاطبك رحمة بك، خطاب الاعتبار: "يا أيها الإنسان"، "يا أيها الناس"، وخطاب الحكم الرائق اللذيذ: "يا أيها الذين آمنوا"، وخطاب الترغيب المحبب: "يا عبادي"، فماذا تكون ومن تكون فإليك النداء.

وهي قراءة الامتحان والابتلاء؛ امتحان لإنسانيتك التي يجب أن تتجرد من الكبر والغرور، وامتحان لعقلك ليتجرد من الوهم والخرافة، امتحان لمداركك في عمقها وفهمها عن الله. وامتحان لعبوديتك؛ تلك الصفة اللازمة لك ولكل إنسان، فإما أن تكون عبدًا لله أو عبدًا لغيره. وامتحان الإرادة هل بلغت الفعل أم هي أسيرة الشهوات والهوى.

وهي قراءة الأجر والثواب؛ فأنت فيها تجني وتبني هناك في عالم الغيب قصورك وبيوتك ومساكنك، فتطير بك نفسك إلى منازلك الأولى رجاء أن تكون المستقر وختام الرحلة.

وهي قراءة الانتماء؛ انتماء للرب: {كُونُوا رَبَّانِيِّينَ}، وانتماء لخير مسيرة في الوجود من آدم إلى نوح إلى هود إلى صالح إلى إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى وهارون ويونس وأيوب وداود وسليمان وعيسى ويحيى وزكريا إلى محمد -صلى الله عليهم جميعًا-.

ثم انتماء إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي عبيدة وآلاف من خير ما أنجبت البشرية من رجال بعد الأنبياء، قراءة تخوض فيها مع التاريخ؛ تاريخ الصراع بين الحق والباطل، بين جند الله وجند الشيطان، وأنت من خلالها تحس بهذه الصلة وهذا النسب والانتماء.

وهي قراءة حضور الطاهرين من عالم الغيب عندك، يسمعون لك، ويدنون بجانبك، فعن أسيد بن حضير: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فَسَكَتَ فَسَكَنَتْ، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكنت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف وكان ابنه يحيى قريبًا منه فأشغله أن تصيبه، فلما اجْتَرَّه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدَّث النبي ﷺ فقال له: (اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير)، قال: "فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريبًا، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة، فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لا أراها". قال: (وتدري ما ذاك؟)، قال :"لا"، قال : (تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى عنهم).

إنها قراءة الإيمان وهو الاسم الجامع لذاك كله.

هذه القراءة المجيدة تصنع طقوسها الجليلة.

فأول الطقس: حياة وطهر ونور، يصنعها الوضوء: به وبمائه تكون النقلة، نقلة ظاهرة وباطنة؛ ظاهرة حيث تكون اليقظة، وارتعاش الإحساس من الغفلة إلى الحضور، وباطنة حيث تتساقط الذنوب مع الماء أو مع آخر قطر الماء، وفي آخره مع

ذكره: "سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك" حيث تُفتح له أبواب الجنة الثمانية.

إنها قراءة الطهر فلا بد لها من الطهر، وقراءة النور فلا بد لها من نور، وقراءة الحياة فلا بد لها من حياة.

ثم: فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

قراءة فيها الصراع والخلوص، حرب.... أنت في حرب تذكّر، إياك والغفلة، وإياك أن تُسرق أو تُختلس.

قراءة التنزلات الدائمة فإياك وتنزلات الإفك: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ}.

قراءة فيها الصراع على التحريض {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا}، أو {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.

ما دامت كذلك فانتبه: استعذ.

إياك واللهو فالأمر جِدّ ولا جدّ فوقه: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}.

إياك والإعراض: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}.

إياك والغفلة: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}.

به يمكن لك أن تهتدي وبه يمكن أن تضل: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى}.

انتبه فطقس قراءتك يحدد لك الجني الذي تجنيه.

كل هذا النور، وكل هذا الهدى، وكل هذا الثقل، وكل هذا التكليف، وكل هذا الأثر، هو ما يجعل السفلة الصغار والجهلة الأغمار لا يحبون هذه القراءة ويهربون منها، وليتهم اعترفوا بعجزهم وصَغار نفوسهم، بل ذهبوا في وديان الكذب والبهتان يرمون هذه القراءة بكل ما فاضت به نفوسهم:

هذه قراءة وعظ ونحن أكبر من الوعظ، فالوعظ للعوام: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ}.

هذه قراءة التسليم، وليس لنا من الأمر شيء: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}.

وهل هناك قراءة أعظم من أن يقرأ الإنسان كلام الله حيث يعلم ربه ونفسه وعالمه: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ}.

هكذا قرأ المهديون القرآن:

- كان عكرمة بن أبي جهل –رضي الله عنه– إذا فتح مصحفه نظر فيه وبكى ووضعه على عينيه وقال: "هذا كلام ربي، هذا كلام ربي".

- ويقول عثمان بن عفان: "والله لو صَفَت قلوبنا ما مللنا كتاب الله"، فكان يقوم بالقرآن كله في ليلة.

تنبيه: نهى رسول الله ﷺ أن يقرأ المرء القرآن كله في أقل من ثلاث ليال، وقال: (لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث)، فإن قيل: كيف خالف عثمان –رضي الله عنه– هذا النهي؟ فيقال:

- قد لا يكون هذا النهي قد وصله –رضي الله عنه–.

- وقد يكون قد وصله وتأوله، حيث أن النهي إنما توجه لسبب عدم فقهه إن قرأه في أقل من ثلاث، وإنما أراد بقراءته الأجر، إذ على كل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، وأما قراءة الفقه فكان لها وقت آخر عنده، حيث كان ينشر مصحفه في النهار، وهذه قراءة أخرى.

- وأغلب الصحابة كانوا يحزّبون القرآن سبعة أحزاب: ثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر وثلاثة عشر ثم تتمته، وإن شئت التسهيل فاحفظ: "فمي بشوق".

الفاء: الفاتحة، والميم: المائدة، فالحزب الأول من الفاتحة إلى المائدة فهذه ثلاث سور سوى الفاتحة إذ الفاتحة لا تعد هنا.

ثم إلى يونس، ومن بعد المائدة إلى يونس خمس سور.

ثم إلى بني إسرائيل وهي الإسراء، وهذه سبع سور.

ثم إلى الشعراء، وهذه تسع سور.

ثم إلى والصافات، وهذه إحدى عشرة سورة.

ثم إلى ق، وهذه ثلاث عشر سورة.

ثم إلى آخره...

- وقال ولي الله الدهلوي صاحب (الحجة البالغة): "أوصاني أبي أن أقرأ القرآن وكأنه عليّ ينزل".

فأنت المخاطب به لا غير، والنداء لك لا لغيرك، وإن سمعت "يا أيها الذين آمنوا" فأصغِ بسمعك فإنما هو أمر لك لتعمل به، أو خبر لك لتعلمه، أو أجر لك لتسعى إليه.

وحين تفهم كأنه نزول على قلبك فتمعن به وتدبر وكأن الكل تابع لك فتلقى منه وحده، ثم قوّم فهمك بعد ذلك بعرضه على فهم النبي ﷺ وأصحابه والتابعين.

- قال بعضهم: "ليكن لك قراءتان: قراءة الأجر تسير فيها لتأخذ الحسنات، وقراءة التدبر"؛ فإن عمر بن الخطاب مكث عشر سنين وهو يحفظ في البقرة، يقف عند كل آية، يعلم معناها، ويعمل بها، وهكذا تكون هذه القراءة تستغرق الحياة، الحياة كلها.

- يقول المصطفى ﷺ: (لم يأذن الله لنبي ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن).

وهل هناك من كلام يستحق الغناء كما يستحق كلام الله؟!

فالصوت الجميل مع الغناء الجميل مع كلام الجليل يحصل المقصود.

(يا أبا موسى لقد أُوتيت مزمارًا من مزامير آل داوود).

وإن هناك ممن يقرأ كلام الله تعالى بترجيع وغناء وكأنه يفسِّره، يكشف لك حلاوته ومعانيه ويوصل إلى قلبك الخشوع واللين، إلى جلدك القشعريرة.

- قال تعالى: {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا}، وهذا الترتيل علم واجب على كل مسلم، وهو الذي يقال له "علم التجويد"؛ أي تجويد القرآن، حيث يتعلم المرء فيه مخارج الحروف، وفقه الوقوف على المعاني، وهو علم تناقلته الأمه مع القرآن، ودليله هو دليل رواية القرآن، ورواته هم رواة القرآن، وقد كتب فيه من كتب حروف القراءات، وأثبتوه، مع أن مخارج الحروف في العربية علم سجله أهل اللغة، وكتب فيه سيبويه في (الكتاب) وهو أول كتاب في النحو واللغة، وسببه أن سيبويه- ومعناه رائحة التفاح- قال لنصر محمد الجهضمي: "تعال لنحيي علم الخليل"-أي الخليل بن أحمد الفراهيدي-، قال الجهضمي: "فنشط سيبويه وقصرت".

والخليل بن أحمد من مجددي الإسلام، وهو في مرتبة الشافعي عقلًا وإدراكًا، فإن كليهما فقها الأصول؛ فالشافعي أعاد الفروع إلى الأصول في الفقه وكتب أجلَّ الكتب في العلم بعد كتاب الله وسنة النبي ﷺ كتاب (الرسالة)، وهو الذي كان يسميه معاصروه كأبي عبيد القاسم بن سلَّام "كتاب السِّحر"، وكان ينظر فيه أحمد بن حنبل ويتعجب، مع كراهة أحمد لكل كتاب سوى الرواية. وكذلك الخليل فإنه أعاد الفروع إلى الأصول في الشعر فكانت البحور فهو صاحبها وابن بجدتها وإمامها، وهو إمام العرب في كتابة المعاجم، حيث كتب (العين) وإن كان هناك من يشكك في نسبته له، والصواب أن

أصله له وزاد عليه تلميذه محمد بن نصر بن سيار زيادات، وسيبويه في كتابه (الكتاب) إنما هو علم الخليل، فهو إمام لعلم العربية، وكان على مذهب السلف دينًا وزهدًا وورعًا.

والحق أن كتاب (الكتاب) لسيبويه أفضل كتاب في علم النحو؛ فإنه يربط القواعد بالمعاني، ولو سهل بعض العلماء بعض العبارات لانتفع بها الصغير والكبير، ولساهم مساهمة عظمى في إزالة الوحشة المدَّعاة على علم النحو.

وقد وُجد هذه الأيام من الجهلة من شكَّك بعلم التجويد بحجة عدم وجود دليل عليه، وهؤلاء قوم لا يعرفون العلم ولا مصادره، فقهوا بابًا من العلم وظنوا أن كل العلوم تعود لهذا الباب، وهذه من جهالات الناس قديمًا وحديثًا، فلكل علم أصوله ومصادره.

وإنه من جمال قراءة القرآن أن يقرأ ترتيلًا، ولقد ذكر الشافعي -رحمه الله تعالى- في كتابه (الأم) أن من ضيّع "شدَّة" من الفاتحة فقد بطلت صلاته.

وهذا القرآن يُقرأ على كل حال، يُقرأ قائمًا وجالسًا ومضطجعًا، وماشيًا على رجليك أو راكبًا، كل ذلك فعله المصطفى ﷺ وفعله أصحابه -رضي الله عنهم-، فلم يكن يحجزه عن القرآن شيء، وإن أعظم قراءة له هي قراءتك له في الصلاة قائمًا؛ فإن قراءة القرآن في الصلاة هي أعظم الذكر بلا خلاف بين أهل العلم، ولكن لعظمة القرآن فإنه لا يُقرأ والمصلي راكع أو ساجد بل في الركوع يعظّم الرب وفي السجود يكثر فيه من الدعاء، وأما قراءة القرآن فقد نُهي عنها في هذين الموطنين.

- وإن شهر القرآن هو شهر رمضان، فإنه ابتدأ نزوله فيه كما قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} ولذلك كان جبريل -عليه السلام- يأتي النبي في هذا الشهر ورسول الله يعرض عليه القرآن، فسبحان من جعل الموافقة بين قدره وشرعه.

- وإن هناك سورًا وآيات لأوقات لتوافق هذه السور أو الآيات مع أوقاتها ومن ذلك:

* قراءة سورة الكهف يوم الجمعة، ومن تدبر هذه السورة وما فيها من ذكر القيامة وأداتها كإحياء أهل الكهف بعد {ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا} من وفاتهم، أو كذكر آياتها كيأجوج ومأجوج وخراب السور، مع يوم الجمعة والذي فيه تقوم الساعة علم هذا التوافق البديع بينهما.

* قراءة سورتي الم السجدة والإنسان في صلاة الصبح بين الجمعة، ويراجع كلام ابن تيمية في التوافق بينهما.

* وقد كان ابن مسعود يرى النظائر؛ وهما سورتان يقرآن في ركعة، كالنجم والرحمن في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة، والطور والذاريات في ركعة، وإذا وقعت ونون في ركعة، وسأل سائل والنازعات في ركعة، وويل للمطففين وعبس في ركعة، والمدثر والمزمل في ركعة، وقل أتى ولا أقسم بيوم القيامة في ركعة، وعم يتساءلون والمرسلات في ركعة، والدخان وإذا الشمس كورت في ركعة.

وقال ابن مسعود: هكذا كان يقرأ النبي ﷺ.

وهذا باب واسع عظيم.

وأما قراءة الحديث النبوي الشريف فهناك باب في علم مصطلح الحديث يسمى باب "تحمل الحديث النبوي" فيه طرق ثبوته؛ منها السماع والعرض والوجادة والإجازة وغيرها، وقد اختلف أهل العلم في التقديم بين السماع والقراءة على الشيخ، وكل ذلك خير.

ومجالس سماع الحديث النبوي في التاريخ الإسلامي مشهورة كان يحضرها الآلاف، يحضرها الخلفاء والسلاطين والقواد، والأعيان وعوام الناس، ويحرص عليها الآباء لأبنائهم ليحصل السماع المبكر وإدراك الشيوخ، وقد كان لها وقع جميل على الأنفس حتى أن المهلب بن أبي صفرة كان يرى أن نداء المسمع -وهو موصل صوت المحدث للجمهور من كثرتهم- وهو يقول له: "ماذا قلت يرحمكم الله؟" أحلى عنده من أي كلام سمعه كقائد عسكري طول عمره.

وقد كان من أماني المأمون أن يجلس مجلس التحديث لما يرى من فضل المحدِّث وعظمته في نفوس الناس، حتى أن زبيدة زوج هارون الرشيد قالت لرشيد يومًا: "إن يزيد بن هارون هو الخليفة وليس أنت"، لما سمعت من شرفة قصرها تشميت السامعين لعطس يزيد بن هارون، ويزيد هذا كان له هيبة عجيبة حتى إن من الأخبار ما تقول: إن المأمون خاف القول بخلق القرآن في وجود يزيد هذا، وما أظهر هذا القول إلا بعد وفاته.

وممن عُرف بالهيبة التي سامت هيبة الخلفاء من أهل الحديث في مجالسهم شعبة بن الحجاج، أمير المؤمنين في الحديث في زمانه، وهو أول رجل من المسلمين جلس مجلسًا للكلام على الرواة جرحًا وتعديلًا، وهذا علم نشأ أول الإسلام لكن نما وترعرع على يد أهل الحديث -شكر الله سعيهم وحسن صنيعهم وبركة يدهم على أمة محمد ﷺ-.

وكذلك الإمام أحمد- رحمه الله تعالى-، وأكثر من اشتهر هيبة وسطوة هو الإمام مالك -رحمه الله تعالى-؛ فقد كان مجلسه أكثر هيبة من مجالس الخلفاء.

هذه المجالس كان لها آدابها وسننها، وكتب في هذه الآداب كتبًا، وتناقلها الناس سلوكًا وتربيةً تحملها الأجيال إلى من بعدهم، حتى إن بعض المحدثين كان إذا رأى تلميذًا يبري قلمه في مجلس التحديث ترك المجلس وخرج، إذ يجلس الناس فيها كأن على رؤوسهم الطير، يكتبون ويصححون.

ومن أجل هذه المجالس رحل الناس طلبًا لها ولسماع الحديث فيها، ولذلك نشأت الرحلة في الطلب، يتحمل الطالب من أجلها الجوع والخوف والتعب، حتى إن بعضهم شرب بوله من شدة الحاجة، ومنهم من أنفق كل ماله الذي ورثه من أجل الرحلة، ولا يحصل للمحدث الفضل إلا بالرحلة ولا يُعرف عن عالم إلا وارتحل، إلا ما يُعرف عن مالك –رحمه الله تعالى- فإنه كان يعتدّ برواية أهل المدينة ولا يرى فضلًا في غيرها حتى قال: "إن الحديث إذا جاوز الحرّتين ذهب مخّه"، ولم يصِب –رحمه الله تعالى- حتى قال الشافعي: "الليث –وهو من أهل النوبة في مصر- أفقه من مالك، لكن لم يقم تلاميذه بحقه".

هذا السماع كان من أجل كتابة الحديث وسماعه وأخذ الإجازات وطلب علو الإسناد، ولذلك عمّت الرواية بين أهل الأمصار وتنافسها في جذب الشيوخ والعلماء.

وهناك مجالس للمذاكرة بين العلماء، وقد عدّ الإمام البخاري المذاكرة أقوى سبب للحفظ وتنميته، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل إن زاره أبو حاتم الرازي –نسبة للري على غير القياس-، ترك نوافل أعماله من العبادات من أجل مذاكرته في الحديث والفقه.

وانتشرت مجالس المراجعة بين التلاميذ يصححون عن بعضهم البعض، ويختارون أعلمهم من أجل انتخاب أحاديث الشيوخ.

وانتخاب الحديث يعني أن يختار الطالب أحاديث خاصة من جملة أحاديث الشيخ كالغرائب أو الصحاح أو العوالي وغير ذلك.

والمقصود بالحديث العالي هو ما قلّت فيه سلسلة الرجال في سند الحديث بين الراوي وبين رسول الله ﷺ.

وقد كان بعض العلماء بل أغلبهم لا يجلسون للتحديث إلا على وضوء هيبة لحديث رسول الله ﷺ، وأما مجالس قراءة البركة للحديث فقط من فعل المتأخرين.

وهناك مجالس لختم رواية الكتب لها سمات خاصة.

وقد عُرف شغف العلماء للحديث، حتى أن الإمام البرديجي كان يسهى في صلاته فيقرأ الحديث بدل القرآن، وقال بعضهم: "إني أخاف ألا أؤجر على رواية الحديث لشغفي به".

وكما تقدم فقد نشأت علوم ومجالس خاصة لها رديفة لعلم الحديث؛ كمجالس الجرح والتعديل والسؤال عن الرواة والكلام عليهم.

وعلم الحديث علم الفحول من الرجال كما قال الأئمة؛ فإنه علم الحفظ وعلم الفقه وعلم النظر، ومن نظر إلى قواعد المحدثين وجهودهم في صيانة الحديث عَلِمَ أي نوع من الجهود قد بُذلت فيه حتى وطِئوا أكنافه الصعبة.

وكان للعلماء مجالس خاصة للنظر في الحديث مع أنفسهم، وأول من عُرف في هذا الباب –وهو تخصيص وقت من الليل للنظر في الحديث– هو أبو هريرة –رضي الله عنه– فقد قال: "ثلث أنام فيه وثلث أقوم وثلث أتذكر أحاديث رسول الله ﷺ"، كما رواه الدارمي –رحمه الله تعالى–.

ومن نوادر هذا الأمر أن سبب وفاة الإمام مسلم –رحمه الله تعالى– صاحب (الصحيح)، أنه سئل عن حديث فرجع إلى بيته بعد العشاء، وأوقد السراج، جعل ينظر في الأجزاء والمشيخات مستغرقًا معها، وكان يأكل التمر، فما زال مشغولًا بالنظر ولم ينتبه لأكله حتى أكثر الأكل فقضي عليه.

وكتابة الحديث ومذاكرته وطلبه أفضل من صلاة النافلة كما هو مشهور بيّن من كلام أهل العلم، قاله سفيان الثوري وابن مبارك والشافعي.

وهذا الذي قدمته ذرة من جبل هذا العلم العظيم، ذكرته فقط لحصول البركة في هذا الكتاب، فإن حبي لهذا العلم لا يعدله حب علم آخر إلا الكلام في تفسير كلام الله تعالى، ثم هذا العلم ثم أصول الفقه، ثم الفقه، حشرني الله مع أهلها يوم القيامة، آمين.

وإنه مما ينصح به طالب هذا العلم والناظر فيه أن يسلّم للأوائل ما لم يستكمل عدته، فقد تجرّأ أقوام اليوم على التصحيح والتضعيف، ومخالفة الأوائل وهم لا يعرفون مقاصدهم ولا قواعدهم، وهذا –إن شاء الله– أُطيل فيه النَّفَس في فصل "مقاصد المؤلفين ومفاتيح الكتب".

وكان من نصيحة الدكتور الشهيد عبد الله عزام لطلابه –وأنا منهم حيث علمني في السنة الأولى قبل فصله من الجامعة الأردنية–، أن يجعل طالب العلم لنفسه وردًا لقراءة الحديث كما أن له وردًا من القرآن، وإنه من فضيلة هذا الدكتور وهو

مدرس في الجامعة الأردنية نشر الترغيب في تلاوة كتاب الله، حيث قلما كنت ترى طالبًا متدينًا في الجامعة الأردنية إلا وفي يده مصحف –طبعة الشمري التي كان يحبها ويرغب فيها رحمه الله تعالى– يقرأ فيه، وهذا من ترغيبه وتربيته التي فقدتها جماعة الإخوان المسلمين عندنا في الأردن بعد رحيله.

رحم الله الشيخ الدكتور عبد الله عزام فقد كان فريدًا إمامًا، وإنه مما يؤسف له أنه لم يكتب عنه إلى الآن الكتابة اللائقة به، لكن يكفيه ما خطّ في الأرض من أثر وفي الشباب من حب الجهاد في سبيل الله تعالى، والله عنده حسن الجزاء، ويكفيه أعظم كرامة وهي الشهادة في سبيل الله تعالى.

إن أعظم قراءة دينية هي قراءة الصحابة –رضي الله عنهم–، وهي القراءة من خلال الحدث، فقد تعلموا هذا الدين من خلال المعاناة والصبر والبلاء، وكما قيل: "إن هذا القرآن نزل بحزن فاقرؤوه بحزن"، وكانت الأحداث التي يعيشونها ويحسون بقيظها وحرارتها، ثمَّ ما يأتيهم من الهدي الإلهي من نص قرآني أو حديث نبوي، فتترسّخ لديهم العلوم والمعارف ويفهمونها على حقيقتها علمًا ويتقلبون في أنوارها وجدانًا وذوقًا؛ فالنص ليس حرفًا فقط بل هو نور يهدي ويكشف ويعلم، وحياة وروح وحركة.

عن أسلم أبي عمران قال: "غزونا من المدينة نريد القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقو ظهورهم بحائط بالمدينة، فحمل رجل على العدو فقال الناس: مَهْ مَهْ، لا إله إلا الله يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: إنما أُنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما نصر الله نبيه ﷺ وأظهر الإسلام قلنا: هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله –عز وجل– :{ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}؛ فالإلقاء بأيدينا إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد"، قال أبو عمران: "فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله —عز وجل– حتى دُفن في القسطنطينية".

فمثل هذا الحدث الذي عاشه هذا الصحابي ترسخ في ذهنه، وترسخ النص معه، وفقه معناه، وأحس نوره وهداه، وعاش حركة حرفه.

والتربية بالحدث هي أرقى أنواع التربية، وما دام أن القراءة تربية وسلوك وصناعة؛ فإن القراءة من خلال الحدث تكشف أعماقًا للحرف لا يصل إليها الواقف على حده وشاطئه.

عندما ذهبت إلى بيشاور ورأيت الشباب المجاهد عجبت لهم كيف ينتزعون الآيات حضورًا، آيات الصبر والبلاء، وآيات الهجرة، وآيات الجهاد والقتال، وإنه مما كان يُمدح به الرجل مع كتاب الله تعالى أن يقال فيه: "وأنزعهم للآية"، كما وُصف مالك –رحمه الله تعالى–، وكما حسد الحجاج سعيد بن جبير فقال حاقدًا: "قاتله الله ما أنزعه لآية"، وكذلك وُصف ابن تيمية، وأعظم المسلمين في هذا الفن هو أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– وخاصة وقت المحن واضطراب القلوب كما رأينا ذلك في حادثة وفاة الحبيب المصطفى ﷺ عندما عالج الاضطراب بنزعه لآية: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}

وهذا العلم وهو القراءة من خلال الحدث تعلمه الصحابة –رضي الله عنهم– من وجهين:

١. الوجه الأول: هو التجربة والحياة نفسها التي كانوا يرون فيها حضور النص الهادي مع الحدث، فلامس النص عقولهم ووجدانهم.
٢. الوجه الثاني: هي الطريقة النبوية في التربية والتعليم؛ فقد كان ﷺ يحضر النص الإلهي طريًا وخاصة ما كان خبرًا عم الأمم السابقة ليرى الصحابة تواصل الإنسان، بإيمانه أو كفره، ومن ذلك قوله ﷺ حين أشار عليه أبو بكر برأي وأشار عليه عمر برأي آخر في أسرى بدر فقال ﷺ: (إنما مثلك يا أبا بكر مثل عيسى حين قال: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، ومثلك يا عمر مثل نوح حين قال: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}). وتمثله ﷺ أمام أصحابه بالنص أو الحدث كقوله ﷺ: (رحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر).

ولذلك فقه الصحابة هذا العلم وتمثلوا به، ومن ذلك قول سعد بن معاذ عندما طلب منه النبي ﷺ تعريضًا حرب قريش خارج المدينة، إذ كان الأنصار بايعوه من قبل على حمايته داخلها فقط، فقال له سعد: "لعلك تعنينا يا رسول الله، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}، ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون".

والجهاد في سبيل الله تعالى والصبر عليه والبلاء في ذات الله تعالى تجعل للنص روحًا أخرى ومعنى آخر؛ لأنه يتغلغل في النفس ويلامسها وهي حارة حساسة متلقية.

إن المجاهد حين يرى نصرة الله وتأييده مع البلاء الذي يحياه فإن لآيات الجهاد –وهي أكثر الآيات القرآنية في قلبه– لها نور وفهم وإدراك أتم وأرقى.

إن الذي صبر ثم نال مبتغاه من خلال الصبر والصلاة وسلوك سبيل السنة في الوصول للهدف ليحس بالآيات التي فيها اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة والنصر بعد البلاء نورًا خاصًا في قلبه.

إن هذا الدين هو دين الفعل، ودين الحركة، ودين العطاء، ودين البذل، ولا تصل أفهام الناس إليه إلا من خلالها.

لقد قال الشيخ الإمام عبد الله عزام: "إن حياتي فقط هي تلك السنوات التي عشتها في الجهاد"، مع أنه الدكتور والعالم الشرعي، لكن للحدث مع النص صناعة أخرى.

إن طقس هذا الدين هو البلاء والمحن، وامتدت حروفه مع البلاء والصبر والمحنة، ولا يمكن قراءته على وجه تام إلا بالبلاء والصبر والمحنة.

إني لا أعرف عالمًا في تاريخنا إلا عانى وتعب وصبر وابتلي من أجل حروف هذا الدين تعلمًا ونشرًا وعملًا وهداية، ومن لم يُبتلى في سبيل هذا الدين إن كان من المقدمين فيه فليشك في نفسه.

ابتلاء أهل هذا الدين والعلم فيه فوق أنه لرفع درجتهم وامتحانهم في صدق انتمائهم له؛ يعطي هذا الدين المصداقية للأجيال والمتعلمين؛ فإن المتعلم والشادي حين يرى أستاذه ومعلمه يشد عليه ويحرص على نشره ويثبت على قيمه يعلم أن وراء هذه الحروف والكلمات أمرًا عظيمًا، وهي ليست مجرد معرفة عقلية ولا رسم حروف سوداء على ورق، بل هي فعل وعمل ودماء، وهي ليست صورًا بل روح تسري في أبدان تعبت في مراد هذه الروح، ففي طقس هذه القراءة تنتقل أعظم المعالم من الإخلاص ومحبة الدار الآخرة، وأن ما عند الله خير وأبقى، ولذلك صدق من قال: "دماء الشهداء ومداد العلماء في الميزان سواء"؛ فالحرف نبتة شذى لا تطلق عرفها ولا تمتد سيقانها ولا تلقي بظلالها إلا من خلال العرق والدم.

إني أكتب هذه الكلمات وقلبي يتأمل السهول والوديان تضج بالمجاهدين، تختلط فيها العمائم قارئة سورة الأنفال، تسير في المقدمة حينًا وفي الوسط حينًا، فإذا حضرت الصفوف قال الشيخ ابن قدامة المقدسي أو ابن تيمية وقبلهما الآلاف كابن مبارك يسألون بعض الجند: "أين موطن الموت هنا؟"

إنها أمانة الكتاب حين حمل الحافظ لكتاب ربه سالم مولى حذيفة –وهو الذي قال فيه عمر: لو كان سالم حيًا لولَّيته، وكان مولى–، الراية بعد أن سقطت لموت حاملها فقال الناس: نخاف أن نؤتى من قِبلك؟! فقال: "بئس حامل القرآن أنا إن أوتيتم من قِبلي".

هكذا ينتصب الحرف جميلًا جليلًا، وتجلى الكلمة كالعروس بهاءً، وتتناقلها الأجيال لا من الأفواه والكتب فقط بل من الفعل والمثال.

ومع هذا التأمل لما مضى من تاريخ هذه الكلمة فإني أرى —وكل بصير يرى- كيف يُقاوَم الحرف اليوم، وكيف يُحارَب، فهم يريدون موته بملاحقته، فالشيطان لا يريد له وجودًا في مناهج التعليم، حتى أن بعض الدول أزالت من مناهجها التعليمية سورة (الكافرون) لما فيها من البراءة منهم، ولما فيها من تقسيم الناس إلى فسطاطين.

ويلاحَق حملة الحرف والكتاب كما يلاحق المقاتل المجاهد، فتتحول خطبة الجمعة بدل تسبيح الله تسبيحًا الطاغوت، وبدل الانتماء إلى محمد ﷺ انتماءً للجاهلية، وبدل فقه الإسلام فقه شريعة الشيطان، ليست مناظرة بين كلمة وكلمة وبين حرف وحرف بل بين الكلمة والدبابة، وبين الحرف والسجن، فتأمل كيف يثبت الحرف وكيف تقاوم الكلمة، إنما ينتصبان نورًا ضد ظلماتهم من خلال دماء أهلها وعرقهم وبذلهم وأرواحهم.

هذه المعركة غير المتكافئة وغير الشريفة وغير العادلة لا يمكن أن ترجَّح فيها كفة الكلمة إلا بهذا العرق وبهذا البذل وهذه الأرواح، وستذهب أموالهم ودباباتهم وسجونهم وفي قلوبهم حسرة وغصة وسيُغلبون، كما وعد صاحب هذه الكلمة ومربيها وحافظها.

لو كانت فلسطين مجرد كلمة في كتاب وليست آية في كتاب الله لماتت منذ زمن كما مات الهنود الحمر وغيرهم، لكنها آية تُسقى بأطهر الأرواح والدماء، فستبقى كما هي بل ستزداد روحًا لأنها تقتات منها، وإن قوله تعالى: {الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ} ليس فيها بركة التكوين فقط عندما خلقها، لكنها بركة النَّماء؛ فيها تنمو قيم الصراع بين الحق والباطل، وفيها تُزرع الأرواح لتُبارَك بالسقوط عليها ومن أجلها، وإنها من بركة الله فيها أن ابتلى أهلها وجعلهم أهل النور حتى لا يموت النور، وأهل الجهاد حتى لا يموت الجهاد، وأهل الصبر حتى لا يموت الصبر، وأهل الصراع حتى لا يموت الصراع وستبقى هي عقدة العقد وآخية الفرس كلما أرادوا نومًا أيقظتهم، وكلما أرادوا هروبًا شدتهم، وكلما أزالوا الفوارق بين الحق والباطل ووصلوا إليها، إلى جدارها تهاوت كل مداهناتهم وتعلات أمام شمسها، إنها البركة، وهل هناك بركة من غير عطاء ونماء؟! اللهم لا.

لو كان القرآن مجرد كتاب خرافة كما هي كتب الأديان الأخرى لكان مستقره المتاحف للدارسين في الرقم العاديات، مشغولين بإزالة الغبار والتراب عنه ليتبينوا حروفه الغائرة الدراسة، لكنه كلمة الله، وكما وصفه الله تعالى "روحًا"، وهذه الروح لا تعيش هائمة بل تعيش هادية، فنها هو ينتصب عملاقًا، عمود نور، جذوره في الأرض، كل الأرض، وفروعه في

السماء، وثماره في مشكاة الصدور، في فلسطين وأفغانستان والشيشان والعراق وكشمير، بل في كل بلد فيها مؤمن بكلمة الله.

تأمل أيها الإنسان، ألا ترى النور؟! ألا ترى القنابل؟! ألا ترى الأرواح؟! ألا ترى كل ذلك يمثل صراع كلمة الله، كتاب الله، ضد الشيطان وجنده؟!

هكذا تُقرأ هذه الكلمة، وهكذا يُقرأ الإسلام، وهذا طقسه الذي لا يُفهم في غيره أبدًا، فهل فقهت؟! إن فقهت فكن من عظماء قارئيه.

هناك بعض الفوائد المتعلقة بطقوس القراءة عمومًا نذكرها جملة والله الموفق:

إن المرء ولا شك يتأثر فهمه من خلال نفسيته، وكما يصبغ الحرف على النفس معنى، فكذلك تصبغ النفس على الحرف المقروء معنى، ولذلك على المرء أن ينتبه لذلك ويعيد القراءة في الكتاب الواحد في ظروف مختلفة وأحوال متعددة ليرى هذا الأمر، وليرى كذلك الكلمة على حقيقتها كما أراد صاحبها، أو ليراها من وجوه متعددة، فالكلمة من وجه آخر كالمرايا، تكون محدبة أحيانًا ومقعرة أخرى، ومستوية كذلك، والنفس ولا شك مرايا كذلك، وليحاول في كل قراءة أن يسجل هذه المعاني ليدرك الفرق ويتعجب من نفسه، وليستذكرها متى أرادها، فالمعاني تكون في بعض الأحيان خطرات سريعة إن لم تقيِّدها ذهبت.

وكذلك نمو مدارك المرء: الإنسان وكثرة قراءاته وتأملاته تجعلان القراءة للكلمة الواحدة تختلف، وخاصة تلك الكتب التي خطها عقلاء وحكماء وعلماء، وإن كان هذا عامًا مع كل كلمة وكتاب، فعلى المرء أن يعيد النظر والقراءة في الكتب التي مر عليها سابقًا ليكتشف نفسه قبل اكتشافاته الجديدة في هذه الكتب، وإن لم يحصل هذا الكشف الجديد فكفى ذلك فضيلة أن تعيد لك ذكريات وصور جميلة ماضية، والماضي له عبق خاص ولون أخّاذ.

ومن مهمات الانتباه فيما يتعلق بطقس القراءة، هو القراءة بما يعالج الحال؛ فإن المبتلى يقرأ: الفرج بعد الشدة، والفقير يقرأ: اليسر بعد العسر، وفي هذا مراعاة لنفسه من أجل ترسخ هذه القراءة وفهمها على وجهها الصحيح، ومما يُذكر من عجائب الأخبار في هذا الباب أن أبا الفرج بن الجوزي بعد نفيه من بغداد، وذلك بعد حصول وحشة بينه وبين الخليفة، كان يقرأ القرآن كاملًا كل يوم ويتجنب سورة يوسف، وذلك لشوقه لابنه يوسف، وكان هذا الابن بارًا به بخلاف ابنه الآخر الذي ما إن وقع أبوه في البلاء حتى باع كتب أبيه من أجل لهوه ولعبه، وكما قيل: فإن الشجى يبقى شجى.

ومما لا شك فيه أن نوع ورق الكتاب وجودة طبعته تؤثران على القارئ، ومما يقزز النفس هذه الأيام هذه التعليقات الجاهلة السمجة التي تدور في هوامش كتب التراث وكأن صاحبها يقول: "أبو اعرفوني"، وفيها من تضخيم الكتب تورمًا ومرضًا، ومن أجل التجارة والتكسب فإن المكتبات تدفع لهؤلاء "النافخين تورمًا" بمقدار الورق الذي يكتبونه، أي كما يقولون عن علامات بعض المدرسين الجهلة "بالشبر"، وهكذا يطول هؤلاء الكلام ليتم جني الثمن "بالشبر" غير مستحيين من الله ولا من الناس، و(إذا لم تستحيِ فاصنع ما شئت)، كما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، فهذه الهوامش تضيع الناظر وتبعده عن مقصد المؤلف والكاتب، إذ ينشغل بها مرات ظانًا أن تحتها شيئًا، لكنها كالسراب إلا القليل منها.

وأغلب هؤلاء "النافخين تورمًا" لو طُلب منه إنشاء صفحة من قلمه دون أن يسرق من هنا وهناك ويملأها بالإحالات لوقف حماره في أول العقبة، لكنهم يُطيلون ألسنتهم الطويلة–بسبب مرض السرطان– في حق العلماء والسابقين، وما أن يروا خطأ لعالم ولو كان هذا الخطأ من جهة فهمهم حتى يقيموا له حفلة "زار" وجلجلة، وأما ما يؤخذون من الدرر فيسكتون عنها موهمين الواقفين على كتبهم –ولا بصر لهم بكتب السابقين– أنها منهم، وهم لصوص بلا حياء، وهؤلاء وإن نفقت تجارتهم حينًا خداعًا تحت شعارات مباركة إلا أنها عادت بلاقع وبان الصدأ، وإذا هي لا شيء فكسدت وبارت، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وخاصة بعد فضائح اتخاذ العلم تجارة وتكسبًا، فانهارت القيم الإيمانية والأخلاق النبوية على اعتاب الدينار والريال المقدسين!؟ عند نساكهما العابدين، ومن أجلها تحاكم أهل اللحى والثياب القصيرة إلى المحاكم الطاغوتية.

يُنصح عند القراءة اتخاذ "الكناش" وهو دفتر يجمع فيه الفوائد والخواطر، ولا يؤجل هذا فإنه سيندم كثيرًا بعد ذلك حين يرى الكثير منها قد ضاع وذهب، وعندما يحتاج إليه لا يجده، فاتخاذ الكناش مفيد وهو طريقة قديمة للعلماء.

وأما ما يفعله البعض من التعليق على نفس الكتاب المقروء فهذا أمر يرجع له، ولو جعل لقراءته فهرسًا على أول ورقات الكتاب أو آخره فحسن، هذا إن كان الكتاب له، وأما إن كان لغيره فهو تعدٍّ على حقوق الآخرين، وبعض القراء لا يستطيع القراءة في كتاب فيه خطوط أو تعليقات أو تظليل بألوان فسفورية على سطوره، وقد سمعت الكاتب أنيس منصور يقول هذا عن نفسه، وهذا الكاتب لا أعلم له كتابًا له قيمة أو فيه بذل لجهد معتبر إلا كتابه (وكانت لنا أيام في صالون العقاد)، مع أن في هذا الكتاب وصف لنفسه أكثر بكثير من وصفه للعقاد، ومع ذلك ففيه بعض الفوائد عن العقاد.

بعض القراء يكون أسيرًا لظرف معين في القراءة أو لوقت محدد، وعندي أن أمر القراءة هو الأمر في الطعام وهو المحافظة على ما اعتاد فيها وتآلف جسمه معها، فإن كان المرء قادرًا على صناعة طقسه الذي يرتاح فيه فليوافق نفسه ولا يخالفها،

فليس مقصودًا مخالفة النفس لذاته بل هو يخالفها إن وجد فيها إعراضًا عما ينفعه في الدنيا والآخرة، حينئذ يأطرها على الحق أطرًا ولا يألو، ولكن إن تغيرت عليه الظروف أو قست وامتنعت عن تحقيق رغبته فلا يقعنّ بذلك أسير الوهم أنه لا يستطيع القراءة إلا في ذلك الظرف الهارب، بل إنه قادر أن يمرِّن نفسه لتتأقلم هي مع الظرف إن عصي الظرف عن التأقلم.

وهذه النكتة تُعمَّم على كل جوانب الحياة، فعلى الناس أن يدركوا أن قدراتهم في هذا الباب واسعة وكبيرة، وإن النفس يمكن صناعتها من الضد إلى الضد؛ فالإنسان ليس رقمًا ثابتًا بل يتغير ويتبدل في نفسيته كما تتغير أفكاره وأحواله، والعاقل من لا يقع أسير الوهم بأنه لا يستطيع العيش إلا من خيار وحيد مع وجود بدائل، وهذا مرض يدخله المرء باختياره ثم ينزلق فيه درجة درجة حتى يقضي عليه، كما هو شأن المخدرات والعشق.

وأما من يقرأ وهو يستمع للموسيقى وآلاتها ظانًا أنها تجلب له الهدوء وعمق التركيز فهو وهم آخر، فإنه قد ثبت بدراسات منشورة أن القراءة مع الموسيقى تقلل التركيز، فلم يجعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فهذه القراءة أمانة لإدراكها على وجهها، والواجب الحفاظ هذه الأمانة لا إضعافها أو إذهابها، والكلام عن الآلات الموسيقية طال منذ القديم وكتب فيه مصنفات، وواجب المسلم العناية بعقله ومشاعره وغرائزه، ولو بدا للبعض أن هذا مقيد لرغباته فإن قلبه ودينه وآخرته أهم من هذه الرغبات التي ضررها أكثر من نفعها، وليبتعد العاقل عما يضره فهو خير له، ولا أريد أن أطيل في ذكر الخلاف الحاصل قديمًا وحديثًا في الآلات الموسيقية فهذا تكثير غير محمود، ومظانُّه كثيرة مشهورة.

من عجائب ما قرأت عن نهم البعض بالقراءة هو ما ذكره ابن القيم عن شقيق شيخ الإسلام بن تيمية عن أبيه أن جده عبد السلام كان إذا دخل الخلاء يقول له: "اقرأ من كتاب كذا وارفع صوتك حتى أسمع"! وهذا الجد كان يقال عنه أنه أُلين له الفقه كما أُلين الحديد لداوود -عليه السلام-.

فسبحان من قسم الحب بين الناس.

طرق تعميق القراءة

القراءة فعل وغريزة، وكل فعل وغريزة له درجات متعددة، تقوى بتقوية أسبابها وآلاتها، وتضعف بضعف هذه الأسباب والآلات، والناس (القراء) يتفاوتون في هذه الغريزة، ليس بسبب كميتها فقط ولكن لاختلاف درجاتهم في تقوية هذه الغريزة أو إضعافها.

وقبل ذلك قد يسأل سائل: ما هي أعمق قراءة؟ والجواب ولا شك: هي القراءة الناقدة المفسرة:

- فهي قراءة كاشفة؛ تكشف لك النص بوضوح دون ضبابية أو خفاء، وتكشف لك عمارته أو خواءه، غناه أو فقره، تكشف لك شجاعته أو جبنه، تكشف لك الكاتب كما تكشف لك الكتاب.
- وهي قراءة محاورة: تحاورها حوارًا يرقّيها في داخلك، لا تقبلها ولا ترفضها، بل تحاورها لتنشئ غيرها، غير يكون أرقى وأوسع وأشمل؛ فالأفكار بضدها تتطور وتثمر، وبتوسعها تُقبل بنسبة وتُرد بنسبة، كما قال بعض السلف: "من قلّ علمه كثر اعتراضه".
- وهي قراءة توسع الدلالة؛ فدلالة الحرف مراتب -ككل ما خلق الله وأبدع في الوجود- متفاوت الدرجات، وكذلك النص، والقراءة الناقدة تذهب بك إلى أعلى درجات دلالة النص والحرف، بل وتذهب بك إلى المسكوت.
- وهي قراءة استنباط؛ أي بها تستخرج الجزئي من الكلي.
- وقراءة استقراء؛ أي تستخرج الكلي من الجزئي، فهي قراءة تنشئ لديك الكليات والتي لا فقه بدونها كما قال بن تيمية -والفقه هنا بمعناه اللغوي لا الاصطلاحي-، وتعطيك التعميم، وهو أساس إعمال الحكم وهو مفتاح نجاح الحياة كلها. ومع فهم الفوارق بين الجزيئات والتي ظاهرها المشابهة وظاهرها المخالفة.

هذه جوامع القراءة العميقة التي يجب على القارئ أن يسعى إليها.

إنه مما لا شك فيه أن أعظم طريق لتعميق القراءة لارتشاف رحيقها من مظانها هو كثرة القراءة والاطلاع، كما قال الجاحظ في معنى كلامه: العلم إن أعطيته بعضك لم يعطك شيئًا، وإن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وأنت مع هذا البعض على خطر عظيم.

فكثرة الاطلاع والمعرفة لا تزيد مداركك الذاتية والعلمية فقط، لكن تزيد قدرة هذه الغريزة على الغوص في مرامي المؤلفين وكلماتهم، ويصبح عندك القدرة على معرفة مستويات الكتّاب والكتب، كعين الخِرِّيت الخبير، وخاصة إذا اختار المرء اختيارًا موفقًا للكتب وأنواعها، وإذا تنوعت هذه القراءة ولم يقيد الإنسان نفسه في فن واحد لا يتعداه.

كثرة القراءة وتنوعها يجعلانك أكثر قدرة في إدراك المسكوت عنه في الكتب، ليس فقط ما تحسّسه الكاتب ولمسه أو عَرَّض به لكن ما هرب منه وأخفاه، وهذه "شيطنة" يمارسها الكثير من الكتّاب، بعضهم استغفالًا للقارئ وجبنًا منه أو ضعفًا وجهلًا، وبعضهم يمارسها ذكاءً وعن قصد عقلي علمي ليظهر قدراته في هذا الفن الغريب العجيب، وهنا يأتي دور "القراءة الناقدة"، هذه القراءة التي لا تتكون من خلال قواعد تُدرس فقط، بل من خلال طول ممارسة ومعاناة ونظر وسماع.

إن كثرة العلم عند القارئ تجعلان الكتاب الذي يقرؤه يفيد علمًا أكثر؛ فالقراءة -كما ذكرت مقدمًا- ليست تلقيًا فحسب بل هي مشاركة، فكما أنك تستمد منه المعرفة والعلم فكذلك أنت تبسط على مساحات أوسع من المعاني وذلك بمقدار ما معك.

وإن نوع القراءة كذلك يؤثر على عمق القراءة؛ فالكتب مراتب بحسب أصحابها ومقاصد واضعيها، وبحسب موضوعاتها، وها أنا أدلك على بعض أنواع الكتب النافعة والتي لها فعل الترياق في هذا الباب، فإن أخطأتها فقد فاتك خير عظيم لا تدركه في سواها، وجامع هذه الكتب أنها كتب سجالية:

- كتب أوائل العلوم؛ فإن لكل علم كتبًا أولى كتبها أصحاب عقول فريدة، شقّوا لهذه العلوم قواعد مكتوبة، وإن علمنا أن هذه القواعد كانت مستقرة في النفوس، ولكنّ هؤلاء السابقين في الحفر والإبانة لهم مزيات ولكتبهم عمق متميز لا يدركه المتأخر، وإن بدا لك أن المتأخر قد بسطه ووسعه وزاد عليه أو عدله أو قوّمه، فإن ميزات كتب السابقين تكون عادة مبينة على كميات هائلة من الأفراد، والتي من خلالها حصل الاستقراء الذي هو: استخراج الكلي من الجزئي كما يعرّفونه، وبه تكوّنت قراءات هؤلاء السابقين المبدعين.

من الخطأ الذي شاع هذه الأيام وانتشر أن العلوم الإنسانية، كاللسانيات والاجتماعيات تتطور في ارتقاء، وهذا الوهم أعرف أنه يسيطر على عقول الكثير من الناس والباحثين، حتى أني مدرك أن الكثيرين سيجابهون قولي هذا بالاستهزاء وليّ الشفاه احتقارًا، ولا بأس، فإن ظلال هذه العلوم تتجلّى من خلال الممارسة كما هو معلوم، تتجلى من خلال الشعر والأدب ومن خلال السياسة بمفاهيمها المتنوعة سواء الدولية أو التربوية أو الاقتصادية، فهل العالم اليوم في هذه الجوانب القيمية أرقى من جدوده أم أنه منحدر ومنحط عن هؤلاء الجدود والآباء؟!

فكر بعقلك قليلًا ودع عنك شعوذات خرافيي الحداثة الكذابين، وسيتجلّى لك الجواب بسهولة.

القيم الإنسانية لا تتطور، والتجارب الإنسانية القيمية لا تتراكم بل هي تعيش في دورات وفي كل دورة يحصل صراع بين قيم الحق والباطل، حق لا يتطور، وباطل يتزخرف، يشهد لهذا الدين والشرع وسيرورة الحياة نفسها.

لا أدري إن كتب أحد في هذا الباب لكن رأيت الدكتور مؤنس في كتابه الرائع المفيد (الحضارة) أشار إليها إشارة سريعة، مع أنها كانت حاضرة في عقول الأولين، ولابن القيم فقرة رائعة في كتاب (إعلام الموقعين) عند حديثه العميق عن القياس ورده على من يتصور تطور الأعمال والذي يستلزم من قوله عدم كفاية النص، فإنه فرّق بين نوع العمل وجنسه وبين فرد العمل وآحاده، وليت الكتاب بين يدي لأنقل النص لأهميته.

أما دليل الدين، فإن ثبات قيم الدين الخلقية منذ آدم إلى نبينا محمد ﷺ لم تتغير ولم تتبدل، وما اختلف بين الأنبياء هو في الشرائع المعالجة والمقومة لهذه القيم الثابتة؛ فالزنا قبيح في كل الأديان وكذا الكذب والسرقة وشرب الخمر والاعتداء على حقوق الآخرين، والصدق والأمانة وبر الوالدين ورعاية الأسرة والعدل كل الأديان حسّنته ولم تختلف فيه، وإنما الخلاف في الشرع المعالِج والمقوِّم هو المختلف، تشديدًا أو تيسيرًا بحسب حكمة الرب في الأقوام، والعجيب أن اللاحق قلما يستفيد من السابق، مع أن من أساليب الأنبياء وأتباعهم في إحياء هذه القيم والدفاع عنها كانوا دائمي التذكير بعاقبة السابق حين صادم محاسن القيم والأخلاق، ولا معتبر.

أما سيرة الحياة فإن واقعنا يشهد على هذا، وسأضرب مثلًا بما ملأ "المشعوذون" الكلام فيه دجلًا أنه تغير إلى الأحسن، ألا وهو موضوع المرأة، فما أن تدعو إلى حكم شرعي يتعلق بها حتى ينهق المشعوذون: هل تريدون إعادة المرأة للعصور المظلمة؟! ويقصدون بالمظلمة كل عصور آبائنا وأجدادنا.

ما هو الرقي والتقدم الذي حصلته المرأة اليوم؟!

مع كل القوانين الحامية لها فإن المرأة في أمريكا –حسب تقريرهم هم لا نحن– تُضرب أكثر مما تضرب البغال في بلادنا، فإن ٨٥% من النساء هناك تعرضن للضرب ولو لمرة واحدة –مع أنهم يقولون أن هذه النسبة غير صحيحة لأن هناك حالات من الضرب لا يُخبر عنها–، وليته ضرب من قِبل إنسان مالك لعقله بل –حسب تقريرهم– يتعمد الضاربون السُّكر الشديد قبل الضرب ليخرج كل ما في نفسه من قهر تجاه احتقاره وذهاب إنسانيته، بسبب دمار التركيبة الاجتماعية في البيوت.

هل بقي هناك من سلعة حقيرة روجت عن غير طريق جسد المرأة؟! هذا الجسد الذي تحول إلى متاع يباع ويشترى، ومن عاش في الغرب ولو قليلًا سيعرف هذه القذارة التي تتقزّز منها النفوس، ولذلك يبقى للمرأة بعض احترام ما دامت نافعة للتسويق حتى إذا ذبلت بعض نضارتها رُميت كقشرة الموز، لا راحم لها ولا راعٍ لكبرها وحاجاتها.

آخر تقرير بريطاني يقول أن ٨٠% من الموظفات المتزوجات مارسن الجنس مع أصدقائهن في المكاتب، والتقرير يعترف أن النسبة الحقيقية أكبر من ذلك، وأما ما يعرفه إخواننا في الغرب من أخلاق المتزوجين والمتزوجات فذكره يقزز النفس ويتعبها.

هذه القوانين التي توجِد الشرعية للعلاقات الجنسية والاجتماعية خارج إطار الزواج كم جنت على الأسرة والطفل والإنسان وقبل ذلك على المرأة نفسها في صباها وشيخوختها؟! إنها أساس إقامة حضارة السجون والمستشفيات.

هذه القاذورات النتنة وغيرها يغطونها ببعض المساحيق الزائفة، وكأن المرأة لم تكن حكيمة لحل المشاكل إلا اليوم، وكأنها لم تكن طبيبة إلا في ظل هذه الحضارة، وكأنه لم يكن لها يد في إدارة شؤون البيت إلا بعد أن صار لها الحق في تغيير العشاق كما تغير أحذيتها.

إن جدتي عائشة بكل احترام وتقدير لها، وبكل حب وإجلال لهيبتها، ما كان لأحد أن يرد لها كلمة، وإن أمي عائشة هي البيت كله، ولا أعلم لأبي دورًا في بيتنا سوى أنه يعمل لإحضار المال لتستلمه هي، ولم يكن يعرف مقداره إلا يومًا واحدًا في العام، آخر شهر رمضان من أجل زكاته.

كان في مجتمعنا سيئات تصارعها الحسنات وما زالت وستبقى هذه السنة –سنة التدافع– إلى يوم الدين.

وأما قياس المعارف القيمية على العلوم الطبيعية والمادية، وأنه كما تتطور وتتراكم معارف الإنسان في الصناعات والاكتشافات فإنها تتطور في القيم؛ فهو جهل مركب، وكان على المسلم خصوصًا أن يكون بريئًا منه لوجود الدين العاصم من هذا، لكن رأيت بعضهم قد مال به الشيطان إلى عدوته في هذا الباب، وإن أكثر من رأيته يدندن حوله هو "خالص جلبي"، وهذا الرجل لمعرفته بالطب لأنها مهنته يتبجح بهذه المعرفة ليستهزئ بكثير من القيم الدينية، ويقارن ثبات أهلها عليها بثبات معالجي الأمراض المستعصية بالطرق القديمة لينفر الناس منها ومن أهلها، ولعل فرح العلمانيين به–كما يظهر في الجرائد التي ينشر فيها مقالاته– قوّى لديه نزعة الاستهزاء هذه حتى رأيت له كلامًا خطيرًا وهو الاستهزاء بالأمر القدري، فإنه استهزأ واستهجن كثرة الحيوانات المنوية في الحمار مع عدم حاجة نسله لذلك، ولعل سعار الاستهزاء هو

الذي أوصله هذا المنزلق، وهو تلميذ جودت سعيد، وجودت هذا كتبه فيها إبداع وتجديد وأفكارها تبدو لأول وهلة جميلة وبراقة، ثم بالتمعن يتبين أنها وهمية وضعيفة الجذور وحالمة، مع مخالفة الكثير من "خصوصيات فكره" لثوابت الشرع ومصادمتها لسنة الحياة، والكثير من أدلته لهذه "الخصوصيات الفكرية" تصلح دليلًا ضده.

وهما –جودت والجلبي– يدَّعيان وراثتهما لفكر مالك بن نبي، وكتب مالك ولا شك قيّمة، وفيها إبداع في أسلوبها وأفكارها إلا كتابه عن (الأفريقية الآسيوية –مؤتمر باندونغ) فإنه سقطة بكل المعايير.

وتذكر دائمًا: لا يوجد كتاب عدو لك، فاقرأ.

لعلي أطلت في هذه النكتة مع أن لها ارتباطًا بما نحن فيه.

كتب أوائل العلوم وإن بدت قليلة الحجم –في أغلبها– إلا أنها تحوي الأسس الأولى لهذا العلم، وتكشف طريقة التفكير التي اتبعها "المبدع" في وصوله لأهدافه، وهذا ليس من خلال شرح مطول مسهب كما يكون عند اللاحق له، بل من خلال نظر الناقد وقراءته العميقة لهذه الكتب؛ ولذلك في هذه الكتب قلما يفصح "المبدع" عن أصوله؛ لأنه في الأغلب يفترض أنه يتعامل مع متخصصين وكبار مثله، وهذا مع مرور الزمن وقلة الوعي عند اللاحقين يصبح كتابه مهجورًا إلى الكتب الأخرى لصعوبة كتابه أو لخفاء معانيه عند "السطحيين"، وبعض هذه الكتب اللاحقة لمحاولة التسهيل لسوء فهم تقتصر في معاني كتب "أوائل العلوم".

من هذه الكتب الصالحة للمثال فيما نحن فيه كتاب (الرسالة) للإمام الشافعي، وهو أول كتب وُضع في أصول الفقه والحديث، وهو بأصول الفقه ألصق.

لقراءة هذا الكتاب قراءة صحيحة يستدعي معرفة أمور مهمة؛ منها معرفة الحال الذي دفع الإمام لكتابته، فالمعروف أن كتب العلم الشرعي كانت تُكتب لسببين: إما للدخول في زمرة العلماء، أي كتابة للمشاركة وهو أشبه بما يُقدَّم اليوم من أبحاث جامعية، وإما أن تكتب لسبب خارجي عن ذلك، كسؤال توجه إليه، أو فتنة وقعت واستدعت الإجابة، وكتاب (الرسالة) ولا شك من النوع الثاني؛ إذ أن الشافعي ألفه بعد أن صار له اسم وحضور في وسط علمي رفيع المستوى حتى قال أحمد بن حنبل قبل قدوم الشافعي إلى العراق –وله رحلتان إليها–: "لقد كانت أقفيتنا –وفي قراءة: أقضيتنا– بين يدي أهل الرأي حتى جاءنا الشافعي"، فهو لم يكتبه للدخول في زمرة العلماء، إذ كتبه وهو المقدَّم فيهم.

فمعرفة السبب الدافع لكتابته أمر مهم، ثمَّ لا بد من معرفة أدوات هذا "المبدع"، والشافعي إمام في اللغة ويكفي مدح الجاحظ له حين اعترف أنه أنبغ أهل عصره فيها، واعتراف الأصمعي أنه أخذ شعر هذيل منه وهو فتى في مكة، وإمام في الحديث بلا منازع معتبر، وإمام في الفقه بإجماع الناس، وصاحب عقل غوّاص، واستقرائي واستنباطي.

فمثل هذا الكتاب لمثل هذا الكاتب، وبإبداعه غير المسبوق يجعل للكتاب مزية إدراك هذا العلم والنظر إلى قواعده الأولى.

بل إن ما يقال عن أوائل الكتب يقال عن أوائل الاستنباط والنظر؛ فإن الحكمة الأولى لها عمقها وجمالها وبيئتها المفيدة لعلوم أخرى، انظر إلى كتاب ابن رجب (جامع العلوم والحكم) في أوله، في شرحه لحديث (إنما الأعمال بالنيات) وقول الشافعي عنه: "هذا الحديث ثلث العلم ويدخل في سبعين بابًا من الفقه"، فتأمل هذه الكلمة كيف انتقلت من أفواه العلماء، يزيدون عليها ويبسطونها، ومع ذلك فإن منهج الاستقراء الذي يتميز به الشافعي واضح جلي في كلمته، وتأمل كيف جعل الحديث "ثلث العلم"، وأما في الفقه فيدخل في "سبعين بابًا"، كل هذا يُعينك في معرفة العلوم وتطورها، وهو يفيد أكثر ما يفيد في قضية مناهج الأقدمين الذين لم يكتبوا في المنهج اعتمادًا على حضوره في نفوسهم، ونفوس أقرانهم، ولم يخطر ببالهم أن يرث هذا العلمَ أهل عيّ وجهالة.

نعم يكتنف هذه القراءة –وهي قراءة كتب أوائل العلوم– صعوبة على المبتدئين؛ إذ إن أغلبها كما تقدم مختصرة وأشبه بالمتون، لأن المؤلف –يُفترض في هذا المؤلف– أنه يخاطب أقرانه، ومن كان هذا حاله فإنه لا يطيل الشرح والأمثلة، ولا تكثر في نفسه أسئلة: "كيف"، لأنه يقدِّر معرفة الآخرين بها، ولذلك يستعان على قراءة هذه الكتب بكتب الشروح في البدايات، مع أن هذه الكتب لا تنتهي شروحها كما هو شأن (مقدمة ابن خلدون)، فهذه كُتب عنها الكثير، وخاض فيها من خاض، ومع ذلك بقي في الأمر متسع لبعض القول عليها.

ومن فوائد قراءة هذه الكتب أنها تمد القراءة لقراءة أخرى، إذ أن "تاريخ العلوم" من أهم العلوم التي يجب أن تُقرأ لتتعمق القراءة كما سيأتي، وتُعرِّفك قراءة أوائل العلوم على تطور هذا العلم إما سلبًا أو إيجابًا، وما هو أصلي فيه وما هو أجنبي عنه، كما تعرفك بمراتب الكتب وتقديرها؛ لأن هذه الكتب –كل الكتب– تكتنفها أمور خارجية خادعة إما مزينة لجهل أو طامسة لعلم، شأنها شأن الناس، فكم من الناس يخدعك بَريقُه ثم تكتشف دناءة معدنه وإما أن يتغابى وهو أذكى الناس وأعلمهم، فقراءة هذه الكتب تعلِّمُك قراءة العلم ومقداره وراء عبارة الكاتب، لأنه كما تقدم لا تنشأ هذه العلوم إلا من كميات هائلة من أفراد وهذا العلم الجديد.

من قرأ كتاب سيبويه (الكتاب) يدرك الفرق جليًا بين علم النحو عند الأوائل حيث كان ذوقًا وروحًا ومعنى، ثم صار خُشُبًا مُسنَّدة، قواعد حديدية تشكل هيكلًا فاقدًا للذوق والمعنى.

كان من أماني الشيخ محمود شاكر أن يصل إلينا كتاب الخليل عن بحور الشعر؛ لأنه يعتقد أن البحور مبنية على الدوائر لا على التفعيلة، ويُنظر قوله هذا في كتاب (نمط صعب ونمط مخيف)، وانظر إلى كلامه العجيب في كتابه (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) حيث يقارن بين عبارة سيبويه في تقسيم الفعل وعبارة من بعده.

ويزعم اليوم "المضبوعون"؛ –أي من وقعوا في أسر الضبع، هذا الحيوان الجبان نهارًا الأسد ليلًا، يحكي عنه أباؤنا قصصًا غريبة، منها أنه يخلب عقل أسيره في الليل عن طريق أمرين: كثرة مخاتلته ثم رش بوله عليه، وبذا يقع الإنسان ضحية للضبع فيلحقه إلى باب وكره، وبعض أمتنا وقع في إسار الضبع بالمخاتلة حينًا وببول الضبع حينًا آخر، وهم من نعنيهم–، أن الأوائل لا بصر لهم بالنقد الشعري مثلًا، أو لا يوجد عندهم منهج عقلي لنقد المتن، أي متن سواء كام وحيًا كالحديث النبوي أو إنسانيًا كالشعر وغيره، وهؤلاء –إن أحسنا بهم الظن وأن سبب ضبعهم هو المخاتلة وليس البول– إنما أوتوا لعدم قراءتهم الكتب الأولى، وإنما قرؤوا –إن قرؤوا– كتبًا كتبها أصحابها للأطفال في زمانهم.

فالمعروف مثلًا أن (رسالة أبي زيد القيرواني) والتي تعد عند بعض المتأخرين مصدر الفتوى للعالم المالكي إنما كتبها هذا العالم المجاهد ليحفظها الأطفال مع القرآن الكريم من أجل تحصينهم ضد الباطنيين –الإسماعيلية العُبيديون– في زمانه.

وكذلك (مقدمة ابن الصلاح) في الحديث، فإنما كتبها للطلاب تسهيلًا لهم لحفظ الأمر على طريقة تعريفات المتأخرين لا أكثر، أي أنها تعريف لمصطلحات علم الحديث وليست علم الحديث، فهي مقدمة له، أي لشرح مصطلحاته فقط.

وقراءة العلوم من مصادره الأولى تكشف لك أخطاء المتزيدين عليه أو البانين عليه بناءً باطلًا، ومن أمثلة ذلك ما يسمونه اليوم بعلم "المقاصد" الذي ينسبونه إلى الإمام الشاطبي وكتابه (الموافقات)، وعلى الرغم أن الإمام الشاطبي ليس أول من كتب فيه لكنه هو أكثر المقال فيه بسطًا واستدلالًا، وله فضل في هذا لا يُنكر، فلو قرأت فقه المقاصد عند الشاطبي وما يكتبونه اليوم عنه ترى أن الدُرَّ استحال إلى البَعَر، فقد جُرِّدت المقاصد عن روحها الذي شدّد الشاطبي عليه في كل كلمة قالها في كتابه؛ وهي تحقيق العبودية لله وأن أعظم المقاصد هو حفظ الدين وتقديمه على ما سواه من المقاصد الأخرى، فانظر إليهم اليوم وقد حولوا "المقاصد" إلى "الرغبات" و"الشهوات" و"المصالح الدنيوية الذاتية" مع أن الشاطبي شدد على هذا الأمر ونبّه عليه محذرًا من السقوط فيه، ومع ذلك جاء اليوم من جوّز بناء الحكم الشرعي على "المصلحة" تحت حجة

فقه المقاصد، حتى لو خالفت النص الشرعي الصحيح، ومن قدَّم حِفظ غناه وليس ماله فقط على حفظ الدين، والشاطبي –رحمه الله– بريء من كل هذه الأهواء والأكاذيب.

وعلى الرغم أن هذه الكتب لا تُكثر من "كيف" كما تقدم لكنها كتب سجالية؛ فهي كما قلت نشأت لسبب وظرف، وهذا الظرف عادة وجود المخالف أو انتشار الخطأ، فالكاتب تحضر في ذهنه المناظرة، وإن كتب كتابه على غير طريقة المناظرة، لكنك تتحسس هذا من كتابه روحًا تسري فيه، فتعرف أساس المشكلة فلا تعمم، ومن ذلك قراءة كتب أرسطو التي شكلت منطقه الذي نُسب إليه، فإن قراءتها تكشف لك أن هذا المنطق نشأ لمشكلة بيانية تتعلق "باللغة" وليست لمشاكل "برهانية" حسب تقسيمه، ولمشكلة البيان عنده "اللغة" نشأت "السوفسطائية" التي دفعته لكتابة منطقه في كتبه المتعددة، ولعدم فهم هذا نقل الآخرون "منطقه" إلى بيئات أخرى ليس فيها هذه المعضلة وظنوا أن المنطق عصمة "للعقل" من الانحراف كما أن "النحو" عصمة للسان من اللحن، وهذا التعميم هو دمار للمنطق نفسه وللعلم الذي يُطبَّق عليه وليس ملائمًا له.

إن قراءة كتب" أوائل العلوم" تجر وراءها أسئلة وقراءات أخرى، وهذا كافٍ ليُحقِّق للقراءة عمقًا.

– من الكتب التي تعينك على تعميق القراءة، هي كتب "تاريخ العلوم" أي "تاريخ القراءات"؛ فما من علم إلا وينشأ من قراءة، وقد اهتم العلماء قديمًا برصد هذه العلوم وكتابة تاريخها، والترتيب الزمني، وكذلك الترتيب العلمي ومستوياته، والتطور وأسبابه، ومن ذلك تاريخ الفرق العقدية في تاريخ الإسلام؛ فإنه لا يمكن للمرء أن يحكم على هذه الفرق أو أن يعرفها على حقيقتها إلا بمعرفة تاريخها.

الفرق العقدية في الإسلام طائفة مختارة رضيت مرجعية التفسير اللغوي للنص القرآني، وهذه المرجعية صحيحة ولاشك، لأن القرآن "كلام"، فهو خاضع لأصول هذا الكلام، وهو عربي، فمرجعيته الذهنية العربية، أي يُفسَّر من خلال كلام العرب وأفهامهم كما أجمع على ذلك كل الفرق المتباينة والمتقاتلة في التاريخ الإسلامي، ولكن لو أخذنا فرق الشيعة مثلًا؛ فإن تاريخها يكشف لك السبب الحقيقي للخلاف –وهذه قراءة نقدية، تكشف وتحاور وتبني وتحكم– فلو قرأت كتاب (فرق الشيعة) للنوبختي –وهو منهم– أو كتاب (الملل والنحل) للشهرستاني –وهو ضدهم–؛ لوجدت أن سبب التفرق ليس عائدًا لاختلاف الفهوم حول البيان –المرجع– ولكن لأسباب أخرى، حيث تجد أنه ما من إمام من أئمتهم مات إلا حصلت بوفاته فرق جديدة أقلها ثلاث.

الدكتور فؤاد زكريا عندما رد على محمد حسنين هيكل في كتابه (خريف الغضب) والذي سماه (كم عمر الغضب؟!) ذكر قدرة هيكل على تأليف أي كتاب يريده خلال مدة قليلة واعترف بقوة هيكل في وصوله إلى أهدافه وعزا هتين القدرتين إلى "أرشيف" هيكل الرهيب، أي "التاريخ"؛ تاريخ السياسات والأشخاص والدول والقوانين، وقوله هذا من جهة نظرية قول صحيح؛ فإن التاريخ هو أساس إدراك الحقائق، وتاريخ أي علم أو موضوع هو الكاشف لحقيقة هذا الموضوع ومقدار صدقه أو انحرافه، إلى غير ذلك مما يتعلق بهذا الأمر.

وللذكر فإن محمد حسنين هيكل من أشهر قراء العصر وخاصة السير الذاتية للسياسيين والقادة، حتى ذكر عن نفسه أنه لم يتخل عن برنامج القراءة الذي اعتاده في يوم بنائه على زوجته، خصلة محمودة ولا شك، وهو صاحب أكبر أرشيف يتعلق بتاريخ مصر بعد ثورة يوليو ولحرصه عليه هرّبه إلى خارج مصر، وقد كان يسمي زمن عبد الناصر بصوت سيده، ومن أراد معرفة معناه فليسأل وليكتشف.

تاريخ العلوم والقراءات تاريخ سجالي قد لا يكون موجودًا في كتاب مستقل لكنه قد يختزل في جملة مبثوثة في كتاب لم يؤلَّف لهذا الأمر، وهنا تأتي أهمية القراءة الشاملة.

كان من حجج شكيب أرسلان على فساد قول طه حسين في انتحال الشعر الجاهلي هو تاريخ الشعر، فإن الفجوة التاريخية هي التي تثير الريبة والشك في العلم، فكان من قول أرسلان: متى كان الشعر الجاهلي غائبًا مستورًا ثم ظهر فجأة كرعي بلا دليل؟! أين هي الفجوة التاريخية والحلقة الزمانية المفقودة في تاريخه ليثير الشك في نسبه فيكون ابن لغيّة لا ابن رشدة؟!

الإنتاج الإنساني مأسور لأمور متعددة سوى منهج الإنسان وإيمانه، مأسور للجغرافيا وللتاريخ وللحدث وللعواطف والانفعالات، وحين يقرأ الإنسان هذا الإنتاج من خلال محيطه فإنه يقرأ قراءة صحيحة شاملة ناقدة وبذلك يتحرر من أسار التقليد والتسليم والذي هو ضد النظر، ويتخلص من الرفض الكلي والذي هو ضد الموضوعية.

هذا الموقف ليس موقفًا تبريريًا؛ فإن الموقف التبريري قراءة سلبية لا تنتج خصوصية، وليس موقفًا تلفيقيًا؛ فإن الموقف التلفيقي ليس علميًا، بل ما نريده هو القراءة النقدية فحسب؛ لأنها القراءة العلمية الوحيدة.

قد يتصور البعض أن ما أقوله هنا من القراءة النقدية وعلاقتها بتاريخ العلوم لا دخل لها في القراءة الدينية؛ لأن مبنى القراءة الدينية على التسليم، ودور التسليم هو إدراك معنى النص لاعتقاده والعمل به، ولكن بإمعان النظر نكتشف الآتي:

أن كثيرًا من العقائد التي انتسبت لما يسمى مذهب السلف، إنما يقصد بها "السلف" النسبي وليس الأول كما ينبغي أن يكون، وقبل أن أضرب أمثلة على ذلك دعنا نعترف أن اعتقادنا –وهو اعتقاد صحيح– أن النص الشرعي هو الذي قدم لنا طريقة تفسيره عن طريق المثال، فالنص يفسر بيانيًا وعمليًا؛ فالبيان عربي، والعمل من خلال النبي ﷺ وأصحابه –رضي الله عنهم–؛ فتفسير النص خاضع لفترة تاريخية لا يجوز لنا أن نوسعها لندخل فيها ما ليس منها مهما بلغت درجة تقديره واحترامه، وما بعد هذه الفترة يؤخذ منها ويرد.

أما الأمثلة فسأقتصر على مثالين:

أولاهما: انتشار القول أن مذهب السلف هو عدم جواز الخروج على حكّام الجور إلا إذا كفروا، والنقاش هنا ليس في ما هو القول الصحيح ولكن في تسمية هذا القول: "مذهب السلف"، أي تاريخيًا هو قولهم، وإن نشأت مذاهب أخرى فهي لغيرهم، يعني أن هذا قول الصحابة –رضي الله عنهم–. وبمعرفة تاريخ هذا القول يتبين التالي:

- في كتاب (الفِصَل في الملل والنِّحَل) لابن حزم يكتشف القارئ أن عددًا كبيرًا من الصحابة على غير هذا المذهب قولًا وعملًا.
- يعترف ابن حجر العسقلاني أن هذا المذهب قوي وانتشر بعد حادثة عبد الرحمن بن الأشعث وخروجه على الأمويين الذي انتهى بقضاء الحجاج عليه، فالحادثة نُشرت وأُيدت، وأما قبلها فالاختلاف موجود.

التاريخ هو الذي جعلك خارج إطار التقليد والتسليم.

ثانيهما: تعيين الطائفة المنصورة الواردة في الحديث، فإن البعض يربطها من خلال خط تاريخي معين ينتهي إلى ما يريد منه أشخاص أو جماعة أو دولة.

النص النبوي المفيد لوجود الطائفة المنصورة فيه إفادة الدوام وعدم الانقطاع حيث يقول ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق). وهؤلاء في محاولاتهم تحديد حقيقتها ضمن أفهامهم الخاصة أنها الخط الذي ينتظم واصلًا إلى ابن تيمية وابن القيم ثم إلى محمد بن عبد الوهاب ودعوته المباركة، وهؤلاء لا أتردد في أن ما يقولون عنهم صحيح، لكن: أين هي الطائفة المنصورة خلال ثلاثمئة عام أو أكثر بين السابق واللاحق؟ أين علماؤها؟ أين جهادها المذكور في الحديث؟ إن بحثت ستجد أن الطائفة المنصورة أعمق في دلالتها من هذا الحصر الذي يستنتجه هؤلاء "المغرضون"، وأن محاولة ربطها من خلال سمت

معين غير صحيح، بل "لعل" ما يريدون جعله أصلًا إنما هو تاريخيًا البارحة واليوم واقعًا هو الفرع الذي لم يكتمل، ولأني أقول "لعل"؛ فليس مطلوبًا مني للشرح أكثر من ذلك.

إياك أن تقرأ علمًا بلا تاريخه، بل إياك أن تقرأ كتابًا بلا معرفة تاريخه؛ لأن تاريخ العلم وتاريخ الكتاب وتاريخ الحكمة وتاريخ الكلمة يوسِّع مداركك في فهمها ويضعها في مكانها الصحيح، فالأفكار لا ينتفع بها الإنسان من غير ترتيب وتنسيق بل ربما يكون ضررها أكثر أو خطؤها أقرب، وجزء مهم من ترتيب الأفكار والعلوم وهو ترتيبها زمنيًا مع وجود أنساق أخرى للترتيب تدرس وتعلم في مناهج البحث والدراسة.

– النوع الثالث من الكتب السجالية التي تعمق القراءة؛ هي كتب المناظرة والمراجعة والتعليق والنكت –النكتة هي المسألة العلمية–.

(إن من البيان لسحرًا) كما قال رسول الله ﷺ، واللغة عالم غريب، بل لو قلنا إنها أغرب عوالم الإنسان وأعجب ملكاته لكان قولنا صحيحًا، ولذلك هي "ذوات الوجوه"، والأفكار شيء يجل عن الوصف، وأداة حملها هي اللغة، وقد فقه الأوائل ارتباط اتساع اللفظ باتساع ملكة العقل وغريزته، كما قال الباقلاني في (دلائل الإعجاز) وكما هي عبارة ابن تيمية بالنص، وقد وصف الله كيد الكافرين بأنه يزيل الجبال: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، وكان من مكرهم بحسب قول الله: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ}؛ وهذا يدل على سطوة وقوة هذه الملكة؛ ملكة البيان، وليوسع المرء مداركه لا بد من الإصغاء إلى فنون الناس –أصحاب هذه الملكة– للإبحار معهم في عرض عقولهم وفي مصادمة عقول غيرهم، ليبصر الناظر بصرًا يرقّيه هو في إدراك وجوه الكلام ومعانيه ومزالقه وخفاياه، ووجوه الكلام هنا هي عينها مرايا العقول والأفكار والمدارك.

فالمناظرة فن راقٍ، بل هي من أرقى أنواع الخطاب، وقد كتب فيها الأقدمون أبحاثًا جليلة ووضعوا لها قواعد عديدة لتحقق المراد منها، ولسنا هنا بصدد الحديث عن هذا الفن وقواعده، لكن في بيان أهمية "الجدل" العلمي وقراءة أفراده لترقية القراءة الناقدة.

في "الجدل" تقرأ النص وتقرأ الحوار معه، فتقرأ نقيضه أو متممه، لأن "الجدل والمناظرة" لا يعنيان فقط الرد والمخالفة، بل يشملان التنبيه والتوسيع والتقييد والاستدراك وبهذا الاطلاع تحصل على الأشمل والأصح.

إن العلم مراتب وأعظم مراتبه أن تعرف ما يخالفه وكيف ترد عليه، بل وكيف تقيمه من خلال أدلة خصمه، وهذا لا يأتي لك إلا من خلال تعلم الجدل والمناظرة والحوار، والبعض من "الصغار" يرون لبعض السلف الأجلاء روايات تنهي عن مناظرة أهل البدع والجلوس معهم، وهذه الأقوال يجب أن تُفهم من خلال ظرفها ولمن قيلت، وأما تعميمها فباطل، ولو افترضنا تعميمها فليس قائلوها بأجل ممن سلك غير هذا السبيل، فهل ينكر أحد مناظرة ابن عباس للخوارج وما نفع الله بها من هداية أكثرهم؟ أو مناظرة عمر بن عبد العزيز كذلك، ومناظرة الشافعي لحفص الفرد في عقيدته الكلامية ومئات غيرها، وأما المناظرات الكلامية فلا تكاد تُحصر؛ كمناظرة مالك لأبي يوسف ومناظرات الشافعي لمحمد بن الحسن الشيباني ومناظرات ابن مبارك لأبي حنيفة.

تاريخ عبق لجيّ بالحوار والمناظرة والجدل يدل على حياة ورح مستفزة لتجلية الحقيقة، واعلم أنك لست على يقين مما أنت عليه ما لم تعرف مقالة مخالفيك، فالمقلد ليس عالما، وبالتالي ليس هو مقصود خطابي هنا.

لقد كان من طريقة رسول الله ﷺ في صناعة الفقيه هو استفزاز المدارك العقلية في أصحابه -رضي الله عنهم-، كقوله عندما سئل عن القبلة للصائم فقال: (أرأيت إن تمضمض؟!)؛ وهذه هي أفضل طريقة لتعلم الحوار والمراجعة وبناء قواعد العلم.

ولذلك أفضل طريقة لتعليم أي علم هو استفزاز الطالب لإدراك الحقائق فيه بنفسه، وهذا لا يمكن حصوله إلا بالسؤال الهادي- من الهداية وليس الهدوء- والموجِّه المستفِز.

ومن عجائب تاريخنا أن الرجل يُشهد له بالعلم والمعرفة إن تمكّن وجلس لحوار مخالفيه، ومن أشهر من عُرف في هذا الفن هو الإمام الشافعي؛ فله مناظرات كالأعاجيب مع مخالفيه ولذلك لُقِّب في بغداد بناصر السنة، والباقلاني لقب بالأستاذ والغزالي لقب بحجة الإسلام وابن فورك لقب كذلك بالأستاذ، وابن تيمية لقب بشيخ الإسلام، وابن حزم الذي قال عنه أبو العباس بن العريف: "لسان ابن حزم وسيف الحجاج قرينان"، ولهؤلاء وغيرهم مشاهد غنية تُعلّم سرعة البديهة والخاطر، واتساع المعرفة، ومن إدارة القول، والغوص في الدقائق الخفية، وكلها شروط واجبة لصنع الحوار الناجح الهادف.

وقديمًا قالوا: "وبضدها تتميز الأشياء"، وكذا لا يعرف قوة العلوم وثباتها إلا من خلال عرض المخالفة وبطريقة أمينة صحيحة، وقد اعترف ابن حزم كما في كتابه (مداواة النفوس) بفضل خصومه عليه، بل قال: "لولا وجودهم ما كتبت حرفًا"، وهذا حق؛ فإن أغلب ما كُتب في تاريخنا إنما نشأ بسبب الحوار والخلاف والمراجعة، وفي هذا رد على من زعم سكون العقل الإنساني في تاريخنا وأنه عقل جامد، أو أن اعتماد الأمم على الدين الحق -الإسلام- يعطل العقل والنظر،

فمثل هذه الأقوال إنما تصدر من قوم لا يعرفون عنه شيئًا، ولا تغرك الأسماء الكبيرة، فكم اعترف بعضهم أنه لا يعرف شيئًا عن تراثنا البتة.

ذكر الدكتور دسوقي صاحب كتاب (القضاء والقدر) وهو في ثلاثة أجزاء، إذ يقول بلفظ لا يمكن نسيانه: "وجهلي بالتراث العربي جهلًا كاد أن يكون تامًا"، وعزا هذه الفاقرة إلى طريقة التعليم وفساد المدارس التي لا تُعرِّف شيئًا عن مصادر القوة في أمتنا وتراثها.

وكتابه هذا حري أن يُقرأ، لتعرف الأمة كيف ينظر مثقفوها إلى تراثنا وأنه تراث خرافة ولا أكثر، بل ولترى هذا الاتهام الخطير للشخصية العربية أنها شخصية فصامية، وكأن الأيدلوجيا قاصرة على أمتنا. وكأن الغرب لا يعيش تراثه ودينه، هذه نظرة أقوام لا يعرفون فقط أمتهم ولكن كذلك لا يعرفون الغرب.

ومرة أخرى كتاب زكي بكل ما فيه يصلح دليلًا لحالتين خطيرتين: الأولى: عداء التراث والدعوة لبتره والانتهاء منه، والحالة الثانية: التّصالح مع التراث من أجل تحريفه تحت دعوى تجديده، ولعلّ الحالة الأولى قلَّ دعاتها تحت صمود الأمة وقيادة أئمتها من مفكرين وعلماء وثورة إحياء للتراث عن طريق طباعة الكثير منه، ولذلك اضطروا إلى "التصالح" لتحقيق الاختراق والتدمير، وهو مشروع زكي في الكتاب كما هو مشروع محمد أركون وحسن حنفي ومحمد الجابري، ومن قبلهم حسين مروة والهروي وكثيرون كثيرون، مجال عملهم التراث، ويزعمون "التصالح" معه واختيار القديم النافع لتحقيق التقدم و"التصالح" مع العصر، والعجيب أن هؤلاء كلهم يتفقون على "تفجير" اللغة كأساس اللحوق بالعصر.

رحم الله الرافعي الذي سمى معركة اللغة (تحت راية القرآن).

حتى التيار القومي "الملحد" الذي أرسى دعائمه ساطع الحصري والذي لا يرى للدين أثرًا في تكوين "الأمة" تراجع اليوم ليقبل "الدين" باعتبار أصوله وقواعده لا نصوصه وتشريعاته، وقدَّم لهم "المفتون" الفتوى بالقبول والله يقول: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}، وإن طلبهم قديمًا كما قال تعالى: {بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} لا كله، ولو أطاعهم لكانت العاقبة: {إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}.

وقد يقول قائل: هل "المثقفون" اليوم على هذه الشاكلة؟

والجواب: بل هم اليوم أسوأ؛ فإن أمثال زكي نجيب محمود كان ينطلق من منطلقات عقلية بحتة قوامها الجهل بالأمة، لكن "لقطاء الفكر" هذه الأيام أُجراء عمالة، وهم يقرؤون التاريخ والتراث لخدمة خصوم الأمة، وبدعم منهم، فمن الذي يدعم

ويرعى أمثال أمين معلوف ليكتب عن (الحروب الصليبية كما رآها العرب) ويدسّ فيها أصبع الشر هنا وهناك، مع أن كتابه هذا مسروق بالكلية –إلا من أسطر قليلة– من كتاب (الحروب الصليبية في المشرق) لسعيد أحمد البرجاوي، ومن لم يصدق فليقارن، وكتاب البرجاوي هذا كتاب رائع بحق، وهو قديم وأعجب من عدم انتشاره وهو من أوفى الكتب في هذا الباب، وهو مطبوع سنة ١٩٨٤ ميلادية.

فذكر الدكتور الدسوقي أنه لما قدم بحثًا لأستاذه النشار عن مفهوم القضاء والقدر في القرآن والسنة؛ فوجئ أن هذا الأستاذ الكبير لا يعرف أن هذا المفهوم هو مفهوم قرآني؛ وأن السببية بمفهومها السنني هي حقيقة المفهوم القرآني، إذ كان يظن أن مذهب الجبر هو مفهومه، وكتاب الدكتور الدسوقي لو قيل لك: اذكر أفضل وأجلّ مائة كتاب كُتبت في القرن العشرين فلا تتردد في وصفه معها.

وقد ذكر لي طالب جامعي أن الدكتور عبد الرزاق السنهوري –وهو واضع دساتير بعض الدول العربية منها مصر والكويت– جُوبِه مرة في مدرج الجامعة بحكم شرعي يتعلق بمسألة ذُكرت لي وقتها ونسيتها، فما كان من السنهوري إلا الاستهجان أن يكون للإسلام كلام في ها الباب، مع أن السنهوري تغير بعد ذلك وصار يرى الإسلام "أحد" مراجع القانون الدولي والدستوري.

وممن اعترف بعدم معرفته شيئًا عن الإسلام ولم يطلع على تراثه: زكي نجيب محمود كما في كتابه (تجديد الفكر العربي)، وهو الذي يعده البعض الفيلسوف الوحيد المعاصر في العالم الإسلامي.

والأمثلة كثيرة جدًا خاصة هذه الأيام، والسهل والواد مليئان بحطب جهنم من "المضبوعين".

هناك كتب لا تُقرأ إلا مع ما كُتب حولها وعليها وإلا لكانت قراءتها ناقصة مبتورة، فكتب محمد عابد الجابري لا تُقرأ إلا مع رد الدكتور طه عبد الرحمن عليها، وكذلك ما كتبه جورج طرابيشي، وجورج هذا قارئ من الذروة قلما تجد مثله، وكتبه شاهدة على ذلك، وكل فقرة من كتبه تدل أن وراءها تنقيبًا وبحثًا واطلاعًا، سواءً على كتب التراث –حتى كأنه من أهله– أو على غيره، ومن نظر في كتاب (مذبحة التراث) يرى ذلك جليًّا مع صِغره، ومع أنه غير مسلم إلا أنه يعرض التراث بأمانة وصدق.

وكتب الشيخ زاهد الكوثري يحتاج القارئ معها لزامًا لكتاب (التنكيل لما في تأنيب الكوثري من الأباطيل) للشيخ عبد الرحمن المعلمي، وهذا كتاب لا أعتقد أن قارئًا يملّ منه لو قرأه عشرات المرات؛ فهو كتاب يُعلِّمك القراءة الصحيحة،

ويكشف لك خدع الكاتبين، بشرط ألا تلتفت فقط إلى أفراد بحثه ولكن إلى منهج دراسته وكتابته، والشيخ المعلمي إمام يقال فيه بحق: كم ترك الأول للآخر؟! وفيه رائحة الأقدمين وعقلهم.

وهذان مثالان لباب تصنف فيه مجلدات، وهذه الكتب -الردود والجدل والاستدراك والنكت- لها ميزات لا تجدها في غيرها لعمقها واعتمادها على قواعد علمية ودراسات شمولية فاحرص عليها.

كما كان الأوائل يحرصون على إيصال علومهم عن طريق الحوار بين المختلفين؛ فالجاحظ ألَّف كتابه (الحيوان) مبتدئًا المناظرة فيما هو الأفضل "الكلب أم الديك"؟ وفي كتابه (البيان والتبيين) مناظرة في فضل العصا، وابن القيم يعتمد هذا كثيرًا في كتبه كما في (إعلام الموقعين) في مبحث المختلفين في القياس، وفي (روضة المحبين) حيث ذكر مناظرة بين القلب والعين، وفي (طريق الهجرتين) في مناظرة بين الغني الشاكر والفقير الصابر، وهذا أمر كثير في كتبه.

ومما ينبغي التنبيه عليه أنه بعد رحلة طويلة لك مع القراءة ستكتشف أن أفضل طريقة للقراءة هو أن تقرأ كل الكتب بطريقة سجالية، فما من كتاب إلا وفيه رد وجدل واستدراك ونكت على غيره، وستكتشف أن قيمة الكتاب هو بمقدار تحقق لك فيه؛ لأن هذه القضايا هي روح الكتب وحياتها ومصدر قوتها وألقها، وإن خلا الكتاب منها فهو كتاب جامد لا حياة فيه، وكفى للتدليل على هذا الأمر كتاب الله تعالى؛ فإنه كتاب الجدل المهتدي بحق إن فقهناه بحقه.

ومن قرأ الكتب بهذه العين تحصَّل على حقيقة القراءة الناقدة بكل معانيها، حتى كتب الحديث وروايته؛ فإن المصنفين فيه كانوا يستحضرون المخالف في كتبهم، فابن تيمية يرى أن الإمام مالك أنشأ كتابه ترتيبًا وتبويبًا ردًا على أهل الرأي، ومن نظر في أبواب البخاري رأى أن الكثير منها في الرد عليهم، ومحمد بن الحسن الشيباني يسمع أن أهل الشام يتهمون أهل العراق أن لا بصر لهم بالسِّير فينشط لكتابة (السير الكبير) ويعقبه بكتاب (الرد على سير الأوزاعي).

وهذا في تصنيف من بعدهم أظهر وأوضح، فإذا كانت كتب الرواية هذا نَفَسها فما بالك بغيرها؟!

ومن طرق تعميق القراءة هو قراءة الكتب على أهل فنِّها، فإن قرأت على كاتبيها فهو الأصل وإلا على أهل البصر بفنها وعلومها.

اعلم أنه ما من نص إلا ويصنع آخرًا، وما من نص يكتبه كاتب إلا وهو يرى أن في نفسه نصًا مستورًا لم يستطع الإبانة عنه؛ فهذا الشافعي -وهو من هو في فن الإبانة عن نفسه- يعترف أنه بقي في نفسه معانٍ لم يستطع الإبانة عنها، كما في كتابه (جِماع العلم)، وهو ككل كتب الشافعي آية سِحر بيانيّ عميقة، فيه من فن المناظرة والاستدلال والحوار شيء

عجيب، ولا يعدُّ المرء طالب علم إن لم يقرأ ويتذوق كتب الشافعي (الأم) و(الرسالة) و(جِماع العلم) و(اختلاف الحديث).

ولذلك كثر قول القائلين: "وما لم أكتبه أحب إليّ"، وقد اشتهر قول القاضي الفاضل كاتب صلاح الدين في صراع الكاتب مع نصه لإصلاحه وتعديله والزيادة عليه، كما هو مُثبَت في الورقة الأولى من قِبل محقِّق (معجم الأدباء) ناسبًا النص للعماد الأصفهاني –وهو قرين القاضي الفاضل البياني– والصواب أن النص للقاضي.

هذا النص الآخر الذي يصنعه النص المُنجَز، وهذا النص المختبئ عزةً وامتناعًا لا يمكن الوصول إليهما إلا من خلال الحوار مع الكاتب إن قدرت وإلا مع قرينه الحاضر، وهذه طريقة السلف الأقدمين وما زالت إلى يومنا هذا مع أهل حكمة الكتابة والقراءة.

يحي حقي صاحب القنديل؛ (قنديل أم هاشم) اعترف أن الجلوس مع الشيخ محمود شاكر فجّر عنده تذوق اللغة وأسرارها. وكذا اعترف إحسان عباس صاحب (غربة الراعي)، وهذان مع شأنهما المعروف في الأدب لكن رحلة الرُّقي لا تتوقف.

كانت القراءة على الشيوخ شرطًا تجيز لك رواية الكتاب، وربما يبدو للوهلة الأولى أن سبب ذلك يعود فقط للتوثيق؛ أي توثيق نسبة الكتاب لصاحبه، وهو سبب صحيح، ولكنّ هذا الشرط يُحقِّق فوائد أعمق من هذا السبب منها:

– يُلاحَظ أنّ الكتاب بين يدي كاتبه يتشكّل مرات متعددة بعد كل قراءة وعرضة، فالكاتب نفسه يكتشف فوائد جديدة تستدعي الزيادة أو النقصان أو التبديل؛ لأن القراءة أشبه بالاختبار، وأي فعل إنساني عُرضة للمراجعة، والكتاب كالإنسان؛ أي أنّ عامل الزمن جزء منه، والفارق أن الكتاب الجيد يستمد من الزمن قوة بخلاف السيء فإن الزمن يُبليه ويهلكه؛ فإنه يبدأ "كتابًا أخضرًا" ثم يبهت حتى يصبح "أصفرًا"، فالقراءة لا تفيد القارئ المتلقي فقط لكن تفيد الواضع نفسه.

– أن القراءة اختبار لأثر الكتاب على الإنسان، إذ تحصل كثير من القراءات بع زمن من انتشار الكتاب بين الناس، وخلال القراءة يتم مناقشة هذه الآثار وأعراضها مما ينتج نصوصًا أخرى رديفة، ومحاورة سواء من الكاتب نفسه أو من غيره من أهل الفكر والنظر، ومن أمثلة ذلك ما وقع لكتب سيد قطب من مراجعات حولها في زمنه، وما زالت إلى الآن تنشئ الأسئلة، ولو كان الوضع سليمًا وفي ظروف صحية وموضوعية لأبان كثيرًا عن مقصوده، ولذلك يُقال أنه طلب من رفيقه

في السجن الأستاذ عبد المجيد الشاذلي أن يشرح أفكاره شرحًا أصوليًا، فكان كتاب (حد الإسلام وحقيقة الإيمان)، مع أن هذا الكتاب لا يستطيع أحد أن يقول إنه شرح لما يريده سيد، بل هو نص آخر يحتاج إلى نصوص أخرى.

وكذلك ما نشأ من جدل حول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والتي احتاجت إلى عشرات الكتب لتشرح دعوته وكتبه، خاصة حين تُرى بعض الأفهام المنكسرة عن خط الفهم الأول، فكما قيل إن الفكر الواحد يتأثر ويتعدد بحسب العقول الوارد عليها، كما ينكسر الضوء خلال انتقاله من بيئة إلى أخرى.

- إن جلوس صاحب الكتاب لرواية الكتاب أولًا هو إعطاء الثقة لهذا الكتاب ولهذا الكاتب؛ ذلك لأنه لا يتستَّر وراء كلام مسروق أو مصنوع من غيره، كما يحصل هذه الأيام من قِبل الكثيرين.

اتصل بي شاب تقي -نحسبه والله حسيبه- وفوجئت به يخبرني أن والده يُنكر السنة النبوية الشريفة، فطلبت منه أن يرتب لي حوارًا معه، فقال لي: لو اطلعت على كتبه أولًا، فوافقت، وأرسلها لي، ثلاثة كتب ضخمة، بل ضخمة جدًا، فقرأتها ولم أجد فيها جديدًا، بل كلام مكرر يدل على أن صاحبها لا يعرف شيئًا عن السنة، لكنني أحسست أنها كتب أُلقيت إلقاءً ثم كُتبت، وقد أخبرته بهذا، فقال الشاب: ولهذا أرسلتها لك، فإن والدي -الثري وضابط الشرطة القديم- يكتب كيفما اتفق، كلامًا هراءً ويرسله إلى أساتذة جامعيين، وبأمواله لهم يقومون بكتابتها من جديد، ثم تُنشر باسمه، فوالدي لا يستطيع أن يحاور ولا أن يشرح ما في كتبه. قال لي هذا متأسفًا مع أن والده أهدى كتبه كما في المقدمة إلى هذا الولد الخجل من والده الكذاب![18]

لذلك قلت مرة إن من فوائد الفضائيات اليوم أن عرّت لنا الكثير من الأسماء التي كانت تتخفى وراء كتبها المسروقة أو المصنوعة والمنحولة.

من يقرأ كتاب محمد شحرور (القرآن والكتاب) ويراه يعرض نظرية الترادف والتباين في اللغة يظن أن الرجل هو ابن هشام هذا العصر، وحين تسمعه توقن أنك أمام رجل لا يفرِّق بين الألف وكوز الذرة -كما يقول أهلنا في مصر-.

ثم بعد ذلك إن الكتب العميقة هي التي يجلس الناس لدراستها، ويحرص العلماء على كشف علمها وغوامضها ودررها، وإذا كان من فقه العرب أنهم كانوا يسمون الأشياء العظيمة بأسماء متعددة، فكثرة الأسماء تدل على فضل المسمى أو ولعهم به؛ كالسيف والأسد والخمر والمحبة، فكذلك كثرة الشُّراح ومجالس شرحه تدل على فضل الكتاب وقيمته، ولذلك

---

[18] **لم أذكر اسم الكاتب احترامًا لهذا الصديق، فأنا ذكرت قصته فقط لا الكتب، وقد أخبرني أنه لم يُبَع من كتب أبيه إلا أقل من عشرة كتب، ولذلك هو حاقد على محمد شحرور الذي سرق أفكاره وانتشر منفردًا عنه!**

كان من أماني الخطيب البغدادي أن يجلس لقراءة كتابه في بغداد ويسمعه الناس منه –أي كتاب (تاريخ بغداد)– وقد حصل له هذا الفضل.

ولأهمية قراءة الكتب على أهلها أو المتخصصين فإن القراءة الجماعية تفتح آفاقًا للعقل لا يعرفها بالصمت، بل إن الصمت يُنيم العقل كما قال أحد الخلفاء، والحوار والعطاء ينمّيانه؛ ولذلك لا ينمو العلم في شيء كما ينمو بالعطاء، ولقد جربت هذا من نفسي فإن قراءة الكتب على إخواني كانت تفتح عليّ آفاقًا لا أعرفها من نفسي، فكنت أشكر لهم تعلمهم وهو في الحقيقة تعليم لي. بل إن أعظم ما ينتجه الإنسان ينتجه من خلال الحوار؛ سماعًا ومشاركة للكتب. وحين لا يجد المرء مقدمًا في علم فيمكن له مع إخوة على نهمته أن يتفقوا على قراءة كتاب ثم يجتمعون لمناقشته وقراءته جماعيًا والبحث فيه، وسيجد المرء بهذه التجربة ترقيًا لفكره وفكر إخوانه، وأن قراءتهم للكتب الأخرى ستصبح أكثر وعيًا وعمقًا.

كان مما ذُكر عن الشيخ عبد الرزاق عفيفي –رحمه الله تعالى– وقوة إدراكه للكتب أنه كان يُسأل من بعض تلاميذه: أين نجد هذا الكلام؟ –وذلك لكلام يقوله لهم في الدرس–، فيقول لهم: هذا في الكتاب المقرر عليكم، ثم يريهم الموطن، فيتعجبون كيف أدرك هذه المعاني، مع أنهم اشتركوا في نفس النص.

ومن طرق تعميق القراءة هو الكتابة؛ أي كتابة الأبحاث العلمية لا لنشرها كما يسارع البعض إلى ذلك، ولكن للوصول إلى نتائج لك تُشكِّل رؤيتك لقضايا علمية كثيرة وللحياة، وقد تبدو لك بعض القضايا منتهية ومفروغًا منها، فإن درستها وتعمقت فيها قد يتغير رأيك، وإن لم يحدث ذلك فإن رؤيتك تصبح أشمل وأعمق، وستكتشف أن كل بحث أفادك في قضايا أخرى ربما فقهتها على وجهها وربما نشأ حولها أسئلة دفعتك لدراسة أخرى.

في كتابة الأبحاث العلمية تكتشف خبايا الكتب ومواطن المسائل ومذاهب أصحابها، ولكن لأدلك على أفضل طريقة لكتابة الأبحاث من خلال نموذجين أذكرهما الآن:

١- كتاب الشيخ صالح العلي (دفاع عن أبي هريرة)؛ هذا الكتاب عندما قرأته لم يأتِ على ذهني إلا قضية واحدة، وهي أني قلت: "إن لم يكن من فضل لصاحبه إلا أن يأتي يوم القيامة مع أبي هريرة لدفاعه عنه لكفى"، فهو كتاب لا مثيل له في الدفاع أمير المؤمنين في الحديث أبي هريرة، هذا الأمير –علمًا وعملًا– الذي أبغضه الكافرون والزنادقة والمنافقون كان دومًا بوابة خير للدراسة والعلم والبحث، وللدفاع عنه نشأت كتب هي في القلل من العلم ككتاب الدكتور مصطفى سباعي (السنة النبوية ومكانتها في التشريع)، وكتاب الشيخ عبد الرحمن العلي في الرد على محمود أبي رية وكتب أخرى، لكن كتاب الشيخ العلي ليس له مثيل في هذه الحرب الرائعة.

والشيخ العلي هو عينه "محمد أحمد الراشد"[١٩] والذي كتب تحت هذا الاسم مجموعة كتب رائعة في أهدافها وعلومها ك(العوائق) و(المنطلق).

ماذا صنع الشيخ حتى كتب كتابه الرائع (دفاع عن أبي هريرة)؟

قام الشيخ بقراءة كل كتب السنة المطبوعة وقتها، وكل كتب السيرة، وكل كتب الرجال، وكتب الطبقات والتاريخ وحيث وجد ذكرًا لأبي هريرة وما يتصل به أثبته وحفظه.

بهذه الطريقة العلمية العميقة كتب كتابه، فلم يعتمد على فهرست أو على إحالة، بل قرأ الكتب قراءة كاملة، فأفاد نفسه والآخرين.

وقطعًا أن نهاية الرحلة لم تكن فقط هذا الكتاب الرائع بل حصيلة علمية استقرّت لديه، رفعت شأنه وعلمه ونفسه.

وبمثل هذه الطريقة كتب ناصر الدين الأسد كتابه (مصادر الشعر الجاهلي) وقد أتى بالعجائب.

٢- قصة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني مع الورقة الضائعة، حيث فقد ورقة من مخطوط كان ينظر فيه وهو مقيم في المكتبة الظاهرية في دمشق، وقام بالبحث عنها بين طيات المخطوطات الكثيرة، وخلال بحثه قام بقراءة المخطوطات والنظر فيها، ثم جعل يُثبِت كل حديث مسند في هذه المخطوطات.

النتيجة حصيلة من الخير جعلت كتب الشيخ أهم المصنفات الحديثة لمواطن الحديث النبوي المسندة، إذ لا يوجد للسلسلة الصحيحة والضعيفة شبيهة في الدلالة على موطن الحديث من المصادر الأصلية بعد كتب السيوطي والسخاوي، ومن نظر فيها علم مقدار قراءة الشيخ وبحثه وجهده في المخطوطات.

رحم الله الشيخ ناصر فإنه رجل كتاب بحق، عاش معه وله وأعطاه كل عمره، ولا ينكر فضله على نشر السنة والحديث إلا كل جاهل لا يعرف قيمة الرجال.

هناك الكثير من الباحثين دخلوا في دراسة بعض المسائل وفي أذهانهم تقرير شيء، وبالدراسة خرجوا بنتائج أخرى، مثل الشيخ إحسان إلهي ظهير في دراسته عن التصوف -والتي صدرت في مجلدين-؛ فإنه ذكر في أول الكتاب أنه بدأ دراسة التصوف وهو يظن أن التصوف مذاهب ودرجات في البدعة، ثم تبين له أن التصوف مذهب واحد، وهي نفس النتيجة

---

[١٩] لم أذكر هذا إلا بعد أن انتشر هذا الأمر، وإلا فالواجب احترام إرادته، فإنه ولا بد كان له مقصد في إخفاء اسمه.

التي خرج بها محمود عبد الرؤوف القاسم في كتابه (الكشف عن حقيقة التصوف)، وكُتب الشيخ إحسان –رحمه الله تعالى– تدل على قراءة شمولية طويلة.

وهذا كثير منتشر.

وهناك نوع آخر من الأبحاث غير دراسة المواضيع العلمية العامة وإنما دراسة شخصيات أو كتب، وبها ستخرج بكمية هائلة من القراءة الناقدة، فالشيخ بكر أبو زيد خرج بفوائد جمّة وهو يقرأ لابن القيم –وإن كان اقتصر على فهرست كتبه في النشر– ولكن لا بد خرج لنفسه وعقله بفوائد لا تحصى. وبكر هذا –كما قال لي سعد الحصين– شيء عجيب في القراءة، حتى إنه لا يكاد يُعرف له أي نشاط اجتماعي لتفرّغه للكتاب، وذكر لي أنه صلى معه يريد محادثته، فما إن انقضت الصلاة حتى بحث عنه فرآه مسرعًا خارجًا.

وكتبه تدل على هذا؛ وفي كتابه الرد على الشيخ عبد الفتاح أبي غدّة في موضوع العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج، ذكر أنه قرأ (الإصابة في معرفة الصحابة) عدة مرات –لا أذكر الآن عددها–.

والشيخ عبد الفتاح أبو غدة فنّان بحق في إخراج الكتب، فما أن يضع يده في كتاب حتى يجعله خَلقًا آخر، بإضافة التعليقات العلمية وزيادة الأبحاث، والتي ربما خالفتُها لكن نعترف لصاحبها بالقراءة. والرجل له عين حاذقة فيما يعلق من الكتب فيبرزها، ثم إنه يعتني اعتناءً زائدًا في الطباعة وإخراجها، ولم أعرف إلا بعد وفاته أن الدار التي تطبع كتبه هي دار خاصة له، ومما يريحك في تعليقاته أنك لا تحس تبجُّحًا كما ترى من غيره من الصغار، والرجل لا أعلم له مثيلًا اليوم في هذا الفن، مع أن الكثير يجري.

ومما يؤسف له اليوم أن بعض الجهلة يأخذون هذه الفوائد من قرّاء ويضيفون عليها بعض اللمسات المزينة وينشرونها بأسمائهم لشهرتها، موهمين القراء أنها لهم، وهي لآخرين ممن لا يُعرف لهم اسم بين الناس، والناشرون لسُعارهم المادي يشجعون على هذا النشر لهذه الكتب بأسماء المشهورين، ولأن الكثير من القراء يقتنون الكتب لهذه الأسماء حتى لو كانت حجرًا لا قيمة له.

ولقد رأيت من يطلب من بعض النَّهمين الشباب في القراء أن يقرأ له مجلدات ويستخرج منها فوائد يريدها لينشرها باسمه، وهذا سيء في الناس؛ فكيف وهو ينتشر بين من يُنسب للعلم وأهله!!

أصلح الله الحال وهدى الضّال.

ومن قرأ كتب أهل العلم القدماء يتبيَّن أنهم كانوا يُقوّون علمهم ونظرهم بهذه الطريقة –أي كتابة الأبحاث–؛ فإن المرء الناقد لا يخطئ أبدًا أن (ملخص المستدرك) للإمام الذهبي لا يعدو أن يكون تجربة للإمام للتمرين على نقد الأحاديث والتعليق عليها.

فالقصد أن كتابة الأبحاث والدراسات العلمية والرصينة تقوّي لدى المرء القراءة الناقدة وتجعله أكثر اهتمامًا بالنصوص والبحث فيها، لكن هذا لا يدل على أن كل من كتب بحثًا أو كتابًا فهو من أهل "القراءة الناقدة"، فالكثير يسرق من هاهنا ويضع هاهنا ويقول ألَّفته أنا! وخاصة هذه الأيام التي صار سهلًا الحصول على المراد، وكثرته في آلات النشر الحديثة. ونحن هاهنا نتكلم عن صناعة القارئ لا الكاتب، وإن كان القارئ الجيد لا بد أن يجد نزوعًا للكتابة ولكن قد يقهرها فتموت عنده بعد مدة، فالمطلوب استغلال هذه النَّزعة من أجل تنمية قراءاته ومعارفه وعلومه.

القراءة طريق طويل لا ينتهي، وهناك بعض الكُتّاب يظهر من كتبهم أن قراءاتهم قد توقفت، فاهتماماتهم قديمة ولا جديد لهم حول القضايا الحادثة والجديدة، بل ولا مراجعة لهم لأهل التأثير هذه الأيام، فهل بقي مكان اليوم ليُكتب عن طه حسين أو العقاد أو لويس عوض؟! أو هل بقي مكان اليوم ليُكتب عن الحزب القومي السوري؟!

إني أعتقد –وهذا رأي قد يُخطئ– أن قضايا معاصرة كبيرة تحتاج اليوم للكتابة حولها وخاصة من قِبل أهل الإسلام، فكم كُتب اليوم عن البُنيوية والحداثة وما بعد الحداثة من وجهة نظر إسلامية أو من وجهة نظر أدباء إسلاميين؟ مع أنه قد كُتب عنها الكثير اليوم من قِبل أهلها وخصومها من غير الإسلاميين، من هنا أعتقد أن المفكرين الإسلاميين اليوم متخلفون عن الفعل الإسلامي –كما كتبت هذا بتوسع في (لماذا انتصرنا؟)–، وقد مضى زمن الفكر الإسلامي الراقي كما كتبه مالك بن نبي وأبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي وسيد قطب ومصطفى صادق الرافعي، وما كتبه غازي التوبة قديمًا، –والحقيقة هو كتاب واحد وهو كتاب (الفكر الإسلامي المعاصر)، وأما كتبه الأخرى فتدل على عدم عناية بالتجديد وكذلك عدم التعمق–. أما بعض ما يُكتب اليوم من قِبل المفكرين المسلمين فهو على غِرار "أبو اعرفوني"، وإني لحزين أن أقول هذا الكلام، ولكن ماذا أقول والكل يرى هذا التخلف!

فهل كُتب إسلاميًا في العولمة الاقتصادية ممثل (نذر العولمة) ليحيى عبد الحي زلوم؟! وهل كتب إسلاميًا في البنيوية مثل (المرايا المحدبة) لعبد العزيز حمودة؟! –وله (المرايا المقعرة) ولم أقرأه، لكن (المرايا المحدبة) رائعة من الروائع وفيه شجاعة محمودة أمام طوفان الشذوذ–.

ليتذكر مشايخنا ومفكرونا وأساتذتنا أن الكتابة الجيدة تصنع القارئ الجيد وتُرغِّب الهارب_في القراءة، وإنّ بعض مَنْ يكتب منّا ما لو وُجد محتسِب لحجر عليه، ولكن ماذا نفعل حين يكون من أصحاب الأيدي الطويلة، وهو لوحده له مجلة لم تمُت لبركة النفط، وليس من شغل فيها إلا أن يُصدّع رؤوس قرّائه بقوله: حذّرنا وقلنا ونبهنا وهذا رأي قلناه من قبل حتى في بيان نَعي لعالِم يكون كلامه عن قصته هو لا حياة العالم –إي والله– فإنه لا بد أن يبتدئ بقوله: "كنتُ.." أي لا بد من "أنا"، مع أنه لا يدري –وهو المسكين في باب العلم والذاكرة– أنه يقول القول ويقول بضده، وقد يُعذر لأنه لا يسمح لأحد بتذكيره أو تنبيهه، وإلا لذاق الأمرَّين.

إن الفكر الإسلامي يعاني قزميَّة خطيرة أمام الفعل العظيم تعيشه الأمة في صراعها مع الأعداء، لقد شكى بعض الكاتبين من قلة ما يُكتب عنهم نقدًا، وأقصد في الوسط الإسلامي، ومن هؤلاء الدكتور عماد الدين خليل، وهذا الدكتور كتبه روائع نافعة سواء كانت في التاريخ أو الأدب، ولكن أقول له: يا دكتور، وسطنا الإسلامي يعُدُّ الكتابة عن الآخرين شهرة لهم، ووسطنا يعاني أمراض الشيوخ التي وصفها ابن عباس وجعل رأسها الحسد، فكيف يتفرّغ أحد ليكتب عن الآخر وهو مشغول في تقديم نفسه وتضخيم كلامه تورمًا؟!

والجماعات الإسلامية التي كانت في بدايتها وسطًا لإنتاج الفكر والمفكرين عادت عليها عوادي السُّنن فحولتها إلى مجرد شركات يُديرها ويهتم بها ويقتات منها مجرد موظفين لا أكثر ولا أقل، تسوقهم معيارية قيم السوق السياسية والاجتماعية دون أي اهتمام بالفكر وأدواته، مع سُعار التنافس والإقصاء دون قيم التكافل والتعاون، فهل يمكن لتنظيم مخالف أن يمدح ولو بإنصاف ما كتبه تقي الدين النبهاني؟ أو يمدح تنظيمُ هذا الرجل شيئًا كتبه أبو الأعلى المودودي؟!

وما يوجد من تيارات فكرية ليس لها جماعات هي كذلك تعيش نفس المرض، بل ربما أشد، ولا تقرأ لهم إلا: "اقرؤوا لفلان، احذروا فلان، احرقوا كتب المبتدع.."، هياج منفلت من أي قيمة عقلية أو دينية حتى وصل بهم التأبّد أن حرقوا كتب تراث هي عيون الأمة التي تبصر بها، ولو كانت في غيرنا لجعلوها حنانًا مثل كتب ابن الجوزي وابن حجر والنووي.

إنها طفولة مشوهة مريضة ليس لها من همّ إلا تحطيم البناء وهدمه، وفي النهاية عادوا على أنفسهم ضربًا بالعصي، فما أصبحوا إلا كهشيم المحتضر!

أقول هذا الكلام في معرِض تقوية وتعميق القراءة من خلال كتابة الأبحاث الجادة، وأخاف أن يفهم بعض القرّاء أن هذه دعوة لأن يكتبوا كما يكتب البعض فينا، والأرض بحق ليست بحاجة لصحارى جديدة بل فيها ما يكفي وزيادة. فاللهم رحمتك.

كلام مرسل عن وسائل القراءة الجديدة

للقراءة تاريخ طويل يتعلق بأدواتها، وصناعة الحرف مرّت عليه أطوار وأطوار حتى يحقّق أهدافه في سهولة ويسر، وذلك بأن تشيع المعرفة وتقل عوارضها، وآلات اللغة تطورت كما تتطور اللغات لكن ليس شرطًا أن تتطور اللغات إلى الأفضل وذلك بخلاف تطور الآلات، فإنه ثبت على مدار التاريخ أن أدوات اللغة وآلات المعرفة تتقدم إلى الأفضل؛ لأن الآلة صناعة يدوية وليست قيمية، فهي معرفة تراكمية وإنسانية يؤمن بها الجميع، تخضع لقوله تعالى: {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}.

ربما شاع في العصر الجاهلي قبل الإسلام وجود منافسة بين المعرفة والكتابة، حيث وردت بعض الروايات عن بعضهم وجود أنفة من أن يُعرف عنه الكتابة لأن في ذلك اتهامًا لذاكرته، كما ورد أن الأعمش صحح لراوية شعره حرفًا كتبه، فقال له راويته: أو تكتب؟! فقال له الأعمش: "استرها، استرها". وسواء صحَّت هذه العقلية أم أنها غير مطردة؛ فإن زمنهم وما فيه من ضعف وسائل الكتب فيه الكفاية ألا ينتشر هذا العلم ويجعل غالبه مكتفيًا بالرواية والمشافهة.

لقد تطورت الكتابة ولا شك تطورًا تصاعديًا، فما نحن في اليوم خير ألف مرة من أي زمن مضى في هذا الباب، وإن بعض المحبين لكل ما هو قديم لمخطئون حين لا يعترفون أن السيارة خير ألف مرة من الفرس والبعير، مع أني أظن أنه لا غنى للناس عنهما.

من يستطيع القول اليوم إن مخطوطات الأمس هي أفضل من هذه الكتب المطبوعة اليوم بخطوطها الواضحة، وبترقيمها الجيد، وبتنسيقها الرائع، وبتبويبها السهل، وبفهرستها العلمية؟!

لما رأى الشيخ محمد رشيد رضا (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف) فرح به فرحًا شديدًا وقال: "لو كان منذ زمن بأيدينا لوفر علينا كثيرًا من الأوقات"، فكيف لو رأى الشيخ الأقراص الكمبيوترية التي خرجت هذه الأيام ماذا سيقول؟!

إنه تطور ممدوح لأنه يعين ويسهل ويشيع العلم والمعرفة، لكن إن وُضع موضعه الصحيح. الكمبيوتر اليوم جزء من الحياة، وهو مثل الثقوب السوداء في الفضاء، هذه الثقوب الصغيرة والصغيرة جدًا، لكنها حاوية على قوة جذب عالية القوة، فما إن يمر بها نجم أو كوكب حتى يذهب إلى جوفها، وهكذا هذا الجهاز العجيب، كل يوم يصغر ومع ذلك لا يكفُّ عن الابتلاع؛ فقد ابتلع الكتاب وآلات الطباعة والتلفاز والهاتف والمسجل والألعاب والراديو وآلات التصوير ومجالس المحادثة

وآلات الموسيقى والآلة الحاسبة وأدوات الرسم ووسائل البريد وعقود البيع والشراء وغيرها، وقدرات أخرى خاصة به وعجيبة، ولا يدري الناس أين ستنتهي هذه القدرات، ولذلك ليس عجيبًا أن يكون الأمّي اليوم هو من لا يعرف التعامل مع الكومبيوتر، فهو آلة الآلات ومفتاح الحياة بكل معارفها، صار يختزن في داخله ذاكرة التاريخ وعلوم الإنسان، يصل إليها المريد بأيسر الطرق وأسرع الأوقات.

مثل هذه الأدوات يكون الفضل فيها لطرفين: المكتشف لها ثم المستفيد منها، والمستفيد منها قد يكون حاله كحال القزم الذي وقف فوق عنق العملاق فطال ما لم يطله العملاق نفسه، وللأسف أن أمتنا لم تدرك إحدى الفضيلتين بعد، وهذه هي مظاهر الضعف وعوارضه، وكما أن الأمة الضعيفة لا تستفيد من عوامل القوة فيها؛ فإن استفادتها لمقومات القوة الحادثة ستكون كذلك، ولن يملّ المرء إعادةً وتذكيرًا في كل موطن أن أساس الداء ومظهره هي الدولة والإرادة السياسية في هذه الأمة، والعلاقة بين هذه الأمة وهذه القيادة كعلاقة القلب والشرايين، فكلاهما يمد الآخر بما عنده من ضعف أو قوة، فالقلب يضعف بضعف الشرايين ومرضها، والعكس صحيح كذلك، لكن القلب هو القائد والنابض، وما نراه اليوم من عوامل قوة علمية وعملية تسري في الأمة إنما هو لمقاومة هذه الأمة لعوامل الزمن العادية وضلال الإدارة الفاسدة، فالدولة اليوم ليست حيادية –وليست هي كذلك في أي طور من أطوار التاريخ- بل هي عامل عدم وقويض لسعي الأمة نحو قوتها وشفائها.

كل ما نراه اليوم من استغلال لأدوات العلم ونشاط العلم ونشر العلم إنما هو في جوهره مقاوم لانحياز الدولة إلى خيار الجهل والمرض، تقوم به جهود فردية مخلصة لتراثها وأمانة العلم ومؤسسات أهلية يرعاها مخلصون وأصحاب همة وعزيمة، وبعض المؤسسات التجارية التي تجمع بين همّ العلم والمال، وقد تحقق من هذه الجهود أمور طيبة حسنة فيها النفع للعلم وأهله، فجزاهم الله خير الجزاء.

ومما يقال بافتخار وعزة أن شباب الإسلام هم الأكثر استغلالًا لهذه الأدوات الجديدة في العالم الإسلامي، وهذا ما يُخيف الخصوم ويخنقهم ويحبس عليهم منافذ النفس فيصرخون حقدًا وحسدًا.

بجهود شخصية وقدرات ضعيفة وُضعت الكثير من الكتب الإسلامية على الأقراص الكمبيوترية فصارت سهلة المنال وبأسعار لا تكاد تُذكر.

وبهذه الجهود فُتحت المواقع العلمية والدعوية وصارت موطنًا لكسر حصار الكلمة الحق والدعوة، وحصل منها الخير العظيم، ومن عجائب زماننا أن هذا الضعف المادي الملتصق بثقل الحق هو الذي يصارع الطاقات المادية الهائلة الداعمة لخواء الباطل وخرابه، وإن في ذلك لآية أنّ الحق منصور ولن تُطفأ شعلته.

وحين يُكتب تاريخ الجهاد المعاصر وأحداثه سيكون هناك صفحة مجيدة وزاهرة لهذه المواقع العلمية والدعوية والحوارية، حيث جاهد فيها أهلها جهادًا مشكورًا وبعضهم ابتلي في سبيل ذلك كما يبتلى كل مجاهد في سبيل الله تعالى.

ومن أدوات المعرفة اليوم الفيلم وأشباهه، وهذا ما زال بعيدًا في استغلاله كما ينبغي مع سيطرة أهل الجهالة عليه، وإن كان هناك لمحات —مجرد لمحات– تبرق هنا أو هناك بالنور، ومما يُحمد هذه الأيام أن الهمَّ الإسلامي والفعل الإسلامي والرسالة الإسلامية تصل وتؤثر من خلال وسائل الإعلام التي ربما فتحت بؤرًا لهذه الأعمال بغض النظر عن مقصد أصحابها، وأما وجود منفذ إسلامي لهذه الأدوات فلم يقع إلى الآن.

ولعله من التنبيه اللازم أن معظم رجال الصحوة الأوائل كان لهم اهتمام عظيم بالصحافة وأدواتها، وكانت شغلهم الشاغل، كالشيخ رشيد رضا صاحب (المنار) وأبي الأعلى المودودي وسيد قطب وحسن البنا الذي استلم المنار بعد رضا، وكذا كبار الأدباء كالزيات صاحب (الرسالة) وهي ذاكرة الأدب العربي وهمومه الفكرية في فترتها، والشيخ البرقوقي شارح (ديوان المتنبي)، وهو والد زوجة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، ويحيى حقي ومحمود شاكر ويوسف العظم وتقي الدين الهلالي، كل هؤلاء وغيرهم عملوا في الصحافة وتفرغوا لها حينًا من أزمانهم، وهذا يدل على سرعة إدراك الرعيل الأول للأداة الجديدة والاهتمام بها، بخلاف من بعدهم ممن لا يتحركون إلا إذا حركهم الشباب والفتيان.

إن العالم اليوم لن يفلت من هذه الأداة التي استغلت كل وسائل الاتصال الجديدة، ولذلك عدّ بعض كبار الباحثين أن العولمة اليوم تتمثل في المال والاتصال كما يقول زلوم في (نذر العولمة)، وإن كان هذا الأمر يشكل ثقلًا جديدًا على الإنسان ليس لكونه أداة ينتفع بها ولكن لما يترتب عليه من آثار اجتماعية وإنسانية متعددة، وكتاب (فخ العولمة) لصحفيين ألمانيين فيه الكفاية لبيان ذلك وشرحه شرحًا موسعًا، وقد بدأت بعض الآثار سريعًا في الظهور كالعلاقات الشاذة القائمة على التغرير والكذب، وقد عُلقت صورة تمثل غرابة هذه الآثار وهي صورة لكلب يجلس خلف الكومبيوتر يتحدث مع آخرين وهم لا يعرفون أنهم يحادثون كلبًا!

فهذه الوسائل كسرت العوازل الحياتية والخصوصيات الإنسانية ولم يعد الأجنبي مجرد متكلم في المذياع أو التلفاز، لكنه صار يجلس معك ويحادثك وتحادثه، تراه ويراك، وإذا كان الناس قد شكوا أن التلفاز ومن قبله الراديو قد قضيا على كثير من

العادات الاجتماعية والإنسانية الحسنة من التفرغ للضيوف والزيارات وغيرها، فإن هذه الأداة زادت هذا الأمر سوءً، هذا في بعض مظاهرها السيئة أما الحسنة فكثيرة جدًا وعظيمة جدًا.

البعض يحاول المنع المطلق بحجة الفساد، لكن عجلة الحياة وحاجة الناس ورغباتهم واهتماماتهم لن تأبه لهذا المنع ولن تلتفت إليه، وستكون هذه الدعوات في بعض الأحيان مثيرة للشفقة أو السخرية، فالمطلوب هو الرعاية والترشيد ككل قضايا الحياة.

يجب إفهام أطفالنا وعائلاتنا وإخواننا أن هذه الأدوات أخطر من كونها متعة لإهلاك الوقت كما يفعل الكثير من البطّالين والجهلة، ويجب إحرازهم من شياطين هذه الأدوات ومزالق الفساد فيها، كما يجب أن يفهموا أنها أداة جعلتهم أسعد من غيرهم في الوصول إلى العلم والمعرفة.

ومما هو مهم أن الأدوات لا تلغي بعضها بل تعين بعضها، فلم يستغنِ الناس عن الكتاب وروعته أمام الشريط والمسجل، لكن صار الشريط أداة جديدة تُعين وتحفظ وتقدِّم وتسهِّل، وهكذا هذه الأدوات الجديدة فإنها رائعة بحق ونفعها لا ينكره عاقل، لكن يبقى للكتاب سحره وروعته، وتبقى الحاجة إليه قائمة.

ومما ينبغي فهمه عند بعض محبي الكتاب بصورته المعروفة -والتي كانت ستبقى ما بقيت الأرض- أنّ الأدوات الحديثة والتعامل معها لا يعني موت القراءة وضعف الكتاب، ويجب علينا ألا نعلّق الهروب من الكتاب على هذه الأدوات الحديثة، فالحقيقة أن القراءة تعاني ضعفًا قبل هذه الأدوات، وها هي الدول التي ينتشر فيه الكتاب-بغض النظر عن نوعه وقيمته- هي الأكثر استخدامًا لهذه الأدوات كذلك، فالقراءة لا ينافسها أدواتها بل ينافسها الجهل وأعداؤها، وينافسها قيم التعليم البالية في بلادنا -كما تقدم في فصل "أعداء القراءة"-، ولو كان هناك أداة ترشد العقل وتهتم بالتربية والتعليم كما يزعمون لكانت هذه الأدوات في واقعها عاملًا مستفزًا ودافعًا للقراءة.

عندما يطلع الطفل على الفيلم (رحلة سلام) مثلًا فيمكن -وقد حدث- أن يسأل والده عن القصة وأين وردت، فيقدم له أبواه القصة من موردها التاريخي، وهكذا فيلم (محمد الفاتح) وغيرها. ولا أكتم أن بعض الآباء كان يطلب مني كتابة ما ورد في التاريخ وكتب عن قصص رأوها في برامج ثقافية وغيرها.

وعلينا ألا ننكر أن طفل اليوم يسمع بأمور كان "المثقف" هو من يستأثر بها، وإنما علمها الطفل من خلال هذه البرامج.

فالمطلوب هو أن نوجه لا أن نلغي، وأن نجعل هذا الجديد رافدًا لغريزة القراءة وحب الاستطلاع والعلم.

القراءة لا تموت بأي رافد جديد للعلم والمعرفة ولا تضعف بمنافسة مصادر المعرفة الأخرى، بل تصبح أكثر وعيًا بشرط وضع كل شيء في سياقه الصحيح.

إن مما ذكره رسول الله ﷺ من علامات الساعة انتشار الجهل والقلم، وهذا عجيب! فكيف تنتشر الأداة ومعها ضدها لا فوائدها ولازمها، وواقعنا أعظم دليل على هذا الأمر؛ فإن أدوات العلم صارت مبذولة مطروحة لكل أحد، ويستخدمها الكثيرون، ومع ذلك فإن العلم يقل ويذوي ويتراجع؛ لأن:

- كثيرًا من هذه الأدوات تُستخدم لغير هدفها، بل لضدها، فينتشر بسببها الفساد وتضيع معها الأوقات فتصبح الأداة سلبية العمل تهدم ولا تبني.

- كثيرًا من الناس بسبب هذا الشيوع لا يقيمون شأنًا للقراءة وتنمية العقل والذاكرة، لاعتقادهم إمكانية سرعة الوصول للهدف، فلِمَ إذًا إضاعة الوقت في الحفظ والمذاكرة وتنمية العقل وإعمار الباطن بالعلم؟! فلا ضرورة لحفظ القرآن، فهل نحن بحاجة لنسخة جديدة منه —كما يقول البعض-؟! حتى إن الإمام يمكن أن يقوم بالناس ويؤم بهم دون الحاجة لحفظ القرآن، إذ يمكن وضع القرآن في الجيب "لصغر حجم الطباعة" ثم إخراجه متى أراد القراءة، بل إنهم اليوم يضعون أمامهم شاشة كمبيوترية وتقلب صفحاتها عن طريق زر في اليد مربوط بها، وهكذا يقال في الحديث الشريف، فلا حفظ ولا فقه ولا نظر، فإنه بلحظة واحدة يمكن لك أن تصل لمواطن منه لم يكن يصل إليها السابقون الأفذاذ إلا بشِقّ الأنفس.

فقلّ فقه الباطن وخوى بسبب انتشار أدوات العلم كما نرى، حتى صرنا نسمع من يستهزئ بأهل العلم وعدم الحاجة لهم لقيام الكمبيوتر بدورهم، والمسألة لا تعدو أن نضع عمامة فوق الكمبيوتر ثم نسأله ما نحتاجه فيعطينا الجواب، كما يزعم هؤلاء!

فلم يفهم الكثيرون أن هذه الأدوات إنما وُجدت لإعانة الإنسان على تحصيل العلم، ومكان العلم هو الصدور، كما قال تعالى: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}، وكما قال تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ}، فمقصود العلم هو أن يحل في الصدور ليحصل به النور والهداية، وكما قال بعض السلف: "العلم ما حواه الصدر لا ما حواه القِمَطْر".

فعدم الاستعانة بهذه الأدوات لتحصيل العلم ووضعها في غير موضعها نشر الجهل ولم يقضِ عليه.

- الاستعانةَ بهذه الأدوات بطريقة غير صحيحة يوصل إلى نتائج مغايرة لهدفها؛ فإن هذه الأدوات الجديدة قدّمت فائدة عظيمة في باب التبويب والفهرسة، فصار البعض إن أراد كلمة بحث عنها دون سواها في آلاف المجلدات والكتب، ولا يهتم بسياقها ولا سباقها ولا قضية الكتاب ولا منهج مؤلفه...، إلى غير ذلك من ضروريات معرفة مراد المؤلف، فيأخذها الباحث ليضعها في غير سياقها فيحصل الضدّ، وهذا جهل ولا شك، وهذه المسألة سنأتي عليها في "مقاصد المؤلفين ومفاتيح الكتب" بتوسع إن شاء الله تعالى.

إن الأشياء لا تُحقق مقاصدها إلا إذا استُخدمت على وجهها الصحيح وعُرفت مجالاتها دون تعدية، وإلا كان ضررها أكثر من نفعها، وعالمنا اليوم عالم سريع الوقع كثير المفاجآت، ومما لا يمكن أن نقبل تطوره هو مفهوم العلم، ولا مقاصده؛ فإنهما من العبادة النُّسكية والتي يقول النبي ﷺ فيها: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد)؛ فما لم يكن دينًا عند الأولين فلن يكون دينًا في أي وقت من الأوقات، وأما أدوات هذا العلم فهي وسائل يُنعم الله بها على البشر، والسعيد من استعان بها على تحقيق عبوديته لله تعالى. ولنتذكر دائمًا أن المشقة في العبادات ليست مقصودة لذاتها كما يعتقد البعض، وقد ذكر هذا المعنى كبار أهل العلم كالعز بن عبد السلام في (قواعد الأحكام)، ونقله ابن القيم عن شيخه في مواطن، ومن ظن أن الآيات والأحاديث الداعية إلى الصبر على طاعة الله تعالى كقوله تعالى: {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ} تعني البحث عن المشقة ليحصل الأجر فهو مخطئ في الفهم؛ فهذه لا تعني أبدًا اختيار المشقة مقابل اليسر حين تكون البدائل، فقد قال ﷺ: (يسروا ولا تعسروا).

هذه الأدوات الجديدة تنفع القارئ في بابين:

١- أن يجعلها كالكتاب؛ يفتح الكتاب من أوله، ويقرأ فيه كما يقرأ في الكتاب، هذا إن قدر على ذلك وصبر عليه، والذي أعلمه من نفسي ومن كثيرين أن هذه طريقة صعبة فأغلبنا يطبع المراد في ورقات، فعاد أمرنا إلى ما اعتدنا عليه، وهذا أمر يعود للقارئ وعادته وقدراته.

٢- أن يستعين بها كالفهارس في أبوابها الخاصة؛ أي في أبواب الفهارس لا ما تقدم من أن تكون هذه طريقة القراءة الجديدة للمحترزات التي تقدمت، والمرء لا يستغني عن الفهارس، وفي مرات متعددة يحتاج ليقلب آلاف الورقات وقد لا يجدها، وهذا اليوم صار سهلًا ميسورًا، تصل إلى مبتغاك بسرعة.

وأهل العلم بحاجة إلى ذلك، فقد كنت في وقت من الأوقات أعجب لمن أعلم فقرهم في العلم كيف يستحضرون في كتاباتهم النصوص الكثيرة في وقت يسير، مع أن آخرين لا يقدرون على هذا في هذه المدة الزمنية، حتى عرفت استعانتهم

بهذه الأدوات الجديدة، لكن كنت أحزن أن هذا يوقعهم في طامات ومصائب، منها: وضع الكلام في غير موضعه، وفهمه على غير وجهه؛ لأنهم ليسوا من أهل العلم، أو ينسبون للعالم ما لم يقله، إذ قد يكون قد أورد النص للرد عليه أو لمجرد عرضه فقط، فأخذه هذا الباحث دون معرفة وشمول فهم، ومن أَوَابِد ما يقع به هؤلاء هو الغرور، حيث ظنوا أن هذا يُدخلهم في زمرة العلماء والفقهاء، فهاهم يوردون كلامهم ويعرفون مواطنه ويستحضرونه أكثر من العلماء أنفسهم، فأي فضل سبقوا إليه؟! ولم يدروا أن عملهم هذا هو عمل فني له علاقة بالأداة وليس بالعلم نفسه، كما يفعل الطابع الراقم على الآلة الكاتبة، أو كما يفعل عامل صفّ الحروف في أدوات الطباعة القديمة، وهؤلاء وإن كتبوا العلم لكن لا أحد يعُدُّهم من أهل العلم، وإلا لعُدَّ صانع حذوة الفرس فارسًا!

وهذا ينطبق اليوم على من يُقال لهم محققو الكتب ولا فرق؛ إذ تحول التحقيق إلى عمل فني يمكن أن يقوم به أجهل الناس، لكنه متقن لفن استخراج النصوص من مواطنها ليستكثر من الهوامش.

والمعركة بين الجهل والعلم لا تكون فقط في تحصيل المساحات في عقول الناس وقلوبهم ولكن كذلك في تجلية المفاهيم، فلا يسمى الجهل علمًا ولا العكس كذلك؛ فإن هذا من أبواب المعارك المهمة، وهو بيان حقيقة المصطلحات، كل المصطلحات، كالجهاد الذي يسميه الناس إرهابًا وتطرفًا، والكفر الذي يسميه الناس حرية فكر... وهكذا، هذه المعركة ليست جديدة بل قديمة قِدم الإنسان، فسرقة الشعارات والمصطلحات فن إبليس الأول؛ حيث سمى شجرة المعصية "شجرة الخلد والملك الذي لا يبلى".

إن الحقائق والفضائل لها ساحتان من المعارك: ساحة إثباتها ضد أضداها؛ أي نشرها وتعميمها، وساحة تخليصها من أضداها الفاسدة.

وتبقى المعركة ما بقيت الأرض.

بقيت مسألة مهمة؛ وهي قضية ما يسمى "**حق الابتكار**"، وهي مسألة جديدة لم يعرفها الأوائل في باب العلم ونشره، كحقوق الطبع؛ طباعة الكتب وحقوق الإصدار، فهذه مسألة تمنيت من كل قلبي ألا يختلف العلماء فيها لوضوح الحق فيها؛ إذ أنها مسألة صناعة، فيها جهود ومشقة وإنفاق أوقات وأموال، ثم يأتي جالس على الطريق بطّال ليأخذ ذلك كله! وليته يجنيه دون ضرر، بل يدمر جهود الآخرين كذلك، فإنها لو لم تحرّم لأن فيها أكلًا لمال وحقوق الآخرين، فإنها تحرم للضرر العظيم العائد على أناس يستحقون كل دعم وتأييد.

لقد شهدتُ كتبًا تُسرق طباعتها وتُباع في الأسواق بأقل قيمة من قيمة كلفتها على طابعها الأول؛ إذ دفع حقوق المؤلف وتكلفة الصف والمراجعة وإخراجها بصورة جيدة قد تكون مشروطة من قِبل المؤلف أو من قبيل حرصه ككتبي عليه، ثم يأتي أحدهم ويصورها فقط ويدفعها للأسواق لتباع بربح عالٍ له ولكن بسعر أقل من التكلفة التي تكلفها الطابع الأصلي؛ فهل مثل هذه المسألة تشتبه على عالم ليفتي فيها بغير الحرمة؟!

من أفتى بالجواز لم يلتفت لواقع المسألة، إنما نظر أن العلم لا يُباع، وها هي كتب أهل العلم القدماء تُبذل من غير حقوق لأهلها، فما الذي تغير؟ والحق أن الكثير قد تغير، والفتوى كما هو مقرر تتغير بتغير الموجبات كما هو معلوم.

الأقراص الكمبيوترية كالكتب كذلك، بل قد يوجد فيها مشقة زائدة؛ فإنه من الجرائم الشرعية أن تُنسخ وتؤكل حقوق المسلمين بل وندمر هذه المؤسسات الرائدة والتي لها الفضل العظيم في هذا الباب، والتي أغلبها قامت على جهود شخصية شحيحة الموارد، وبهذا الفعل ينصرف هؤلاء العاملون عن المتابعة اللازمة لهذه الأمور.

والحق لو أنصفنا لدعمنا أكثر مما يُطلب منا لا أن نأكل حقهم الثابت.

إني أعتقد أن الخلاف في هذه المسألة خلاف غير معتبر، ولو لم يُحكَ عند إجابة طالب العلم على السؤال لكان أفضل، ولا يقال: "بل اختلف فيها الكبار اليوم"، فالحق أن من قال بجواز نسخ الكتب دون حقوقها لا يعرف حقيقتها، وليس هذا بشيء جديد على الفرسان حين تكبو.

خدع القراءة

هل القراءة كالحياء لا تأتي إلا بخير –كما قال عنه النبي ﷺ–؟ أم أنها تنطوي على ما ينبغي الحذر منه؟!

ما دامت القراءة قابلًا وفاعلًا –أي مشاركة ومفاعلة–؛ فلا بدّ في أحيان من عدم وقوع الحافر على الحافر، وحينها قد يقع الانزلاق، كما يقع في البصر من مشكلات كقِصره وطوله وحَوله، وهذه الأمراض لم تكن سببًا في يوم من الأيام بأن تجعل طبيبًا يحذر الإنسان المصاب من النظر، فالمطلوب هو وضع الإشارات والتنبيهات لا إيقاف الحركة أو إضعافها، والقارئ بعد رحلة طويلة من القراءة سيكتشف عِللًا لديه من بعض القراءات لا تتعلق بالفكر فقط ولكن في نفسه أو في حكمه على الكتب أو الأحداث، وهذه العلل (الخدع) لا تنتهي، وسأحاول ذكر بعضها نصحًا لصاحب الهمة، وسيرى أن ما سيُذكر هنا من خِدع لا ينتظمها سبب واحد هو "فعل القراءة"، لكن أجواؤها كذلك، وأما أسبابها فمتعددة منها ما تعود لنفسية القارئ أو لنوعية أو لنوع الكتاب أو لأسباب أخرى خارجة عن القارئ والكتاب.

كان مما ذكره ميخائيل نعيمة في كتابه عن جبران خليل جبران، وكتاب ميخائيل عن جبران صنع ضجة عند محبي جبران؛ لأن ميخائيل كتب عن حقيقة جبران، عن حياته، مشاعره، ضعفه. ومحبوه يعظمونه تعظيمًا أوصله لدرجة القداسة في نفوسهم حتى إنهم كتبوا على قبره كلمة : "النبي"، وهي إحدى عناوين كتبه، فجاء ميخائيل وكشف العَذار وأبان المستور، والحق أن ميخائيل أراد ذلك؛ فقد تخفى تحت ستار الموضوعية والمعرفة لهدم صنم جبران الوهمي. وجبران إنسان حالم يعيش الحلم أكثر من الحقيقة في حياته، وكتبه ولا شك ظلال نفسيته، وفيها تشقيقات معانٍ جميلة. أما ميخائيل نعيمة فله معانٍ جميلة وجديدة في كتبه ومقالاته، ولكن ساءه في كتابته عن نفسه كما في (سبعون) وعن غيره كما كتب عن جبران وإيليا أبي ماضي أنه ينسب لنفسه الكثير من التأثير على الحركة الأدبية والشعرية خاصة أنه الوحيد بين أقرانه أصحاب "الرابطة القلميَّة" الذي درس الأدب ومذاهبه في روسيا، وقد حاول جاهدًا أن يُنظر له كفيلسوف منقطع عن الحياة في ضيعته يعاني مسائل الحياة والأفكار، ولم يُفلح.

ويؤخذ على هؤلاء جميعًا الأخطاء النحوية في كتبهم، وهم يرون لأنفسهم الحق في ذلك، ويبررونها بطريقة بشعة غير مقبولة، فلما قال جبران في قصيدته: "هل تحممت بعطر..."، فعابوها عليه، فطفق نعيمة يقول: "كيف لا أقبل كلمة قالها رجل أعرفه اسمه جبران وأقبل كلمة قالها رجل أعرابي لا أعرفه؟!"، عجائب ولا شك!

ومع ذلك فالمرء يتمتع مع هؤلاء في كتبهم، وكتب ميخائيل عندي خير من كتب جبران، وشعر إيليا خير من شعرهما.

فكان مما ذكره ميخائيل في كتابه عن جبران أن جبران عندما قرأ نيتشه بدأ يشعر بزهو الإنسان الخارق، وفي تلك اللحظات بدأ يكتب بهذه النفسية ويرسم بها، ويتحرك إنسانيًا بها، وفي الحقيقة هذا من خدع القراءة؛ فإن بعض الكتب تعطيك شعورًا زائفًا من الخيال قد تنسى فيها حقيقتك، وإن اطردت أمرضتك وأفسدت عليك الحقائق الحياتية؛ ذلك لأن بعض الكتب فيها سطوة هائلة تجعل القارئ أسيرًا لها بالكلية، وهنا تأتي أهمية القراءة الناقدة؛ وهو أن تجعل بينك وبين الكتاب حاجزًا، هذا الحاجز الذي لا يجعلك تذوب مقابله أو تلغي نفسك معه، فتذكر دائمًا أنك لست الذي في الكتاب بل أنت القارئ المراقب، تنظر وتتمعن وتصفّي وتختار وتقرّر، فلك شخصية مستقلة يجب أن تمنعك من التحدث على طريقة الممثل الذي يعيش الآخر ماحيًا نفسه ملغيًا لوجوده وشخصيته.

القراءة صراع بين الكاتب وقدراته وبين استقلالك، هذا في القراءة الإنسانية، فالكاتب يستخدم كل فنون السحر الكتابي ليمحوك في داخله، يأسرك، وبمقدار وَعيك على ذاتك واطمئنانك لقناعاتك تكون قارئًا تُجدد وتُنشئ وتحاور.

هذا لا يعني أن تحضّر نفسك للطعن والرد فتكون سيِّد "لا" تقولها بحق وباطل، كما وقع مع أحد كبار أئمة اللغة حين قابله رجل فسأله مسألة فقال العالم: "لا أدري"، فقال السائل: "أخطأت"، فتعجب الحضور، فأفهمهم العالم أن هذا الرجل خرج من بيته يريد تخطِئتي لا غير، فلم يدرِ ما أقول حتى قال: "أخطأت".

وبعض الناس –وهم اليوم كثير– يعيشون مرضًا طفوليًا؛ فالطفل عندما يبدأ إدراك ذاته يُكثر من قول: "لا"، فما إن تطلب منه طلبًا حتى يُسارع إلى "لا"، وما ذلك إلا لمحاولته إثبات شخصيته، وبعض الناس تكبر معهم هذه الطفولة، ويصبح شخصًا لا يُطاق.

القراءة ليست ذوبانًا في الآخر، وليست إزالة له، بل هي وعي على الذات ووعي على الآخر، ولكن مما لا شك فيه أن مواصفات الكتاب الجيد هو الكتاب الذي يقدر على سرقتك، وهي سرقة لا توجب القطع كما قال جرير.

إن قرأت رواية فتذكر أنك لست بطلها، ولن تستطيعه بتجريده الذي أبرزه الكاتب لك، بل حياتك أعقد بكثير من واقعه.

إن قرأت فكرة فلا تنظر لجمالها الشعري الذهني بل أنزلها من علياء التجريد إلى ضيق الواقع وحقائقه.

إن قرأت في (البداية والنهاية) لابن كثير فلا تختزل الحياة وتاريخ أمتك في خليفة جاء وخليفة قُتل.

إن قرأت كتاب الشيخ عبد الله عزام (آيات الرحمن في جهاد الأفغان) فلا تتوهم أن هذه هي حياة الجهاد، فهذه مُلَحُها لا أصلها، وإلا فحياة الجهاد شيء آخر تستعصي على التبسيط.

إن قرأت (ليون الأفريقي) لأمين معلوف فتذكر أنه لم يجد شيئًا من الحكمة في روما يكتبها في الرواية التي افتتحها بأنه وجد الحكمة فيها، وتذكر أن أمتنا ليست فقط "عام التمائم" و"عالم النوادب والمفتشين".

فالقراءة مقصودها التقاط لمحات قد تبدو متباعدة ومستقلة، ودورك أنت أن تملأ هذه الفجوات، وتجمع هذه المتفرقات، وذلك من خلال بصرك بالحياة، فالحياة هي الأصل، هي الحقيقة، هي السنة الجارية، هي أنت، وأما ما في الكتب فهو إيقاف للصور السريعة التي لا يمكن أن تكون إلا بما قبلها وما بعدها، وحينئذ قد يقع خداعك بإمكانية حصول هذه الصور من غير ألمها وتوابعها ومقدماتها الحقيقية، وهذه أكبر خدعة يقع فيها القراء، القراء جميعًا بل ربما قارئ الكتاب المتدين غارق فيها أكثر من غيره؛ فهل هذه الصور الرائعة والحاضرة في الكتب عن عصر الجهاد الأول –الفتوحات– أو عن جهاد المسلمين ضد الصليبيين تحمل الصورة كاملة؟!

حين يقع القارئ المتدين في أسر هذه الصور المثالية معزولة عن واقها وينظر إلى واقعه الذي فيه عين المقومات الأولى من قضية الجهاد في فلسطين والعراق والشيشان وأفغانستان؛ فإنه سيتجنى في الحكم على هذا الواقع ونزع صفة الشرعية عن هذا الجهاد من خلال نفسية الطهر المثالية والتي صنعت من هذه الصور المعزولة.

في الجهة المقابلة هناك من يأتي ويجمع الهوامش الحياتية اللازمة للإنسان، كما قال النبي ﷺ: (كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون)، ويعممها على تاريخ أمتنا في كل العصور من الراشدي إلى اليوم؛ ليبرر إفساده وفساده في الأرض كما يفعل المستشرقون والرافضة في كتاباتهم ن تاريخنا.

الصورتان وهميتان؛ الطهر المطلق والفساد التام، كلاهما لا وجود لهما في الحياة، إنما يختلطان في كل أطوارها، ويكون الزمن فاضلًا إن غلبت حسناته سيئاته، ويكون سيئًا إن غلبت سيئاته حسناته.

هذه الخدع في أحيان تكون مقصودة من قِبل الكاتب، وهذه منتهى الخيانة القلبية والفعلية؛ لأنه سيضطر للكذب والإلغاء والتضخيم، ولكن قد لا تكون مقصودة لأن حقائق الكتابة تقول: "لا نص إنساني كامل في الدنيا"، وكما قال الشافعي –رحمه الله تعالى–: "أبى الله أن يتم إلا كتابه"، وهذه أمانة الكلمة، كما قال السلف: "أهل البدع يذكرون ما لهم، وأهل

السنة يذكرون ما لهم وما عليهم"، وكفى بالمنهج القرآني هداية حيث ذُكر فيه: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} عن نبيه الحبيب، وذكر فيه: {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}، وهذا هو العدل الذي قامت السماوات والأرض.

لقد ذُهلت لأول وهلة وأنا أقرأ لكاتب ملتزم مثل باكثير –رحمه الله– في (حلم نابليون) صورة الشيخ المهترئ الذاهب مع خصمه بسبب مصالحه وشهواته، صورة قدمها في المسرحية وهو يخفي بذكاء عجيب صورة الأمة التي تحطم حلم نابليون وأوهامه في بلادنا، لكن الواقع يؤيده ويشكر له أمانته. ومثله غسان كنفاني –العاشق لفلسطينيته وقضيته– لا يستنكف أن يكتب صورة الفلسطيني المنكسر كما يكتب الفدائي المنتصر، وإن واحدًا يكتب في فترة متقدمة قصة (عائد إلى حيفا) بمثل هذا الوعي على التغير الاجتماعي والإنساني للفلسطيني تحت الحكم اليهودي، هو إنسان يستحق الإكبار بحق. وعلى الرغم أن قصة غسان كنفاني (رجال في الشمس) هي الأشهر لما فيها من صورة المأساة، والدلالات الرمزية العميقة، كما ذكر ذلك إحسان عباس في مقدمة الأعمال الكاملة لغسان، إلا أني أعتقد أن قصة (عائد إلى حيفا) فيها من الاستبطان العميق والاستشراف المبني على فهم رائد لحقيقة الإنسان وتحولاته تحت الظروف المتغيرة ما تجعلها قصة علمية أكثر من غيرها، الواقعية التي تزيد عن واقعية "تشيخوف" بعلميتها التي أراد النقاد جعل غسان ظلًا له فيها، ولا أنكر أني كلما قرأت لتشيخوف وقفت إكبارًا.

هذا الحد الفاصل بين الحياة والكلمة إن اكتشفناه وأحضرناه تخلصنا من إسار القول: إن المفكر لا يصلح أن يكون إداريًا، سياسيًا، أو عسكريًا، كما هو رأي جوستاف لوبون في كتابه (روح الاجتماع)؛ حيث يرى الافتراق بين أهل النظر والفكر والرأي، وبين أهل العمل والفعل والإقدام، وكما هو شائع اليوم في الوسط الإسلامي في التفريق بين الفقيه والسياسي، كما حكم بذلك ابن خلدون قديمًا في مقدمته، حيث جعل فصلًا بأن العلماء أبعد الناس عن السياسية ومذاهبها، وذهب يبرر لها تبريرًا منطقيًا مستمدًا من المنطق الصوري لأرسطو، وهو المنطق الذي يجعل الطريق الوحيد لحصول التصورات هو "التعريف يساوي الحد"، والذي يقال له هنا "الكليات"، ولو أعدنا الاعتبار لمعنى الفقيه وهو أن أفضل طريقة لحصول التصورات هو المثال كما منهج النبوة من قرآن وسنة لخرجنا من هذه الثنائية النكدة.

وإنه مما يُمدح لابن خلدون في هذا الفصل أنه طعن في المنطق الصوري الأرسطي، وعدَّه غير مأمون الغلط مع أن أصحابه يعدّونه عاصمًا من الغلط العقلي، كما أن النحو عاصم من الغلط اللفظي، بل إن ابن خلدون بهذا الفصل أرسى بكلمة واحدة أسس اليقين في أحكام الوجود وقال: "وصور المحسوسات حافظة مؤذِنة بتصديق انطباقه" –أي انطباق كليات

المنطق على أفراده-، ويحتاج كلام ابن خلدون إلى شرح معادلة القياس الأرسطي وحدِّه لإدراك معنى كلامه، وليس هذا موطنه.

وقد استوفى ابن خلدون كلامه في نقض المنطق في مقدمته في فصل "إبطال الفلسفة" بكلام رائع حوى على الكثير الذي يدل على وفور عقله وعلمه، والحق أن (المقدمة) مع كثرة المتكلمين عليها إلا أنها تحتاج إلى كثير من الدراسات، وخاصة من أهل الإسلام، وشكر الله للدكتور عماد الدين خليل في دراسته التي أعادت ابن خلدون –بحثًا– إلى هذه الأمة.

الذوبان في داخل الكلمة خطأ وجريمة ضد الوعي، والعيش بعيدًا عن الكلمة خطأ وجريمة ضد الإنسان كله؛ بوعيه وعقله وقبله وروحه ومُتعه.

أرجو أن أكون قد أوفيت هذه المسألة حقها في ورقات بعنوان (بين العقل الشِّعري والعقل الجهادي)؛ وهي إحدى هموم العمل الإسلامي اليوم، وستبقى مفتوحة لأبواب البحث.

يعاني المبتدئ بالقراءة من شعور خاطئ أنه بعد أن يقطع بعض الكتاب قراءةً أنه لم يعد يذكر ما تقدم، وحينها قد ينصرف عن الكتاب لأنه فقد التواصل معه.

هذا الشعور خادع ووهمي؛ فإن تعمير الباطن وارتقاء العقل لا يميزه صاحبه، وهو كواضع الطيب يشمُّه مَن حوله وهو لا يشمه.

هذه الخديعة قد تسيطر على المرء فتصرفه عن القراءة بالكلية، حيث يتهم نفسه أنه إن قرأ لا يحفظ ويسنى، وربما قارن نفسه بغيره الذي يراه صاحب ذاكرة قوية، فيظن أن القراءة لمثل هذا وليست له.

العلم والمعرفة ليس لهما من الدلائل الظاهرة على الإنسان كطفرة مَرَضيّة مفاجئة، بل هي بناء يتشكل ببطء لا يحسه المقارن له، وحين يُمتحن هذا البناء يكون حاضرًا ويُثبت نفسه، ولذلك على المرء ألا يتوقف أبدًا عن القراءة بل يتابع ويتابع ولا يُخدع.

في ظرف غير عادي جاءني فتى يطلب العلم فقلت له: "اقرأ، فهي طريقك الوحيد اليوم في هذا الظرف". وشكى لي هذه الشكوى، ثم قال: بأي كتب تنصحني أن أبدأ؟

قلت له: "عليك بـ(مجموع الفتاوى) لابن تيمية، ابدأ من الصفحة الأولى ولا تتوقف حتى تنتهي منه".

كان يعود ويشكو من أمرين: أنه ينسى فيشعر أنه لم يجنِ شيئًا، وثانيًا: أن بعض المواطن وهي كثيرة يستعصي عليه فهمها.

كنت أعالج له ما تيسر من حل الثانية، فإن ضاق الوقت قلت له: "اتركها وواصل"، أما الأولى فكنت أقول له: "دع الوهم واصبر وسترى".

وإني أحمد الله أن التجربة قد نجحت، فقد صار إنسانًا آخر بعد انتهاء الرحلة.

كم من قارئ يشكو من هذا الوهم وخاصة من يقرأ كتب التاريخ لكثرة ما فيها من أسماء قد تبدو غريبة هذه الأيام، والعجيب أنهم بعد الشكوى يحرجونك لجدة قراءتهم بمعلومات يسوقونها على وجهها الصحيح، وهي عندك لطول العهد بها عامة وغائمة، وحينها تقول لهم: ها قد علق الكثير في أذهانكم من القراءة فانتبهوا.

يقابل هذه الخدعة خدعة مضادة وهو وهم البعض بعد قراءة لموضوع في كتاب أن البحث صار من حقه وأنه له، مع شعور خادع أنه استوفاه وأتى على نهايته.

حين تقرأ موضوعًا لغيرك في كتاب فمن حقك روايته لا ادعاء ملكيته، فرحلة القراءة قد تشتبه على البعض بأنها رحلة إبداع وإنتاج وليست رحلة تحصيل واجتناء، وهذا من وهم البعض وأخطائهم.

قد يقول قائل: ما أسرع ما نسيت، فإنك قدمت أن القراءة رحلة إبداع وإنتاج والآن تنفي هذا!!

لم أنسَ والعهد قريب، والقراءة لا تكون كاملة حتى تكون إنتاجًا، لكن إنتاجًا منك حين تشكل تشكيلًا من إبداعك حتى لو كانت أفراده من غيرك، لكن التنبيه هنا على خداع الصورة عند البعض، حيث قرأ شيئًا وأحسّ بأنه قادر أن يأتي بمثله فإنه لا يستنكف أن يقول: هذا لي، أو قد التقت أفكارنا، ولذلك من الأمانة العلمية أن يُنسب الفضل لأهله سواء عند الكاتبة أو الحديث خاصة لدرر الإبداع وأوابِد الفكر.

لكن دعني أخبرك بسر من أسرار نفسي، وقد أفشيته قبلًا في ورقات (شذرات من الحياة) والمقام هنا مقامه، وهو أنني كثيرًا ما أخرج بنتائج فقهية أو علمية أو فكرية من خلال قراءة تجر إليها أو تأمل في كلمة أو حادثة فأحدِّث بها إخواني أو أُثبِتها في موطن، ثم يتبيّن لي في قراءة ما أني مسبوق إليها فيعتريني فرح عارم وحزن دقيق؛ أما الفرح فبسبب حصول الاطمئنان على صحة النِتاج، وخاصة حين تكون الموافقة لعالم عظيم أو حكيم خبير، فأقول: ها قد أنتجت الماكينة بعض الصواب.

أما الحزن؛ فإني أعلم أن أحدًا ما لو علم صدورها من هذا العالم فلن ينسبها لي حتى لو سمعها مني ابتداءً، بل قد يظن أني اجتنيتها من غيري ولم آتِ بها من عندي.

أعترف أن هذا الحزن هو حزن رجل ما زال صغيرًا في أعمار باطنه، فإن رجلًا عظيمًا هو الشافعي قال: "لوددت أن هذا العلم علمه الناس ولم يُنسب لي منه شيء"، فإنا لله، هذه مراتب دونها تُقطع الحلاقيم عطشًا، فاللهم رحمتك.

وليتذكّر أولئك الذين يُعرِضون عن القراءة لاتّهام أنفسهم بعدم الحفظ وأن القراءة لا تحصِّل لهم الكثير، أن كثرة القراءة هي التي تُرسِّخ العلوم والمعارف، فالمرء لا يكون عالمًا بقراءة كتاب ولا كتابين، إنما بكثرة القراءة والمذاكرة تستقر العلوم في عقله وقلبه، هذا شيء يعرفه الناس بفِطَرهم.

وإن أعجب ما يقع عليّ من سائل هو قول أحدهم لي: "إني أحب التاريخ، فدُلَّني على أفضل كتاب في التاريخ أقرؤه؟"، والجواب هو: لو كنت محبًا للتاريخ لما سألت هذا السؤال؛ فإن المحب للتاريخ لا يقتصر على كتاب واحد ولا كتابين، بل يقرأ ويقرأ كل ما تقع عليه يده من كتب التاريخ، أقول هذا وأنا أعلم قول البعض: "إن الزمن قصير والأشغال كثيرة، فنريد الزُّبدة والخلاصة".

يا الله، كم جنى هذا الوهم على الناس، وكم ضيّع عليهم من فضائل، وكم فوّت عليهم من خيرات! إن الأوقات أكثر من الواجبات، لا كما قال الشيخ حسن البنا –رحمه الله تعالى–، وإن الأوقات تتسع للكثير لو أحسن الناس استغلالها، وعلموا أن الزمن هو أرواحهم وعقولهم وجنتهم، وعلموا أن الدقيقة أغلى من الذهب، بل هي الحياة، إن ذهبت؛ ذهبت الحياة، لكن الناس لجهلهم يفرّطون أكثر ما يفرّطون في حياتهم.

تأملوا حياة المنجزين في أي باب من أبواب الحياة، كم أنجزوا وكم حصل لهم من ثمر وجني، أصحاب الأموال وأهل الاكتشافات وأهل العلم، ولا تعجبوا منهم، بل اعجبوا ممن ضيع عمره فأتى للحياة وذهب بلا شيء!

كم قرأ وكتب الإمام الطبري؟ هل تعرفون؟

كم قرأ وكتب الإمام البخاري؟ هل تعرفون؟
للذكر فإنه بدأ بتأليف كتابه العظيم (التاريخ الكبير) وهو في السابعة عشرة من عمره.

كم قرأ وكتب الإمام ابن حزم؟ هل تعرفون؟
لا تنسوا أنه كان يرتشف كل مُتع الحياة التي أتاحها الله، وأنه تقلّب في الوزارات حتى الثمالة.

كم قرأ وكتب الإمام ابن تيمية؟ هل تعرفون؟
وتذكروا أنه سافر وجاهد وسُجن واحتسب، وفاوض الملوك وناظر الخصوم.

لقد أوصى أحد مشايخ الإمام الشوكاني هذا الإمام وهو في بداية الطلب أن يكتب كل يوم ولو ثلاثة أسطر، وقد فعل –رحمه الله– وأطاع النصيحة، فأتى بالعجائب.

كم قرأ وكتب الإمام ابن كثير؟ هل تعرفون؟
لقد ذكر عن نفسه أنه أُصيب بالعمى آخر عمره وهو يشتغل في كتابه العظيم (جامع الأسانيد والسنن) بسبب سهره معه مع سراج يُنَونِص قليلًا.

لقد دخلت على الشيخ محمد زكريا الكاندهولي وهو مريض جدًا لا يستطيع الحركة، وحوله رجال يتناوبون في القراءة له، وقد حدثني أحد تلاميذه أنه كان يتناوب هو والشيخ محمد يوسف الكاندهولي صاحب كتاب (حياة الصحابة) السهر في الليل للقراءة والبحث.

هكذا هم العقلاء؛ لا يضيّعون حياتهم وأزمانهم، بل كل لحظة بثمن، وكل ثانية بإنجاز، وهل هناك امرؤ يسمع حديث النبي ﷺ القائل: (كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله، فإنهن من الحق)، ثم يلهو لهوًا باطلًا؟! اللهم لا، إلا أن يكون الرجل لا عقل له.

انهض من لحظتك وشمّر عن ساعد الجِد، وسترى أنك بعام واحد أنجزت الكثير!

قلت مرة لأحد الأحبة –لسبب ما– إني قرأت (مجموع الفتاوى) لابن تيمية مرات لا مرة، فنقلها لأحدهم، فجعل الرجل يُقسم أن هذا لا يمكن، وأن هذه مبالغة.

سبحان الله! مبالغة! لمَ مبالغة؟

عبد الرحمن القاسم –رحمه الله– وابنه محمد ألم يجمعوا المخطوطات بسنين؟ ألم ينسخوها؟ ألم يصححوا تجاربها؟ ألم يصفّها عامل الطباعة حرفًا حرفًا؟

كل هذا يحدث، فإذا قرأها أحدهم مرات قال الغافل: "مبالغة".

إن ضعف الهمم هو الذي يقتل حدوث الإنجازات، لما عرضت كتابي الذي أنجزته مع حسن أبي هنية وهو (تجريد أسماء الرواة الذين ذكرهم ابن حزم)، على الشيخ الألباني -رحمه الله- قال: "هل قرأتم كل كتب ابن حزم حتى تقولوا تجريد؟"، فقلت له: "نعم، بل قرأت كتبًا أخرى للرجال حتى أنجز العمل".

أعجبتني كلمة من أحدهم وهو يرهقني في التمارين الرياضية معه في السجن، وهو سجين مثلي، حيث يهرب منه الجميع ولم يبقَ معه إلا أنا وأخ حبيب آخر، فقال: "ليكن عدوّك اثنين؛ وزنك والآلة الرياضية فلا ينتصران عليك".

وأنت انظر إلى (فتح الباري) وأنه يعلن التحدي عليك ويقول لك: "هل تقدر؟"، وتأكد أنك تقدر، فقد قُرِئ هذا الكتاب مرات على بعض المشايخ في جلسات خُصِّصت بعد صلاة الفجر فقط إلى شروق الشمس، أقول: قُرِئ مرات لا مرة واحدة!

ليس هذا ما أردته ابتداءً ولكن الحديث ذو شجون -كما يقولون-، وهذا الكلام يُمدح في كل وقت، ثم هل نقول: إن بعض الكتب تبدو لضخامتها خادعة أنك لا تستطيع قراءتها، فتكون هذه خدعة أخرى من خدع القراءة؟ ربما.

لم أسمع قط أن كتابًا لم يُقرأ كله من قِبل إنسان إلا ما ذكره الدكتور عبد الوهاب المسيري عن (التلمود) اليهودي أنه لا يوجد أحد قرأه كله، و(التلمود) هو شروح كل عالم يهودي على التوراة، وكل خَطرات حبر من أحبارهم، وكل كلام يكتبه مُقدَّم فيهم، فهو كل يوم يزيد ويتضخم، حتى إن مناحيم بيغن زاد عليه من "الدُّرر اليهودية" -الرجاء عدم الابتسام-.

كان من نصائح الأقدمين قولهم: "لك روايته وعليه بدعته". نقّبت في مكتبة أحدهم وهو ينتسب لطلب العلم، فلم أجد في مكتبته كتابًا واحدًا في أصول الفقه، وهذا العلم قد قلّ هذه الأيام، ولم يبقَ منه إلا ترديد المصطلحات بين بعضهم، والمبصرون به مَلَكة ودربَةً قِلّة في زماننا لأنه فقه العلوم، فأشرت عليه بأن نزور بعض المكاتب التجارية، وقد كان، فكان من المعروض كتاب (المحصول) للفخر الرازي فأشرت عليه بشرائه، فقال: "لا أشتريه، أليس هذا الرازي الذي رد عليه ابن تيمية؟ وهو من المتكلمين؟"، فما زلت أحاوره وأُفهمه حتى اشتراه، مع رؤية بعض الكراهة في وجهه.

إن بعض الكتب تُنشئ وهم "الحزبية والقبلية" بين القارئ وصاحب الكتاب، فيصبح محبًا لما يحبه صاحب الكتاب، مبغضًا لما يبغضه صاحب الكتاب، وهذا ضعف في العقل والنظر. هذا الرجل لا يعرف أنه لا يوجد كتاب كتبه أصولي إلا وهو متأثر بالمنطق، إلا كتاب (الرسالة) للشافعي، حتى كتاب ابن حزم (الإحكام في أصول الأحكام) فإن صاحبه له رأي في

المنطق غير رأي ابن تيمية الذي يقلّده هذا الطالب، فقد كتب ابن حزم كتابًا سماه (تقريب حدّ المنطق) وهو ضمن رسائل ابن حزم المطبوع بعناية الدكتور إحسان عباس.

العلاقة مع الكتاب ينبغي ألا تُفهم علاقة مع الكاتب، وهذه المسألة غير مسألة الحب في الله والبغض في الله، ولذلك كم جنت هذه القضية على العلم، فقد ذُكر أنه صار بعض أهل العلم يحملون كتب ابن تيمية في أضابير بغير اسمها حتى لا يُساء لهم أنهم يقرؤون لابن تيمية. وهناك تجارب أخرى في إزالة اسم الكتاب واسم المؤلف، لتحطيم الأوهام التي تنشأ في عقول البعض من الدعائية الزائفة أو القراءة القبلية، ومن ذلك ما وقع لكتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

لا تُخدع بالأسماء ولا بالعناوين، بل اقرأ وتجرّد من الهوى تتحصّل الكثير.

هذه الخدعة سماها إبراهيم العسعس في كتابه (السلف والسلفيون) بـ"علم نفس الدليل". لقد حُرمت طويلًا من كتب أبي الأعلى المودودي في بداية القراءة لأني سمعت أحدهم في جماعة التبليغ –أوائل أيامي معهم– يعيب اسمه، "أبو الأعلى واللهُ هو الأعلى!"، فلما قرأت له أدركت جهلي وعلمت كم في كتبه من الخير والفهم والعقل الكبير.

ومن خدع القراءة "القبلية"؛ وهو الاكتفاء بكتب الردود عن قراءة الكتب الأصلية، معتمدًا على أمانة الرادّ ودينه وثقته، وهذا وهم ينبغي للمرء تجنبه، بل عليه أن يسعى إلى قراءة الكتب الأصلية نفسها، إذ ستكتشف أن هناك من الجوانب التي استفدت منها ووسّعت مداركك وفهمك للكتاب.

لا اسم الكاتب حاجز ولا العنوان ولا الردود عليه، فاحذر الخداع.

يتوهم البعض أنه باقتناء الكتاب ودخوله في ملكيته أنه قرأ الكتاب، وهذا وهم مرضيّ؛ فإن وجود الكتاب في مكتبتك لا يعني أنك قرأته، كما لا يعني أنك سيطرت عليه، فيمكن استحضاره إليك في أي وقت، نعم قطعت بعض الطريق لكن الاكتفاء بهذا الوضع يتحول إلى حاجز يحول بينك وبين مقصد الكتاب وهو قراءته، فالكتاب لم يوضع للحلية، وفائدته لا تكون بالتحلي به كأثاث البيت وفاخر اللباس وغالي الجواهر، بل حلية الكتاب هو أن تصفّيه حرفًا حرفًا في عقلك وقلبك.

ثم إن التحديق في الكتب وهي مصفوفة على الرفوف زمنًا طويلًا يعطيك في أحيان كثيرة شعورًا خادعًا أنك تعرفها، وبالتالي تعرف ما فيها، فهذا كتاب له سنين في مكتبتك تنظر إليه يوميًا، وتعرف اسمه واسم صاحبه وما هو موضوعه ومباحثه، وربما قلّبته في بعض اللحظات لدقائق فاطلعت على كلمات فيه أو صفحات، فينشأ وهم في داخلك أنك تعرف

الكتاب، أي أنك قرأته. وهذا وهم باطل؛ فالقراءة الحقيقية هي أن تقرأ الكتاب كله، كل الكتاب، بل قد تحتاج أن تقرأه مرات حتى تسمى قارئًا حقيقيًا له.

ولعله من النصيحة التي أحبها للقارئ ألا يطيل ترك كتاب ملكه مدة طويلة في مكتبته دون قراءته، فإن طول الوقت مع ما تقدم وَهْم قلَّما لا يقع المرء فيه.

اقتحم الكتاب وتحدى هذا الوهم، وستكتشف هذا الخداع بنفسك، وأن ما كنت تظنه أنك تعرف الكتاب هو وهم غير صحيح، فالكتاب ما زال أجنبيًا عنك.

الكتاب ليس بغلافه ولا باسم كاتبه ولا عنوانه، بل الكتاب هو كل حرف فيه وكل كلمة وكل صفحة وكل جزء، وحين تأتي على كل هذا تسمى قد قرأت الكتاب.

وقريبًا من هذا الوهم هو انتشار بعض الكتب وانتشار بعض أسماء المؤلفين والكتَّاب، والذي يؤدي إلى انتشار الحكم عليها وعلى مناهج أصحابها، فيبعث هذا كله شعورًا مخطئًا أنك تعرف الكتاب أو تعرف كتب المؤلف المشهور، مع أن الأمر على غير ذلك. ملايين الطبعات للتورة والإنجيل ومع ذلك كان يكتشف إخواننا في مناظراتهم لبعض كبار الدين النصراني أنه لا أحد منهم قرأ الكتاب كاملًا.

أنت تعرف (تاريخ الطبري) والكل يذكره في معرِض ذكره لكتب التاريخ، لكن اسأل: كم أحد قرأه كله؟

الكل يعرف (مقدمة ابن خلدون)، لكن سل: كم قارئ قرأها كلها؟

الكل يعرف المتنبي ويردد كثيرًا من الأبيات له، إنما السؤال: كم من قارئ قرأ (ديوان المتنبي) كله قراءة تذوق؟

إن بعض من ينتسب للعلم والفتوى ومع ذلك لم يقرأ (تفسير ابن كثير) كله، دع عنك تفسير الطبري والقرطبي وغيرهما.

بل إن بعض هؤلاء لم يقرأ الكتب الستة التي لا تصح فتوى امرئ إلا بعد قراءتها بعلم وفقه، إن رجلًا لم يقرأ (تفسير ابن كثير) على الأقل والكتب الستة مع شروحها، و(السنن الكبرى) للبيهقي، و(المغني) لابن قدامة، و(المحلى) لابن حزم لا يصح أن ينتسب لأهل الفتوى.

لكن لانتشار هذه الكتب في مكتبات الناس أوهمتهم أنهم قرؤوها ويعرفون ما فيها!

لتحذر دائما من خديعة اقتناء الكتب والاكتفاء بذلك.

قالت العرب: "تسمع بالمعيدي خير من أن تراه"، وسمع أحد الصوفية أشعار محمد إقبال الرائعة في مدح النبي ﷺ فذهب مسافرًا إليه من إقليم إلى إقليم، فلما دخل بيته مستأذنًا سأل إقبال نفسه: أريد مولانا إقبال، فقال له إقبال: أنا هو، فما كان من الصوفي إلا أن ضرب إقبال بشال كان على كتفه وانصرف عنه، إذ كان الصوفي يتخيل إقبال على شكل وهيئة مشايخه من اللحية والعمامة والوقار، فلما رآه صدمته الصورة.

وحدث أن أحدهم صدرت له بعض الكتب العلمية، فلما جلس معه بعضهم قال له: إما أنك لم تؤلف هذه الكتب وألفها غيرك ثم نسبتها لك، وإما أنك لست فلان -اسم المؤلف-!

في مرات كثيرة يكون الكتاب أكبر من صاحبه، والأمر في حصول هذا ليس غريبًا خاصة في هذا الزمن العجيب، ومرات يكون الكتاب أصغر من صاحبه، ولا أكتمك أن هذا يقع مع القارئ غير الناقد، وإلا فالقارئ الناقد الخبير قلما يخطئ في حدسه معرفة الكاتب من خلال كتابه، لكن الحذر من الوقوع في هذا الخداع مطلوب.

بقي وهم كبير وهو وهم ظن السوء أن الحرف يحقق التغيير دون الإرادة والعمل، وهذا الوهم له فصل مستقل تحت عنوان: "القراءة من الحرف إلى الفعل"، والله الموفِّق.

القراءة من الحرف إلى الفعل

قال لي صديقي الذكي يومًا: "إن رصاصة واحدة تستطيع احتراق عشرات المجلدات"، فقلت له: "إنها رصاصة الجهل مع كتب ميتة".

سمى الله القرآن روحًا، والروح أساس الحياة، وسيد قطب اشترط حياة الحرف من مواته أن يأخذ روح كاتبه، فالحرف ليس معرفة فقط بل هو فعل.

الذين ينظرون إلى الكلمات بهذا المنظار ويتعاملون معها على هذه القاعدة هم أهلها حقًا، وأما الآخرون فهم قطاع الطريق فيها.

لست أنكر أني منحاز لأمتي في أصلها وفي تاريخها، فإن أمة كانت تقيم الحروب من أجل بيت شعر أو من أجل كلمة لأمة عظيمة تستحق أن تأكل كل الأمم، بشرط أن تجد كلمة الحق التي تحبها وتعلِّمها وتثيرها وتقودها، وبحمد الله قد وجدتها أعظم ما يكون؛ إنها كلمة الله.

إن أمة تقيم الاعتبار للكلمة يعني أنها تقيم الاعتبار لأسمى معالم الجمال في الدنيا، وأنها تقيم الاحترام للقيم الإنسانية، تلك القيم التي تجعل للحياة معنى ورونقًا، فأي حياة من غير الحب والولاء والوفاء والعدل والفداء والكرم؟!

هكذا كان العربي قبل الإسلام، يسلُّ سيفه من أجل كلمة، ويبذل ماله من أجل كلمة، ويضحي بنفسه وعشيرته من أجل كلمة، فالكلمة هي حياته، فهو يدرك أنه يمكن أن يعيش فقيرًا ولا عار، ويمكن أن يعيش مشرَّدًا بلا ملك ولا استقرار، ولا عار، فالصَّعلَكة فتوّة القيم، لكن لا يمكن أن يعيش بلا كلمة؛ لأنه حينئذ يكون بلا قيمة.

هذه الكلمات التي هي عنده عنوان على الحقائق وليست مجرد هواء يصخب في فضاء، ولذلك لا يُعرف عن أمتي قط أنها لاكت كلمات لا تعني حقائق وجودية، ولم يستنكفوا أن يقولوا: "السندس" و"الإستبرق" وهي ليست من لغتهم؛ لأن حقائقها ليست من وضعهم، فلما جاءتهم من الآخرين كانوا أمناء فأخذوها بأسمائها.

ومن طرائف هذا العربي الراقي رقيًّا تعجز عنه بقية الأمم أنه قيل له: ما تسمون ماء الطعام عندكم؟ قال السَّخين، قالوا: فإذا برد ماذا تسمونه؟ قال: لا نتركه حتى يبرد. فالكلمات دلائل على الحقائق أعظمها ما كان مطية يحمل في داخله القيم والمعاني والصور؛ لهذا كانت الكلمة عنده عظيمة لأنها تعادل الوجود.

دع عنك هؤلاء الساقطين، والذين همهم تحقير كل قيم هذه الأمة وكل أسباب رفعتها وعزتها، هؤلاء من تحريفهم أنهم جعلوا سطوة البيان تقضي على سنن العقل، وكأنّ الإنسان غرائز متعارضة متقاتلة، لا متكاملة متكافلة.

ولأنهم قرؤوا الكلمات ولم يرووا حقيقتها فرأوها أصواتًا، فصرنا عندهم بكل تاريخنا ووجودنا ظاهرة صوتية لا أكثر ولا أقل.

وكأن أمة غير هذه الأمة روت الأرض دماءً في سبيل الحق، وكأن هذه الأمة هي التي قتلت الملايين من أجل شهوة القتل.

وكأن هذه أمة غير هذه الأمة تقدم الأرواح والدماء والعرق ضد طغيان العالم أجمع، وكأن أمة غير هذه الأمة يموت شبابها عن رغبة وطواعية في سبيل دينهم.

ماذا نقول لهؤلاء في زمن ينهق أحدهم في جريدة نفطية بقوله: إنه ليس على استعداد أن يضحي بابنه في سبيل أي شيء من أشياء الدنيا أو الآخرة.

الوطن عندهم قطعة أرض، والمريض هو من مات من أجل أرضه، المريض في عقله ونفسه، والذكي هو: اشترِ لك قطعة أرض في أستراليا بمال يدفعه غاصب أرضك.

العِرض عندهم وهم زائف، والمتخلف من مات من أجل عِرضه، المتخلف عن قيم الحضارة المعاصرة، والمستنير من جلس خلف الباب وهو يسمع لهاث زوجته مع مدير شركته أو زوج عشيقته.

كل القيم خيالات وأوهام، والحقيقة الوحيدة أن يعيش كما قال تعالى: {لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ}، هدم السفلة كل جمال في الحياة، وكل تاريخنا، وكل قيم أمتنا، وتحت دعوى العقلانية والمصلحة في وقت لم يبقَ لنا فيه شيء.

بصقوا على كل الشهداء ونعتوهم بالمرضى والمجانين وفاقدي الأمل وعاطلين عن العمل؛ لأنهم يحلمون بالجنة، والجنة وهم، والحقيقة الوحيدة الحساب البنكي! فالحرف لمن يدفع، وكل كلمة لها ثمن، فلا مانع من أن يكون الكاتب الكبير والمفكر العظيم لوطيًا، وسيأتي من يقول بكل صفاقة: إن هذا المفكر الثائر –ياحقارة القوم ثائر ومَأْبون– إنما يعلن ثورته من خلال شذوذه.

لا تستغربوا فوالله لقد قيلت، واقرؤوا إن شئتم ما كُتب عن "جان جينيه" وعن فلسفة شذوذه، وحين يُسأل عن شذوذه يقول: "شذوذي هو الذي فتح آفاق فهمي للحياة"!

رحم الله الحياء، ورحم الله الرافعي حين علّق على قرآن مسيلمة بقوله: "هذا قرآن كان ينزل على بطنه لا على قلبه"، ولو قرأ ما قاله الرجل لقال: هذا فِكر ينزل على دبره لا على عقله.

إن هذا السّعار المحموم في إظهار هذه النماذج الحقيرة في سلوكها وعملها وإبراز سيرها الذاتية بهذه الوقاحة والفجاجة لهدف تدميري واضح؛ وهو فصم عُرى الصِّلة بين الكلمة والفعل، وإيصال رسالة خبيثة الهدف: القيم الأخلاقية لا علاقة لها بالكلمة، وأنه لا غرابة بين كون الرجل مثقفًا وسافلًا منحطًا عميلًا.

هذه إحدى معارك الكلمة لتجريدها من روعتها وقيمتها، وهكذا تنهار معالمها الوجودية في النفس البشرية، فليس للألفاظ حقائق بل يمكن تركيبها مع أضدادها كما يقول بعضهم: "البغي الفاضل"!

إنها معركة لا يقوم لها إلا الرجال الأفذاذ ونساء الطهر والعفاف، الرجال الذين يعيدون للكلمة أَلَقَها من خلال نماذجهم العلمية الشاهدة على الصدق والانتماء والشهادة، والنساء اللواتي يُرضعن من طهر أثدائهن رماح الشهادة وحروف التاريخ.

هذه كلمات لا بد منها انتصارًا لأمناء الكلمة وتبكيتًا لخصومها، وهي كلمات –فقط كلمات- ضد أموالهم وحكوماتهم ومؤسساتهم وعشاق نسائهم.

ابتداءً؛ على المرء أن يعلم أن الحياة التزام، وإن أثر الإنسان في الحياة والتاريخ إنما يكون بمقدار التزامه بسنن الحياة وقيم الإيمان، والذين يأخذون الحياة على وجه اللعب واللهو ستحطمهم السنن في الدنيا وسيرحلون عنها بلا أثر، كما قال تعالى عنهم: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ}، هذا الالتزام هو الذي يجعلهم في نسق تام مع الوجود، يسيرون مع السنن، ويستخدمون كل ما سخّره الله، ويعيشون في طمأنينة العاقبة مهما تأخرت في بعض أطوار الحياة، لأن هذا هو طبيعتها وسننها.

الالتزام لا يعني الثقل، بل الثقل والعَنَت في السير عكسه؛ لأن الالتزام معناه السير ضمن سنن الفلك الكوني والإيماني، وبالتالي ما يقع عليك من تعب إنما هو تعب المسير لا تعب الالتزام، وحين تنفلت الأَزِمَّة حينها يبدأ الصِّدام والاضطراب والهلكة.

هذا الكلام لا يقال اليوم في بداية الطريق، ولا اعتمادًا على أخبار التاريخ، بل بأدلته الحاضرة، حيث نشاهد آثار الانفلات من السنن الكونية كيف يؤدي إلى الهزائم وسيطرة الأعداء، وكيف نشاهد آثار الانفلات من القيم الإيمانية كيف يتحول الناس إلى بهائم ووحوش تعشعش فيهم عوامل الهدم الداخلي.

هذا الالتزام ليس خيارًا يمكن للمرء أن يجربه يومًا أو يجرب ضده، بل فيه معنى منطوٍ في داخله؛ أي اللزوم والالتزام، فسنن الحياة ثابتة وكذلك ينبغي أن يكون أكرم الخلق فيها، وفي الختام –ختام رحلة الحياة- يذهب كل واحد إلى مُلكه الذي بناه وغايته التي سار إليها.

هذا الالتزام يعني أول ما يعني البصيرة، أن تعرف الطريق وأن تبصر دروبها ومزالقها ورفاقك فيها وقوانينها وشروطها، وكلما كنت عالِمًا كلما كنت مبصرًا؛ لأن المعرفة سراج العقل، فالمعرفة إحدى قوانين الالتزام، بل هي عين الالتزام.

هذه البصيرة سراجها الكلمة، لا تنير إلا من خلالها، ولا تحمل إلا في طياتها.

ليس بعالم من عرف طريق الحق وسار في طريق الباطل، بل هو من أجهل الجهلة، وليس له ثقة على هذه المعرفة، ومحتقر لها مفسد لقيمتها.

الكلمات ليست للتجارة ولسرقة الغافلين وبيع الأوهام، بل هي لتنبيه الغافلين وكشف الحقائق.

الفعل له شقان باعتبار آلته؛ القلب والجوارح، وله شقّان باعتبار متعلَّقه؛ فعل الفضائل وترك الرذائل.

يدور سجال غير محمود اليوم حول "المثقف الملتزم" كما يدور سجال حول "الناقد المبدع"، وهذا يدل على فصام العقل الثقافي هذه الأيام، وأساس فصامه هو فقدان الأدب والإبداع مهمته في الحياة، بل هو في الحقيقة غياب التصور الصحيح لمفهوم والحياة، فما الحياة عند هؤلاء؟!

إن كل قضية لو فكر فيها منصف لوجد أنها تتعلق بـ"الدين" والذي هو أساس القيم، ومن أجله وُجدت هذه الحياة، وكلما أُفرغ جانبٌ من هذه الحياة من الجانب الديني كلما مُلئت بالعبث والتوحش والبهيمية، وهذا بَيِّنٌ اليوم في عالم الأدب والإبداع؛ فإن مهمة البيان هي حصول التواصل بين الإنسان، ولكن لغياب هذا المفهوم –وبطريقة تنازلية- حُوِّل الإبداع الفكري إلى مجرد عبث وهذيان مرضي؛ لأنه لا يمكن لإنسان ينشئ نصًا إلا وهو يطوي داخله –داخل النص- فكرة واعتقادًا ومبدأ، أي أنه يعبِّر عن التزام بموقف، وهذا ما لا يريدونه اليوم، أو لنقل إنه الشعار المطروح علنًا دون الخفايا والبواطن، وبالتالي تحول النص إلى عماء لا يشكل في داخله أي تكوين أو مفهوم، ودعوى هؤلاء القوم لتفجير اللغة يعنون

تحويلها إلى ألفاظ بلا دلالات، أو دلالات متناقضة كل دلالة تشير إلى ضدها، والباعث لذلك هو تدمير الالتزام، فلا يوجد نص أخلاقي ولا نص اعتقادي ولا نص منتمٍ؛ لأن اللغة التي يريدها هؤلاء العابثون هي "عماء" لا أكثر ولا أقل.

هكذا يمكن اكتشاف الخواء الفكري من خلال الفساد اللغوي، كما أمكن اكتشاف الفساد الأخلاقي من خلال تدمير اللغة، ولذلك إن معركة البيان هي في جوهرها معركة القيم ومعركة الالتزام ومعركة الإيمان.

إن معركة القيم وارتباطها باللغة –بالنص– ليس من جهة الموضوع فقط، لكن من جهة الشكل كذلك، فاللغة وإن بدت في الابتداء آلة فقط؛ إلا أنها –لعوامل فطرية وتاريخية– تتحول إلى انتماء ومشاعر، وتصبح الآلة نفسها –وهي الوسيلة– موضوعًا وعقيدة، فهل يستطيع أحد أن يعزل القرآن عن لغته؟ أو يعزل النص عن كاتبه؟ ومن هنا صارت اللغة العربية عند المسلم دينًا تشير إلى انتمائه ومشاعره، ونحن لا ندري أسُميت اللغة باسم أهلها أم أنّ أهلها سموا باسمها، ولكن ندري شيئًا واحدًا أننا اليوم نرى أن الإنسان يسمى باسم لغته وكذا العكس، فمن هنا؛ فإن الحرف لا يعني الالتزام بموضوعه فقط، لكن يعني الالتزام بشكله وصوته، والحرب عليه هي حرب على صاحبه وهويته وخصوصية أهله.

لا أنكر أن اللغات تتفاضل، وجهود أهل كل لغة يتفاوتون في هذه الجهود التي بذلوها على اللغة، لكن أكره السجال في هذه النكتة لأنه في النهاية "كل بنت بأبيها معجبة"، والخلاف فيها رغم أنوفنا سيتحول إلى حرب عواطف فقط، لكن أؤمن أن دعوى الموضوعية والتحديث التي يحملها "لقطاء الفكر" ضد لغتنا هي دعوى مشبوهة لانتصار لغة أخرى على انتمائي (لغتي).

"لقطاء الفكر" بعضهم يحلم بالفرنسية ويتأوه مع زوجة صاحبه بالفرنسية، وبعضهم لا يعبر عن أشواق الرضا وزفرات الغضب إلا بالإنجليزية، وهم يجلسون تسولًا أمام معاهد نشر اللغات، ومؤسسات الجوائز للكاتبين بتلك اللغات، ويأكلون السحت من دوائر الدولة التي تحمي اللغة وتنشرها ثم إذا جاؤوا إلى لغة آبائهم؛ دعوا لتفجيرها وتغييرها ليُكتب فيها:

طار الفيل وعضّ الربيع ذَنَب البرغوث، فكان ماذا!

حمار السّلام يسبح في سن الطفل، فما الغريب!

صدقوا: أين الغرابة؟ وقد صار العميل قائد الدولة، واللص وزير المالية.

****

من أوهام القراء أن القراءة بذاتها هي فعل التغيير؛ لأن القراءة في بعض الأحيان تعطي شعورًا ذاتيًا واهمًا بأن الخارج قد تغير، كما حصل من صور وانفعالات داخلية، والحقيقة أن هذا شعور زائف ووهم خطير؛ فإن الخارج لا يتغير، وإن ما عشته مع القراءة هو شيء داخلك فقط، وأما الحياة فشيء آخر، وأما الخارج فهو مجال إرادتك لا خيالك ومشاعرك[٢٠].

إن القراءة يجب أن تشكل وعيًا للعمل لا وهمًا مع خيال داخلي تنسحب داخله بعيدًا عن الواقع، كما يقع مع الطفل وهو يسمع الحكايات فينسى نفسه وواقعه، من هنا تأتي قيمة قراءة الالتزام، وأعظمها القراءة الدينية؛ فإنها قراءة الأمر والنهي – أي قراءة الفعل–، ومن غير هذه القراءة تصبح القراءة حاجزًا تفصلك عن الواقع، وتفصلك عن الفعل وتفصلك عن التغيير، فأنت بحاجة دومًا إلى تقوية هذه الحقيقة، وذلك بالعودة لها كل يوم لتتذكر موقفك من الحياة، ودورك فيها، وحاجة الحياة إلى فعلك.

بعض مَنْ كَتَب عن القراءة لو حققت في قوله لوجدت أنه يتعامل معها كأنها مواد مخدرة لتغييب العقل وفصل الإنسان عن الحياة، ويجعلون تمام متعتها هو تحقيق هذا الهدف، وهذا في الحقيقة تدمير للإنسان لا تفعيل له، ولذلك حذار من هذه القراءة.

القراءة في التاريخ مثلًا فيها متعة الإبحار مع غير زمنك، لكن هذه المتعة لا تكون إنسانية حتى ينتهي هذا الإبحار بأن تعود إلى حياتك وأنت مليء بالعبرة والجواهر والفوائد.

ثم لا شك أن الرحلة شيء ضروري لتحقيق المتعة والتنفيس، لكنها يجب أن تكون متعةً ضمن مفهوم الالتزام وأداء الدور الفاعل المثمر.

إن أخطر ما يواجهه الفكر تحوله إلى مؤسسة، مع أن وجود المؤسسة ضرورة لتحقيق فعالية أي فكرة، وهذه المعادلة ليست متناقضة، وتطبيقها العملي هو واقع علماء الأمة ضمن دولة الإسلام، فهم جزء منها يدافعون عنها ويحاربون تحت رايتها، ولكن يرفضون بكل صلابة الذوبان فيها لئلا يفقدوا دورهم عاملًا مراقبًا مقومًا، وهيكلًا أقوى من كيان الدولة، وهذه القضية يطول شرحها كتبت فيها كتابي (لماذا انتصرنا؟) وأماكن أخرى، لكن ما يعنينا هنا أن من مفاسد انخراط العالِمِ "المفكر المبدع" في كيان الدولة يعطيه صفة الوظيفة والتي هي في حقيقتها تنطوي على ما يُسمى بتوزيع الأدوار، أي أن تملأ وظيفتك غير متعدٍّ على دور آخر –وظيفة غيرك–.

---

[٢٠] **لا أريد أن أدخل في خصومة لا طائل تحتها، وهو كون الإرادات تنشأ من المشاعر، فالموضوع ليس هذا**

هذا التوزيع يوجب على الواعظ أن يتقيد بدوره دون تعدٍّ، وعلى المفكر كذلك، وعلى قائد الجيش كذلك، ومع طول الزمن وإلف العادة وتقادم العهد يصبح الإنسان أسير التكوين الاجتماعي والثقافي لهذا السياق، فحينئذ تصبح بعض القراءات وسيلة قاصرة لصناعة المفكر لا المقاتل، والمنظِّر لا السياسي، والقائل لا الفاعل، وقراءات أخرى للعكس، وبالتالي تصبح القراءة لتوزيع الأدوار داخل هيكل المؤسسة، وهذا من أكبر ما يعتري القراءة من وهم، والخروج من هذا الإسار ليس سهلًا؛ لأن فيه خروجًا عن مفاهيم اجتماعية سائدة، وفيه مخالفة لقوانين ودساتير تؤدي بك إلى السجن والعقاب، وإنك إن فعلت ذلك فقد حققت أعظم مقاصد القراءة، وهو أن تصبح إمام علم وعمل.

القراءة ليست لتحقيق دور نمطي ترسمه لك المؤسسة –أي مؤسسة؛ من الدولة إلى العائلة–، بل هي لتحقيق فعالية إيجابية في الحياة، وهو تحقيق الشهادة على الخلق علمًا وعملًا، كما قال تعالى: {كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ}.

ما يقع اليوم أن القارئ المفكر يحبس نفسه داخل وهم الدور المرسوم له من قِبل المؤسسة، وهو أن يقول الكلمة فقط لا أن يمارس الفعل، وإن دعي إليه اعتذر بأن هذا ليس من عمله، هذا إن طلب منه، لأنه على الأغلب هذه المفاهيم تكون أفهامًا عرفيّة عامة.

قد يتواصل التنازل حتى يتم حصر القول نفسه ضمن مطالب محددة لا يتعادها، كما هو مطلوب اليوم من المفتي أن يتكلم في باب ولا يتكلم في غيره.

الحذر مطلوب من أن تتحول القراءة بمفهومها الشامل سدًّا مانعًا عن الفعل؛ فإنه لا قيمة للمعرفة بلا عمل، ولقد وصف أحد الأذكياء هذا الشذوذ بأن يصبح رأس القارئ كقبة المسجد ضخامة، لكن برجلين من أعواد الكبريت، فهو منطرح على رأسه دائمًا.

الإنسان داخل النص

النص الذي يكتبه الإنسان يكشف ويفضح كاتبه لا محالة، لا يكشف عقله ومستواه العلمي فحسب، لكن النص يتغلغل في خلجات نفسه وخطرات قلبه والتفاتات عينه، ويبصر ذلك كله بل وأكثر منه، وقيمة القراءة الحقيقية هي في اكتشاف هذا، ومتعتها كذلك؛ فهي تحضر لك إنسانًا لتبحر في فيه، في غرائبه التي يحاول سترها، وإخفاقاته التي يتملّص منها، وغروره الذي يتدثر به، وأشواقه التي تقلقه، فيفضحه النص وهو في مرات كثيرة لا يدري، فالإنسان رغم أنفه مخبوء تحت لسانه.

القراءة بهذا المفهوم عملية كشف جريمة قام بها صاحبها، والذي هو نفسه محقق جنائي يعلم قدرات من سيلاحقه، فخطط لها بذكاء وحرص شديدين على ألا يترك وراءه أي دليل يكشف عنه، وأنت بمهارتك تُنقب وتبحث وتحلل وتربط، وتفترض بسبر وتقسيم عميقين لتتكشف المخبوء، فالقراءة هنا ليست معرفة ما يريد الكاتب بل كشف ما يريد ستره وإخفاءه، والقراءة بهذا المفهوم قراءة للكاتب لا الكتاب، وجمال الكتاب وروعته في انطوائه على هذه الأسرار الخفية العميقة، والتي تكون عادة في كتب الصُّناع المهرة والخبراء طويلًا بسر الكلمة وروعتها وظلالها التي يسميها أهل الأصول بـ"الظاهر" تقريبًا للمراد، والتي سماها القرآن "لحن القول"، لكن بمعناه الشامل لا الجانب السلبي فقط، واللحن سواء قلنا هو الخطأ حيث يكبو المستتر ولا بد ليكشف نفسه، أو اللحن بمعناه الآخر وهو الرَّنة المرافقة للقول، والتي تكشف حقيقته المستورة، كما يعرف الصَّراف حقيقة النقد برنَّته.

هذه القراءة هي أعظم ما تكون عند العربي الجاهلي، وحقيقة النقد عند حكماء الكلمة فيهم هو ممارسة هذا الكشف، والذي هو في جانبه الآخر حكم على القائل في استخدام اللغة لتحقيق هذا الهدف، والجلوس على هذا الجانب عند مؤرخي النقد في زماننا، هذا الذي جعلهم يلتفتون إليها دون سواها، حيث ظنوا أن النقد كان قاصرًا على بنية اللفظ وقدرة قائله على المبالغة أو الوصف فقط.

هذه القراءة لا تعني التعامل مع اللغة كرموز؛ لأن الكتابة الرمزية في الحقيقة هي قراءة ترفع عنوان التحدي، وقد تبدو صعبة للوهلة الأولى، لكن صاحبها مرغم يتعمد ترك آثار جريمته، فهي كتابة لقصة جريمة لا صناعة جريمة حقيقية، وبعد عدة ممارسات تتحول إلى طفولة يستنكف عنها الكبار.

وهي ليست قراءة تأويلية –بمعناه الاصطلاحي–، لأن التأويل تحريف غير حميد، وإسقاط للنفس على النص، وهذا إفساد لأمانة النص وإزالة للفوارق حيث تختزل الكل في نفسك، وهو الذي قال عنه السلف: "قياس الغائب على الشاهد" بمفهومه الشمولي، إذ أن الإسقاط يجعل كل كاتب هو أنت، وهي نرجسية مدمرة.

قد يظن ظان أن هذه القراءة لا يمكن تعميمها على كل نص، وحتى تتأكد أنها أفضل القراءات فتعال لتراها جلية على أعظم نص في الوجود، وهو كتاب الله تعالى، ليكشف لك القول قائله قبل أن يكشف لك موضوع القول، وهذا التطبيق مراده أن تفهم الإنسان داخل النص، بحيث علمت الرب داخل النص الذي تكلمه، وهي عنوان الإعجاز كما سترى، فمن باب الفهم أن تعم هذا المفهوم.

مفهوم الإعجاز الذي أخضع العربي لحقيقة ربانية النص القرآني تكلم فيها الكثيرون، ولست بمتعصّب على أي قول؛ فإن كل ما قيل فيه هو محاولة لإثبات عظمة النص، حتى مفهوم "الصرفة" كما قال بعض المعتزلة مع خطئه ينطوي على الاعتراف بقدسية النص، فهو نص معصوم عصمة كونية، وهذا من لوازم قولهم بأن القرآن مخلوق، فالنص كوني: "كن فيكون"، وعصمته كونية: "أمر كوني: لا تفعلوا"، وهو اعتراف بالخصوصية والقدسية.

الإعجاز مصدره عجز المقابل أن يأتي بمثله، وهنا مجال التحدي هو "البيان"؛ أي الإبانة عن ننفس قائله، الإبانة الصادقة والتي تدوم ولا تتخلف، لأن الكذوب لا بد أن ينسى مهما كان ذكيًّا، وتحذير العرب للكاذبين: "إن كنت كذوبًا فكن ذَكورًا" لن ينفع أبدًا.

إذًا القرآن إعجاز بياني، وقبل أن نخوض في عظمة البيان من جهة موضوعه فنراه معجزًا، وقبل أن نخوض في نظم البيان فنراه معجزًا، علينا أن نخوض في بيان الكلام عن قائله؛ أي كشف قائله لا من حيث قوله: "أنا"، ولكن من حيث أن البيان إبانة عن النفس حتى لو تحدث عن غيره.

هذا البيان نزل على قوم يعظمون الكلام من جهتين؛ من جهة قدرة البيان على الوصف، وهو منطوٍ على الصدق والمطابقة بين الواقع والنص، ومن جهة قدرة البيان على المبالغة مدحًا وذمًا وفخرًا ورثاءً، وهذا لا يهمهم فيها المطابقة؛ لأنهم يتعاملون معه تعامل الفنان، وهنا لا بد من التجاوز، فالموضوع ذهني ولا يمكن فيه الخداع لأنه يحمل عنوان المتعة فقط.

عندما جاءهم القرآن رأوا في داخل النص عظمة القائل، عظمة لا يحسونها في داخل نص إنساني مهما صدق أو بالغ في تعظيم نفسه، عظمة أرهبتهم وذهلتهم وأخضعتهم؛ إذ النص يبين –يكشف– عن نفسٍ عظيمة، وربنا له نفس كما قال عيسى –عليه السلام–: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}.

نفس لا يعتريها الضعف قط، لا في ترهيبها ولا في ترغيبها، ولا في حال رحمتها ولا في حال عقوبتها.

نفس تنسب كل شيء لها نسبة الخلق والحاجة والإمداد والإعانة.

نفس تأمر غيرها أمر السيد، والله هو السيد لعبيده.

نفس تعلن استغناءها عن الجميع وحاجة الجميع إليها.

تأمل العربي هذا النص وتساءل من يقوله؟ لقد سمعوا قول الملوك وأحسوا فيها حاجة وضعفًا مهما تقنع وتخفى، وسمعوا كلام الشجعان ورأوا فيه اضطرابًا وحاجة لآخر، فعنترة يشتكي فرسه من تحته لكثرة إرهاقه له، فهذا نص وإن أراد صاحبه تعظيم نفسه إلا أنه إبانة عن حاجته لفرس.

وسمعوا كلام الأسخياء والكرماء ورأوا فيها الإنسان الذي يعرفون من أنفسهم.

لكن هذا النص يبين عن قائل ليسوا هم، فليس فيه ضعف الإنسان ولا حاجته، بل هو يجري مجرًى واحدًا هو أن قائله إلاه؛ غني كل الغنى، عظيم كل العظمة، يملك كل ما سواه، ولذلك خرجت منه الكلمة الواصفة لهذه القراءة حين سمع القرآن بقوله: هذا كلام لا يخرج إلا من إلّ –أي إلاه–.

هذه القراءة هي التي كشفت للعربي قائل القرآن.

هذه القراءة هي كقراءة الطبيب لجسد واحد يرفض أن يعترف أن العلة في نفسه، فهو يريد أن يعرف من أنت حتى صرت هكذا.

إنها القراءة التي لا تنتهي، وتجعلك تقرأ كل النصوص، فلا تهتم أمن النص يفيد معرفة قديمة لك، لأن النص هنا ليس لمعرفة الموضوع لكن لمعرفة الكاتب، كيف هو عندما كتب النص كما هو في بقية حياته ونفسه.[٢١]

---

[٢١] كنت أتمنى أن يحضرني ولو كتاب واحد حتى أمثل لك، لكن أرجو أن يكون هذا الفصل بضعفه كافيًا للأذكياء.

يمكن لك أن تقرأ النص كاشفًا لجغرافية الكاتب أو تاريخه أو مهنته أو للأحوال الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية، وهي التي تسمى اليوم بـ"البنيوية" بمعناها الأكاديمي، وهي قراءة علمية وذكية مثل ما ذكر ابن خلدون عن صديق له أخبره أنه أنشدد قصيدة لابن النحوي –ولم ينسبها– لكاتب من كتاب السلطان وفيها:

لم أدرِ حين وقفت بالأطلالِ ... ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال له الكاتب: هذا شعر فقيه.

فسأله: كيف عرفت؟

فقال: من قوله "ما الفرق"، إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب العرب.

أو كالأعرابي الذي سمع النبي ﷺ يصف رجلًا من أهل الجنة يطلب أن يزرع، فقال الأعرابي: هذا أنصاري، فإنهم أهل زرع.

وهكذا تمتد هذه القراءة وتتعدد جوانبها الخفية والكاشفة لكن أعظمها هو أن تعرف الإنسان فيها.

قد يعترض أحد على هذه القراءة من وجهين:

- أولًا أنها قراءة للمتقنين من الكتّاب، أما وقد فسد الذوق اللغوي وضعف البيان؛ فإن الكتابة اليوم لا يمكن أن تفيد في هذه الإبانة الصادقة والكاشفة، ثم كذلك لكذب الكاتبين ونفاقهم.
- والوجه الثاني: إن كتب الرواية كالحديث والسيرة والتاريخ قد تكشف الموضوع لا أن تكشف مؤلفها ومصنفها.

أما الجواب على الاعتراض الأول فهو: اعلم أن النص حتى لو كان مسروقًا فإنه يفيد في هذه الدلالة، ومن غير إبعاد للنجعة، وإبعادها هاهنا له فوائد؛ فإنه يكفي أن يكشف لك سرقة الكاتب ووهمه أنه لا أحد غيره يعرف النص من مصادره؛ أي غروره، وأمانيه بأن يكون مبدعًا لهذا النص، وفي مرات يكشف لك تذوقه للنص وهل هو متذوق راقٍ أم غبي، وهكذا.

ما نُسب إلى المتنبي من سرقات هل هي كاشفة عن إبداع أم عن جهالة؟!

إن المتأمل لكل ما قيل عن سرقات المتنبي لهي دليل من وجه على ثقافته الواسعة، وتصرفه البياني الذي يهدم ويبني بنفس اللَّبِنات.

وما قيل عن جرير وهجومه على معاني الشعراء في وسط النهار، يسلبهم إياها مهددًا إياهم وبقوة الهجاء أن يتخلوا له عنها، وكان يقول عنها: "سرقة لا توجب القطع"، على ماذا تدل هذه السرقة العجيبة؟! –لا حديث لنا في هذا الباب عن سارق غبي وقح، وإن كان يفيدنا أننا عرفنا بذلك–.

أما دعوى أن هذه القراءة لا تفيد في زمن ضعفت فيه حاسة الذوق البياني، فيُقال: هذه دعوى خطأ؛ لأن ضيق أدوات الكاتب هي دلالة على ضيق أفقه، وسعة أدوات الكاتب دالة على سعة أفقه، والمرء بحاجة أن يعرف البعر كما هو بحاجة أن يعرف الدرر، ومن سعادته في الحياة أن يضع الحذاء في القدم كما يضع العمامة على الرأس، وأما أن يجهل هذا كله فهي من دلائل شِقوته، والمصباح الذي حمله الأعمى في الليل وهو ذاهب ليستقي الماء إنما حمله لمن لهم أعين ولا يبصرون بها، بل يتبجحون بسعتها ولونها الأخاذ.

فالقراءة لك لئلا تضاجع الأفعى، وفنونها من أجل أن تسخرها لا أن تكون مسحورًا بها.

حين ترتقي فنون القراءة، وتنتشر القراءة الناقدة تقل الزيوف والأكاذيب، فكما أن الكاتب الجيد يصنع قارئًا جيدًا؛ فكذلك القراءة الجيدة تطرد الدجالين وقطاع الطريق وضاربي الكلمات الفارغة، وتجعلهم يعيدون رحلة التعليم من جديد حتى لو شابت منهم النواصي.

لقد كفانا الله أعداء الدين والكلمة بأن صرف عنهم القلوب والأعين فلا أحد يسمع لهم إلا هم، يصرخون ويسمعون صدى أنفسهم في وديان الغربة عن الأمة، لكن المصيبة في هؤلاء المنتسبين لهذه الأمة، والذين يرفعون لواء الدفاع عنها وكلامهم لا يعدو زيفًا خادعًا وترابًا رخيصًا، يتسترون وراء ألقاب كبيرة وصخب أتباع جهلة ويبرزون سيوف النصوص المعصومة من كتاب وسنة أو النصوص المقررة من كلام الأئمة الأعلام من أجل تحرير جهلهم وأفكارهم الضعيفة الخادعة، وإنه لولا وجود الفطرة ونماذج التاريخ لما بقي سليمًا من آفات هؤلاء المشعوذين.

أنا أعلم أن هذه القراءة هي فن العلوم كلها، وهي خلاصة ضوابط العلوم من نحو وصرف وأصول فقه وأصول حديث، وعلم نفس واجتماع واقتصاد وسياسة وعسكرية، والوصول إليها يكون عبر الارتقاء على هذه العلوم، ولا يمكن الوصول إليها –أي هذه القراءة– إلا بعد تجاوز هذه العلوم، والأمة تعاني ولا شك من ضعف هذه العلوم في نفوسها، بل هي إلى الآن لم تتجاوز تعلم مصطلحاتها، إذ كل ما يعلم اليوم هي المصطلحات وإن زادوا فبعض قواعدها، لكن لا يأس؛ فإن في هذه الصحراء الكثير من الواحات التي يراها المرء هنا وهناك باسطة الأمل بحمد الله تعالى.

أما الجواب على الاعتراض الثاني وهو تصور عدم وجود الكاتب في كتب الرواية الأثرية التراثية، فهذا باب الجهل الذي ولج فيه أعداء التراث من جهة، والأغبياء المنتسبون إليه بجهالة هذه الأيام من جهة أخرى.

البعض يظن أن كتب الرواية في التراث ككتب الحديث والسيرة والتاريخ هي مجرد أداء فقط لما سمع المصنِّف، أي أنهم سجلوا –حملوا– ثم بلغوا، وبالتالي لا يمكن قراءة الإنسان الكاتب في هذه الكتب؛ لأنه لا دور له فيها، لا في كون تصنيفاتهم تعبر عن مناهج، ولا كونها يمكن قراءة الإنسان فيها.

أما قضية المنهج فستُبحث في "مفاتيح الكتب" إن شاء الله تعالى، وأما قضية قراءة الإنسان فهذا موضعها:

ما من كتاب حديث وخاصة المصنفات والسنن والمعاجم إلا وجعلوا النصوص في أبواب وكتب، وجعلوا للأبواب والكتب عناوين تدل على آثار هذه النصوص في نفوسهم وعقولهم وقلوبهم، بعضهم يطيلها وبعضهم يقصرها، فالمصنف يروي غلته ويكشف عن نفسه من خلال هذه العناوين ومن خلال ترتيب هذه النصوص، وقد يعلق تعليقات يسيرة هي كافية لتحقيق منهجه ومراده، ولكن لننتبه أن كتب العلم ليست دواوين شعر، كما أن كتب العلم ليست مجالًا للحديث عن نفسٍ بمقدار ما هي حديث عن عقل، وبالتالي كتب العلم تكشف العقل الإنساني أكثر مما تكشف خلجات مشاعره وعواطفه، وبالتالي هي كشف لهذا الإنسان في أعظم غرائزه وهي العقل، كما أنها كشف لهمومه ومشاكل عصره، ومستوى عصره العلمي والثقافي.

كتب أهل العلم تكشف سهولتهم ووعورتهم، تكشف فقههم وتفاوتهم العلمي، تكشف جهودهم ورحلاتهم، إنصافهم وعدلهم.

الإمام البخاري بينه وبين شيخه علي بن المديني الشيء الكثير، ومع ذلك روى عنه في كتاب سماه (الجامع المسند الصحيح)، فأي نفس سامية هذه ؟!

ما من كتاب للإمام البخاري إلا وأثار رياح العلم وراءه، واختلاف الناس في تفسير مقاصده؛ من (صحيحه) إلى (التاريخ الكبير)، فعلامَ يدل هذا؟

حين تقرأ تراجم العلماء وما ورد عنهم من صفات من خلال مصنفاتهم فتدرك المطابقة أو المخالفة.

إن كتبهم تكشف عن قوة حافظتهم، كما تكشف عن تقليدهم واستقلالهم، وتكشف عن اعتقادهم وتصوراتهم. هذه المعالم الإنسانية وغيرها تتكون لديك من خلال نظرك في هذه الكتب، فلا تخطئ أبدًا في أن أي كتاب هو مرآة صاحبه، على أي وجه كان هذا الكتاب.

أصول القراءة الصحيحة

اعلم أنّ القراءة ليست هي الاستشهاد، فأنت حين ترى كاتبًا أو خطيبًا أو معلمًا يقتنص جملة من كتاب أو قولًا لقائل أو بيت شعر لشاعر فيقع في وهمك أن هناك جملة تغني عن كتاب أو قولًا يكشف كل القائل أو بيت القصيد –كما يسمونه– الذي يختزل كل القصيدة، فتكتفي بذلك وتظن أنك قد حصَّلت المراد وفهمت المطلوب، وتجعل هذه الطريقة هي قراءتك؛ فأنت على خطأ عظيم.

لا يوجد بيت القصيد الذي يُغني عن قصيدة، كما لا توجد قصيدة تُغني عن شاعر، كما لا توجد جملة تُغني عن كتاب ولا كتاب يُغني عن كاتب.

الكاتب الذي تبحث عنه –أي الإنسان– هو ذرات منتشرة في كل كلمة كتبها، وحين أن الكل مختزل في هذه الذرة تكون جانيًا على نفسك وعلى فهمك للأمور، فعليك لتعرف "النفس" كلها أن تمر على جميع ذراتها، وأن تجمع هذه الذرات في أماكنها الصحيحة، وإياك و"التشييء"؛ و"التشييء" هو الجمع غير المنهجي والإضافات غير الأمينة، كمن يريد أن يصنع هيكلًا لإنسان فتقطع الأجزاء فيركبه تركيبًا سيئًا ويستعيض عن بعض الأجزاء بأطراف حيوانات أخرى، ثم يزعم أنه أتى بالمطلوب.

هذا "التشييء" منتشر بكثرة بين القراء، ويبدو في أجلى حالاته السيئة عند "المستشهدين" بالأجزاء من الكتب أو من أقوال الكتَّاب، وكذلك عند الدارسين للكتب والكتاب، حيث يركبون الأمور –خلقًا آخر– لا يمتُّ للواقع والحقيقة بصلة.

في القراءة الدينية هذه علة العلل في افتراق الناس مذاهب وفرق، وهي أساس الانحراف قديمًا وحديثًا؛ يأتي المستدل ليأخذ النص معزولًا عن سياقه وسباقه، معزولًا عن غيره الذي قاله الشارع، مفصولًا عن البيئة التي مُدحت أفهامها فيه، طاردًا للفعل المثل والنموذج له، ليضعه في بيئة أخرى ومع نص آخر ليسقط عنه لزومًا معانٍ أخرى تحريفية.

هذه قراءة مشوهة وغير أمينة، ولذلك من أعظم مهمات أصول الفقه وأصول التفسير هو حماية النص من هذا "التشييء" لمنع الخداع، وإنه لباب عظيم في أصول الفقه لم يجد العناية الكافية في أيامنا هذه شرحًا وتوضيحًا وهو طرق ترتيب النصوص، وهو ما يسمى عند الأوائل: إعمال الأدلة، والذي له بعض المصنفات الحديثية تحت اسم: "مُشكِل الحديث"

أو "اختلاف الحديث"، ومقصدها ترتيب الأدلة في سياقات مؤتلفة غير متعارضة أولًا، ثم ترتيبها في مواضعها الصحيحة كترتيب أجزاء البدن تمامًا كما في المثال السابق.

كيف يبدو النص دليلًا لكل فرقة، وأساس النص هو الهداية؛ أي منع الاختلاف؟ إن كل محاولة لتجميل هذا الوضع تحت دعوى حرية الاختلاف والآراء هي محاولات فاشلة غير سديدة، وهي التي أعطت الحجة لأعداء الدين وإحياء أمته بقولهم: أي دين تريدون منا؟! وهي التي أعطت الحجة كذلك للمفتين الجهلة أصحاب قصة "اختلف العلماء" ليلفقوا ما شاءت لهم أهواؤهم من آراء وأقوال واختيارات.

وبعض الواهمين ظن أن كتب أسباب اختلاف العلماء ككتاب ابن تيمية (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، هي لإقرار الاختلاف وعدم محاولة رفعه، مع أن هذه الكتب هي لإعذار علمائنا ورفع الملام عنهم وعدم اتهامهم بأنهم أرادوا الاختلاف أو تبديل الدين، لكن ماذا نقول اليوم لمن يقول: "إن سبب قولي بحِلّ الغناء هو لعدم قبول الأفارقة لدين يمنع الموسيقى"؟! أو كقوله: "إن القول بعدم جواز قتل المسلم بكافر لا يتلاءم مع العصر"، أو كقوله: "إن منع انخراط المسلم في جيش دولة كافرة يؤدي إلى اتهام بالوطنية". فهل مثل هؤلاء يُرفع عنهم الملام، أو يُقال عنهم: إنهم أمناء على كلمة الله؟!

ولعله من التنبيه العلمي أن نشير إلى أن ما يسمى بـ"آيات الأحكام" هي تسمية غير صحيحة، ففقه القرآن وأحكامه تكون بعلم كل آية فيه، وسياقها وسبب نزولها –ظروفها–، ولذلك على من يستدل بآية من كتاب الله أن يكون عالمًا بكتاب الله تعالى بهذه الشروط وغيرها مما ذكره علماء التفسير. وما قيل من شرط: وهو عدم الخروج على تفسير السلف، إنما هو شرط جامع لهذه الشروط، وإن من عظمة كتاب ابن تيمية (مقدمة في التفسير) هو بيان أن تفسير السلف لا تعارض فيه كما يبدو للقارئ المبتدئ، وكتابه يدخل دخولًا أوليًا في هذا الباب وهو "إعمال الأدلة" التي ظاهرها التعارض وليست كذلك.

إن من أعظم أسباب امتهان الدين اليوم، واستخدام نصوص لكل أحد هو هذا "الانتقاء الشهواني"، وإلباسه للدين ورفع شعار القداسة عليه.

هذه الخطيئة مع النص المعصوم من كتاب وسنة هي عينها التي تمارس اليوم على كل القراءات والنصوص، وإن شئت فانظر إلى الفرق المتناطحة والمناهج المتعارضة والمفتين المتشاكسين وكلهم يزعم أنه يقتدي بابن تيمية في فهم النصوص الشرعية.

من قاتل الدولة فدليله ابن تيمية، من قاتل مع الدولة فدليله ابن تيمية، ومن هجر المجالس البرلمانية فدليله ابن تيمية، ومن جعل دخولها واجبًا كفائيًا فدليله ابن تيمية.

وهكذا تمتد القضايا وتتشعب، والطريقة هي: نص يؤخذ ثم يملؤه القارئ بمفردات خاصة به دون أن يعرف أصول "الكاتب" والتي لا تُعرف إلا من خلال قراءته كاملًا، وقراءة استقرائية عميقة، وهي الأصول التي من حقها أن تحدد مفردات النص العملية والواقعية.

ما ترونه اليوم من ميل أهل "اختلف العلماء" إلى أهل الرأي، وظنهم أن قواعدهم مبنية على إدخال "الرأي" بمعنى الشهوة، وإدخالهم "العقل" بمعنى "النتاج الإنساني" وإدخالهم "البُعد الإنساني" بمفهومها المعاصر لحقوق الإنسان، وإدخالهم "المصلحة" بمعناها الشخصي والذاتي، فهل هذه بحق قواعد فقهاء "أهل الرأي" من الأحناف وغيرهم من أهل العراق؟! أو هل هي بحق قواعد "المالكية" أو هل تمتُّ إلى الفقه بصلة؟!

إنها القراءات "التشييئية" لا أكثر ولا أقل، والقراءات "الإسقاطية" بمعناها الواضح الصريح، هذه القراءة الفاسدة قراءة لا تقتصر على النص الديني المعصوم، ولا على قراءة "الفقه والفتوى" ولكنها قراءة الكثيرين اليوم في دراستهم وأبحاثهم، وهي قراءة الكسالى من عموم القرّاء.

هناك مسألة شائكة حول القول "بحوادث لا أول لها"، لها علاقة بفهم الكون ونشأته، ولها علاقة بفهم النص المعصوم، ولها علاقة بمن يقول هذا القول وينفيه من الفلاسفة والعلماء.

ابن تيمية أثارها في داخل الصف الإسلامي حيث كانت محسومة كمصطلح يتصارع عليه المتكلمون والفلاسفة، وقد حُسم الصراع بأن الفلاسفة كفار للقول به، قال المتكلمون، وجاء ابن تيمية ليناقشه ضمن رده على أصول المتكلمين وفهمهم ولوازم ما يعتقدونه في صفات الله تعالى.

هناك من القدماء والحديثين من هو عدو لابن تيمية لعموم منهجه ودعوته فرآها فرصة لإخراجه من الملة.

وهناك من دافع عنه بأن زعم أن هذا ليس قوله، بل قول قاله في سياق المناظرة.

وهناك من نسبه له على فهم الفلاسفة، ولا أثر لموضوع "القدم النوعي" ومعناه في تفسيره لكلام ابن تيمية كما فعل جعفر الشيخ إدريس.

ولكن أقول "وباعتذار" أن كل هذه القراءات قراءات (تشييئية) و(إسقاطية) لا يوجد فيها قراءة أمينة شاملة[٢٢].

مثل هذه المسألة ومسائل حولها لا تحل إلا بالقراءة الشاملة الأمينة والناقدة.

إن هذه القراءة —وهي الاستقراء التام–، هي التي قامت عليه علوم الشريعة، وما زالت الكثير من القضايا تحتاج إليه، فلا يوجد علم يُقال عنه "نضج واحترق" كما وصف بعض أهل العلم بعض العلوم، فإن العلوم الحية تأبى هذا الوصف، وليس هناك مثل علوم الشريعة حياة.

لو تأملت علم الحديث وأخذت بعض أجزائه كالجرح والتعديل، فإن أساس هذا العلم هو استقراء الرجال؛ دينهم وسلوكهم، رواياتهم ومقارنتها، تاريخهم ورحلاتهم وعلاقتهم، أزمنة علاقاتهم وأماكنها ...، فلا تترك قضية دون وصفها للدراسة والبحث والتقويم.

إن الاستقراء التام والاستنباط العميق بصبر وأناة وأمانة ومنهج صارم دقيق. هذه القراءة لا تخطئها في أي حال، ومع أي كتاب ومع أي كاتب، فلا تعتمد على الإحالات ولا على الشواهد ولا على الفهارس.

افتح الكتاب من أول حرف فيه، وتمهل معه مستنطقًا إياه، راشفًا روحه إلى آخر حرف، اقرأ هوامش صاحبه، دقق في علامات الترقيم، تأمل التقديم والتأخير، حتى تنتهي إلى فهرسته، فالفهرست وصناعته علم قد تعرف من خلاله موطن الرجل ومنهجه، فهل تعلم أن ترتيب الحروف عند المغاربة غير ترتيبها الأبجدي عند المشارقة، إذ المغاربة يرتبونها كالتالي: أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، ز، ط، ظ، ك، ل، م، ن، ص، ض، ع، غ، ف، ق، س، ش، هـ، و، ي.

وأظن أنك تعرف طريقة المشارقة.

مع التنبيه أن من يعتمد على الفهرست للقراءة مظنة إفساد الاستقراء التام.
ومن فوائد همة تجار الكتب اليوم في جني المكاسب، أنهم قدموا فائدة للقارئ النّهم وهو ما يسمى بـ"الأعمال الكاملة" فاحرص عليها، وإن كانت بعض الكتب تتطور بطور أصحابها فأنت بحاجة لمعرفة البدايات وكيف هي، فإن لكل كتاب تاريخًا دالًا على أمور متعددة غير تغيّر بعض آراء الكاتب.

اقرأ عنوان الكتاب "بعناية" فهو مهم في معرفة الكاتب ونفسيته ومنهجه ومقدار تذوقه، تواضعه أو تبجحه، سهولته أو وعورته.

---

[٢٢] **سمعت أن باحثة جادة خليجية كتبت فيها رسالة علمية قرظها وقدم لها سفر الحوالي ولم أقرأها، وهي من أمنياتي.**

بل هذه الأيام لا تخطئ قراءة دار النشر، فمن هو القارئ الجيد للتراث ويقع في حبائل "دار الكتب العلمية" إلا أن يكون مضطرًا.

اقرأ تاريخ النشر وعدد الطبعات، اقرأ اسم المحقق إن كان كتاب تراث، اقرأ اسم المراجع كما تقرأ اسم المؤلف، وكما تقرأ اسم المترجم.
تعرف عليهم ماذا كتبوا وما هي مناهجهم وماذا قال عنهم أهل الفكر والعلم والمعرفة.

القراءة كالتحقيق الجنائي؛ فهي توقيف كل شيء، والتدقيق في كل علامة، وتحليل كل دليل، من أجل الوصول إلى صورة كاملة غير منقوصة، فالمعرفة الناقصة مُضِرة في أحيان كثيرة.

إن ما تراه من بعض الكتّاب من جهالة وضحالة لا تتناسب مع كتبهم، أن كتبهم مجرد التقاط وانتقاء للسطور من كتب لا يعرفونها إلا من خلال الفهرست فقط، فهم لا يحملون أي معرفة وعلوم في عقولهم وقلوبهم، بل يصفّون الحروف ولا يقرؤون، فتبدو كتبهم منسقة بالإحالات وكثرتها مع عدم وجود العلم عندهم، كما هو شأن حملة الكثير من الشهادات الجامعية كالدكتوراة، فتراه كاتبًا للكتاب ولكن على فراغ داخلي، وحينئذ يتمايز الناس في طبقاتهم بحسب القراءة، كثرتها وقلتها، ونوع قراءته، وكيفية قراءته، فالكلمة الواحدة ينطقها الرجلان فتحس أن الفارق بينهما كبير وشديد، فهذا ينطقها ويكسوها بمعارف أخرى، ويعمم صلاتها المعرفية، ويحفر تحتها؛ في أصولها وجذورها وآثارها وتداعياتها، وأما الآخر فيلقيها عليك جامدة ميتة تحس أنه يلقي حجرًا مجردًا لا فن فيه ولا نحب ولا تشكيل، وسبب هذا كله هو افتراقهما في "فن القراءة".

في الوسط الإسلامي ينتشر اليوم إطلاق عبارات "الجرح والتعديل"، بطريقة فجة لا عمق فيها ولا دراسة، وتصنيفات عامة غائمة قائمة على "الزُّمر"، فكل ما يلمع ذهب، وكل بيضاء شحمة، وكل من ليس معنا لفظًا فهو في زمرة الآخرين، ظانين أنهم بهذا يقتدون بالسلف، ولم يعد أمرهم إلا لبس شعار السلف على أبدان مزيفة لا تمتّ للسلف بصلة؛ فهل جمع السلف "المعتزلة" في خريطة واحدة ثم ختموهم بلا وعي ولا تمييز؟!

من قرأ كتب الرجال وكتب الفرق رأى بصرًا شديدًا وأمانة غير منقوصة في دراسة دقائق كل رجل، والاطلاع على ما قال وما كتب، فيميزونهم تمييز المطلع العارف بأقوالهم من مصادرها، ويكون "ضعف" أي مصنف في الاعتماد على التعميم أو الإحالات، فما أحرى طالب العلم اليوم أن يفهم هذا؟

حدثني أحد الإخوان أن الدكتور محمد عابد الجابري زار الأردن وحاضر في الناس بدعوة من مؤسسة عبد الحميد شومان، وكان هذا الأخ طالبًا في درجة الماجستير، فيتحدث لأستاذ جامعي من كلية الشريعة عن المحاضرة سائلًا رأيه فيها إن كان حضرها، فقال الأستاذ: من هذا الجابري؟! فأخبره عن بعض ما يعرف وما يقال، فقال الأستاذ: هؤلاء لا خير في السماع لهم ولا قراءتهم. وانتهى الجرح والتعديل.

لم يتكلم أحد من السابقين من أئمتنا في أحد حتى استوفوا أمره بحثًا ودراسة ولاحقوه إلى درجة تزيد عن فعل دوائر المخابرات هذه الأيام، يستقصون كل شيء عنه حتى خرجت منهم كلمة واحدة في حقه، واليوم يطلقها أطفال لا يعرفون شيئًا عن الناس سوى عمومات غائمة التقطوها من أفواه الآخرين ثم يحسبون أنفسهم على منهج السلف والأقدمين.

إنه عصر الشعارات الفارغة!

خصوم التراث مصيبة من المصائب وعاهات بشرية مخيفة، لا يعرفون شيئًا عن تراث الأمة، بل إن قرؤوا شيئًا قرؤوه بعيون الآخرين ومن كتبهم وعلى مناهجهم، مع أن كتب التراث متوفرة بين أيديهم، ثمّ بعد ذلك يطلقون أقسى العبارات وأشدها دون عقل ولا روية، والواحد منهم يمتدح الغرب أنه هو الذي عرفه بتراثه وتاريخه ورجاله، إنها قلة حياء يأباها فنانو الطبخ هذه الأيام، وإلا فما معنى –بالله عليكم– أن تقرأ فرق الإسلام بعيون براون وجولديزر وأوليري وكارا دي فو ونكلسون، أو أن يقرأ المعري بعيون مرغوليت أو نكلسون، أليس هذا من قلة الحياء وفساد التصور وضعف العلم؟!

إن هؤلاء المستشرقين لم يعدُ أحدهم أن يفهم اللغة لا أن يتحسسها أو يتذوقها، لا أن يفهم أسرارها ومشاعر أصحابها وطرائق تفكيرهم، ثم يقتحم بقلة أمانة أعظم خزائنها –وهو الشعر والأدب–، ليقول فيه برأيه، أو أن يقتحم أعظم البيان وأخطر القضايا –وهي القضايا العقدية التصورية– ليقول فيها قولًا يتناقله أهل اللغة أنفسهم.

إنها والله فاقرة في العقل، سماجة في النفس، مهزلة من مهازل عصر الانحطاط.

إن الذي يستحق وصف العالم بالتراث هو القارئ من مصادره، الغائص في أعماقه لا الغامس بطرق أصابعه في شطآنه، العالم بأصول القوم ومناهج دراستهم لا الناقل لعبارات لا يعرف وجهها ولا كيف صارت، وبالتالي الدعوة إلى القراءة الشاملة الناقدة هي دعوة لهضم التراث والذي لا يصح التجديد إلا بها كمقدمة واجبة لا انفكاك عنها، فالتجديد يعني هضم القديم والإحاطة به مع الإحاطة بالجديد الحادث ليتم التطوير العلمي الصحيح.

وهذا كما تكونت كل أصول العلوم في تراثنا؛ كما تكون أصول الفقه، وكما تكون علم النحو وبحور الشعر، فإنها كلها قامت على القراءة الشاملة لكل مفردات الموضوع ثم سبرها وتقسيمها بإعادة كل نظير إلى نظيره وشبه إلى شبهه، وبذا تكونت القواعد، وصحّ لما أنتجوه أن يسمى تجديدًا وإحياءً.

إن موضوع القراءة وإن بدا متعة ورغبة في أوله -كما قال الإمام أحمد-، لكنه في حقيقته معركة ودين وإثبات وجود وإعلان هوية، وحين تبلغُ هذه القراءة تكتشف كمًّا هائلًا من اللاعبين الجهلة والأسماء الكبيرة الخاوية والدعاوى الفجَّة، وحينها تكون ثقتك بأمتك ليس شعارًا بلا مضمون، وليس عاطفة بلا علم بل تكون علمًا وعملًا لحقائق الحياة.

منهاج المؤلفين ومقاصدهم: مفاتيح الكتب

مضى الأوائل على سُنّة عندهم كانت حميدة، هي معيار اختبار القارئ من قبل الكاتب، نعم؛ الكاتب يختبر القارئ ولا تعجب، وهي معيار العلماء، في فرادة الكاتب وإبداعه.

هذه السنة هي قذف الكتب كاللغز بلا مفتاح، ورمي الجمل والقواعد والحكم من غير بيان المكونات وطريقة الصنع، هي سنة العلم وهي روح الكتابة والقول عندهم، حتى صرنا إلى زمان لا يُتَّهم الحكماء من البشر بالاضطراب والعبثية فقط، بل إن سعار هذا الاتهام يُردِّده المأفونون ضد الحكيم المطلَق والمبدِع الكامل وهو الله تعالى؛ إنه سعار الجهل والكفران؛ كفر الاعتراض والإنكار الذي قال عنه ﷺ: (من لم يشكر الناس لم يشكر الله)، فمنهج الجهل لبّه السّعار الذي يعض الرفيق كما يعض المحسن، والسبب هو السُّعار والسُّعار فقط.

على الرغم من محاولة إثبات البعض أن إعجام الحروف كتابة كان قديمًا إلا أن المشهور هو عدم الإعجام -أي تنقيط الحروف تمييزًا لها عن المهمل-، ولم يكن لديهم الترقيم، ولا كتابة الحركات النَّحوية كالفتحة والضمة والكسرة، لأن كتابتها هي أشبه برجل أرسل صورة لأهله وهو فوق الحمار وكتب تحتها: أنا الراكب والحمار تحتي! وهوا اتهام صريح أن أهله لا يُفرِّقون بينه وبين الحمار، وهكذا لو وجدت هذه في زمان العلم، وإنما تحدث هذه وتشيع حين ينتشر الجهل ويُخاف الَّلبس من قِبل قارئ لا يفهم حتى يؤخذ بيده كالضرير تمامًا لا بصر عنده بشيء.

إن كل محاولة جرت في تاريخنا لإنشاء قواعد وأصول لعلم من العلوم إنما مبعثها -إجماعًا- هو خفاء هذه الأصول في نفوس الناس، إذ يزداد الخطأ وينتشر الخلاف، وحينها يضطر أهل العلم لإظهار هذه القواعد حتى ترفع الخلاف وتقضي على الأخطاء ما استطاعت سبيلًا.

كانت القواعد والأصول ذوقًا علميًا يتغذَّاه المرء مع تغذيته للعلم نفسه، ويرشفه روحًا تُغلغل كل مفردة يحفظها أو يسمعها، ولا يؤذن للمرء أن يقول إلا بعد أن يتأكد سلطان العلم من خلال مرجعية العلماء الحاضرة -من خلال سلطان العلم فقط- أنه بلغ مبلغ الإدراك لهذه القواعد.

الإفتاء لم يكن يقوم على السماع وكثرته ولا على الحفظ ومرتبته فقط، بل لم يكن يُسمح للرجل أن يفتي حتى يتأكد أهل السلطان من العلماء أنه استجمع هذه الروح وبلغ هذه الذائقة بلوغًا كافيًا للإفتاء.

تصنيفات المحدِّثين لم يحكم عليها العلماء من خلال كثرة المرويات والشيوخ فقط، بل ليس هذا هو المعيار الأول ولا الثاني في الحكم، إنما الحكم على المصنفات من خلال كمية استجماع المصنف لهذا السر الخفي.

أهل الحديث معيار علم الرجل عندهم هو "باب العلل"؛ أي المسائل الخفية في الحديث الذي لا تُسبر بالظاهر بل لا بدّ من الإبحار في جوها الباطن، وهو الذي سماه أهل هذا العلم بـ"السحر" أو "الكهانة"؛ لأنه مجهول خفي للمتلمّس في شُطآن العلم أو الواقف على حروفه، معلوم مُدرَك بوضوح عند أهل الغوص في الُّلجج وقاموس البحار.

أبو زكريا الفراء إمام أهل النحو في عصره –وقد لُقّب بأمير المؤمنين في النحو– شنَّ عليه معاصروه الحروب لأنه أراد تسهيل النحو حتى يكاد أن يصبح ألعوبة بين الصبيان، وهم يأنفون أن يصبح العلم بهذا المستوى –أنا لا أُبرِّر فعلهم ولكن أُفسِّر هنا فقط–، فهم كانوا على وعي كامل أن الجواهر لا تُقلَّد للخنازير كما أوصى عيسى –عليه السلام–، وهذا عندهم من الغيرة على الجمال والدرر.

فهم لم يكتبوا المقدمات لكتبهم إلا ما ندر، كما فعل الإمام مسلم في صحيحه وبعض القليل من فعل الطبري في تاريخه، وبالتالي لم يشرحوا مناهجهم ولا طرائقهم في البحث؛ لأن كتبهم لأهل الصَّنعة الخبراء، ولا يُقدِم على التصنيف إلا المبحرون هناك بعيدًا في الفرادة والتميز.

هذا الكلام لا نقوله دخانًا لستر شيء قليل، ولا من أجل تقليدهم في صنيعهم ومناهجهم في التصنيف، إنما لأنه الحقيقة، ولإيقاف هذا السَّفه الذي تمارسه طائفتان: أعداء التراث والعاملون فيه بجهل مع حسن نية، وهؤلاء دائمًا في المواجهة ضد العلم. وحتى تقرأ كتب الأقدمين من خلال أبوابها في زمن يقفز الناس فيه إلى البيوت من السقف بعد تخريبه.

إن علة عدم إدراك مقاصد المؤلفين توقع في التقليد القبيح كما شكى ابن خلدون في مقدمته من متأخري المؤرخين، حيث بين في بداية (المقدمة) أن ما يصنعه هؤلاء المتأخرون من تقليد الأقدمين في ذكر اسم الخليفة ونسائه وخاتمه إنما حملهم عليه: "التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الأقدمين".

وفي زماننا هذا يقوم مصنف بجمع الأحاديث المسندة في طبقات ابن سعد ويضعها في كتاب يسميه مثلًا (سنن ابن سعد) أو طائرًا في زمان الفخر: (الجامع المسند من سنن رسول الله وسيرته وأيامه)، ثم يقدِّم لنا مقدمة كالسّياط جلدًا أن علم تصنيف السنن والمعاجم والمصنفات صار علمًا مجهولًا وخاصة في أسرار الأبواب وألفاظها، ناسيًا هذا المتبجح أن يُعلِّم

نفسه طرائق أهل العلم ومناهجهم في تصنيف السنن؛ فلا يدري معنى الاختيار والانتخاب، ولا معنى ذكر حديث دون غيره في المصنف، وبالتالي هو الذي يستحق الدخول في وصف ابن خلدون: "التقليد والغفلة".

وإن الغفلة عن مقاصد المؤلفين ومناهجهم هي التي أوقعت الشيخ الألباني في فاقرة من الفواقر، وهي تجريد السنن الأربعة من أسانيدها وتقسيمها إلى صحيح وضعيف، فإن فعله هذا ليس من العلم في شيء، لا أقصد اجتهاده في الحكم على علم الأحاديث فهذا علم يُقبل منه ويُرد، إنما أقصد ما تقدَّم من تجريد السنن من الأسانيد ومن التصرف في عمل المصنف.

الإمام أبو داود السجستاني –رحمه الله– عندما ألّف مصنفه (السنن)، ألم يكن بوسعه أن يختار الطبقة العليا من الأسانيد الصحيحة لينتخبها في كتاب كما صنع الإمام البخاري ويسميه: "الصحيح"؟! ثمَّ ألم يكن يدرك أن في كتابه ما هو من رواية الثقة وما هو قريب من رواية الثقة كما ذكر ذلك في رسالته لأهل مكة؟

إن كنا نعلم أن هذا من أوليات معرفته؛ فلم لا نحترم مقصده في أنه صنف كتابه على هذه الصفة؟ بل ذهبنا ندمِّر كل هذا المقصد، والذي ثبت في منهجيته، ثم ألزمناه أن يعبر من خلال أحكامنا ومنهاجنا، وهي مناهج لا تَمُتُّ إلى نشر العلم بِصِلة، بل هي تكرِّس الجهل بمناهج الأقدمين في باب التصنيف والانتخاب والأحكام والفقه، وتُلزم الجميع أن يأتوا إلى باب آخر ليدخلوا منه إلى الحديث والحكم عليه، والفقه وأدلته.

تأملوا (سنن الترمذي) وما فيه من إبداع عجيب، شغل الناس بعده بهذه المصطلحات التي هي أدق من ميزان الدرر، وهذه التعليقات على الشواهد والمتابعات كيف دُمّرت وقضي على علمها، والتي هي روح علم الحديث، دمرت على يد الشيخ ناصر في صنيعه على (السنن).

إنه لا يدافع عن فعل الشيخ إلا تاجر يبتغي الربح أو مسترق بالتقليد، وتأملت هذا الفعل منه فلم أجد له حجة سوى الدعوى أنها "لتقريب السنة بين يدي الأمة" كما هو شعار الشيخ، وإنه لكافٍ للعوام في هذا الباب (صحيح الجامع الصغير وضعيفه)، وكفى اللهُ كتب المصادر من هذا العبث المدمر لها ولعلومها ومناهج أصحابها.

وما يقال عن فعل الشيخ في (السنن) يقال في (مختصر صحيح البخاري)، بل هنا يقال أشد مما قيل هناك، فهذا الكتاب الذي استهزأ أحد من المعاصرين جهلًا من اشتغال أهل العلم في سر تبويبه الذي قال عنه الأقدمون: "فقه البخاري في أبوابه"، هذا الكتاب –صحيح البخاري– أتى الشيخ الألباني على كل خصوصيات البخاري ومنهجه ومقاصده فيه هدمًا

وتدميرًا وإزالة، أقول كلها بلا استثناء، وإنه لا يرضى عنه إلا الجهلة الذين انتشر فيهم اليوم القول: "هات الخلاصة"، وإني لأخاف انتشار هذه السنة السيئة بين أهل الجهل اليوم من المُسترزِقين من التراث تقليدًا للشيخ وطلبًا للمال.

هذه الأفعال مبعثها شيء وحيد هو عدم النظر إلى كتب أهل العلم كشخصية علمية لها سماتها التي تشكّل عقلية العالم وإبداعه، بل هي تنظر إلى الكتب باعتبار شيء واحد هو المفردة العلمية الواحدة معزولة عن المنهج ومعزولة عن كونها جزءً من كل؛ وهو الذي يقال فيه بحق "العقلية الذرية"، وهذه سمة هذا العصر بكل انحداره وانحطاطه.

انظر إلى أفعالنا الجاهلة فيما يسمى بالتحقيق لكتب التراث، واحد يأتي إلى كتاب أصول فقه ككتاب (الموافقات) ويبدأ فيه تشويهًا وتقبيحًا، وتزويرًا لعقل القارئ وصرفًا عن مقاصد الكتاب بتضخيم الهوامش لحديث رواه البخاري ومسلم، وكأن كل الكتب العلمية صارت كتب تخريج، وليته تخريج علمي؛ لكن مجرد صناعة فنيَّة وإحالات تتكرر هنا وهناك تكرارًا قبيحًا وسرقة وقحة فاسقة.

يا طلبة العلم –بالله عليكم–، فرِّقوا بين كتاب تخريج وكتاب أصول فقه وكتاب نحو وكتاب فكر وكتاب تربية، بل اتركوا كتب التراث على حالها ترسم شخصية الكاتب وسمة الكتاب، وإن كان عندكم شيء من العلم؛ فما هو مطلوب منكم الكثير، وما هو من مجالات الإبداع واسع عريض، فاتقوا الله إن كان همكم العلم والتراث.

هلّا تعلمتم من أئمتكم الأوائل في التحقيق كالشيخ عبد الرحمن المعلمي الذي يعُدُّونه ذهبي هذا العصر؛ حيث يظهر من فعله الفرق بين الإخلاص للعلم وبين أفعالكم الدالة على سُعار التجارة والاسترزاق القبيح.

هذه بعض مظاهر –وهي كثيرة في واقعنا– الغفلة عن مقاصد المؤلفين ومناهجهم وفي الوسط الديني المُحِب للتراث، فماذا نقول عن الذين هم في عِداء صريح مع هذا التراث؟!

هذا باب ربما سأتكلم عنه القليل، لكن أُوجِب وأُلزم القارئ إلزام العلم والنصيحة أن يقرأ كتابين عظيمين ويسعى لهما سعيه إلى رائحة من روائح الجنة، وهما للدكتور محمد محمد موسى أولاهما: (النقد البلاغي)؛ وهذا كتاب –أُشهد الله– أنه لو وُزن بالماس لكان قليلًا في حقه، وإن رجلًا مخلصًا لله يأتي معه هذا الكتاب يوم القيامة في الدفاع عن الأئمة لرجلٌ ثقيل الميزان، وأما الكتاب الثاني فهو (تعليقه ونقده على القوس العذراء) لمحمود شاكر، والذي هو نسمة من نسمات الكتاب الأول.

حين يتكلم حكيم بكلمة تستحق صفة الحكمة فما هي أسرار صناعتها؟ ولماذا تفترق هذه الكلمة عن كلمات كثيرة يقولها غيره؟!

الكلمات لا تشتبه في مقدارها إلا كما يشتبه النقد المزيف على الغفل الجاهل، وأما الناقد الخبير فإنه لا يخطئ في التمييز، والكلمات كالنقد، والناس في كل عصر يتكلمون ويفعلون، لكن هناك خبراء ونُقَّاد الكلمة يراقبون ويميِّزون ويلتقطون العوالي من الدرر، ويأخذونها ربما منثورة ويقومون بفَتْل العِقد لها لتنتظم في لوحات بديعة راقية؛ وهؤلاء الخبراء يعرفون مقدار النَّصَب والجهد اللذين بُذلا لاستخراج هذه الجواهر، فهي فريدةٌ عزيزةٌ، وهي تختزل في داخلها جهودًا وطاقات وعرق ودماء، بهذا تتميز النقود عن الزيوف.

فهناك حكمتان: حكمة استخراج الجواهر وحكمة نَظْمها، وتكتمل الحكمة في اجتماعهما، حيث يستخرجها المرء وينظِمُها في كتاب تقف منه عقول الحكماء مبهورة محبوسة الأنفاس لا تنطق إلا أن تقول: "إنه لسحر!".

لا يوجد كتاب للأقدمين إلا وفيه هذا السر، ولا توجد كلمة حملت الاحترام إلا وفيها هذا النهج والسبيل. سأضرب لك مثلًا هو كالطُّرفة لكنه يعين فهمك للمراد:

كان العماد الأصفهاني صديقًا للقاضي الفاضل وكلاهما من عُمّال صلاح الدين الأيوبي، فمرّ القاضي على فرسه أمام الأصفهاني، فقال الأصفهاني: "سِر فلا كَبا بِكَ الفرس" فردّ عليه القاضي بديهة: "دام علاءُ العماد".

هذه حادثة تُذكر في ترجمة القاضي لتدل على سرعة بديهته وتفنّنه في القول، وهي لا تدل على هذين الأمرين إلا بإدراك السامع سرّ الكلمة وما فيها من دلائل على السرعة والتفنُّن.

سأترك للقارئ البحث عن السر وأنتقل به إلى حادثة أخرى للإعانة:

حضرت امرأة أُخذت في تهمة للحجاج، فسألها عن الأمر فقالت: "لا والذي أخلى نصف القرآن من كلا"، فأطرق الحجاج قليلًا، -وكان الحجاج من المتقنين لكتاب الله مع إجرامه، حتى إنّ وِرده كان قراءة القرآن كل أربعة أيام، وهذا ليس بغريب عنه وهو الذي بدأ حياته معلمًا في كتاتيب القرآن-، واسترجع الحجاج مستعرضًا قول المرأة على كتاب الله، فأدرك صدق قولها، ولم يكن الحجاج ليعرف صدق قولها إلا بعد أن استعرض مفردات الحكمة وهي: "هل نصف القرآن لا يوجد فيه كلمة كلا"، وهو لا شك صحيح.

من هنا كانت تكمن قوة الحكمة وهي عمق دلالتها على أفرادها العلمية والعملية، ثم كيف انتظمت في هذا السلك البديع، وتكون ميزة الحكمة في مقدار دلالتها على خفاء المفردة التي لا يبصرها إلا المنقِّبون في البواطن، والذين يلحظون ما يخفى لا على العوام بل إنه يخفى على العلماء وأمثالهم من الحكماء، فهذه مراتب تكوُّن الحكمة إذًا:

١. كمية هائلة من المفردات العلمية والعملية كامنة في الصدور.
٢. عين حاذقة تغوص في بواطن الفعل والقول إلى درجات لا يصل الآخرون إليها في العادة؛ وذلك في فهم آليات الفعل والقول وأجزائه وأسراره وأسبابه ونتائجه، وصلته بغيره وتميزه عن هذا الغير.
٣. عقل استقرائي يدرك حكمة الرب في الخلق والقول، وهو التعدد في داخل الوِحدة؛ فكل حيّ مثلًا من إنسان أو حيوان وطائر وحوت وحشرات، مع تعددها وكثرتها واختلافها تنتظِمُها الوحدة الجامعة، وهي أنها كلها تعود إلى أصل واحد وهو الخلية[٢٣].
٤. ذوق بياني قادر على صياغة كل الخلق داخل الكلمة، الخلق داخل الإنسان وخارجه.

وإن صنف كتابًا لهذه الحكمة زاد مرتبة أخرى: امتلاك ما يسمى اليوم بالعقلية "الاستراتيجية"؛ فالكتاب كالكتائب؛ الجذر اللغوي لهما واحد، لا يقدر على إدارتها إلا القادة "الاستراتيجيون"، وقد ترجم بعضهم هذا اللفظ عسكريًا ب"السوقيين"، وأما كلمة "جمهرة" فلا تكفي في الدلالة عليه إذ هي لا تعبِّر إلا عن المرتبة الأولى في الحكمة.

هذه المراتب هي التي تشكل الاختيار من الكثير المحفوظ، وتعبِّر عن منهج المؤلف في الاختيار وهي بالتالي تميّز بين المبدع السابق والتالي الجاري على سننه.

هذه هي السمات العامة التي يجب على القارئ اليوم أن يستحضرها مع كتب الأقدمين ومع حكمتهم وأحكامهم، وأما النظر إليها من خلال كل مفردة مقطّعة الأوصال لا رابط بينها، وبنظرة قاصرة أن القوم سمعوا فأدّوها كما سمعوا، فهذا هو عين الجهل بكتب القوم وعقليتهم، وهي قراءة تجني علينا، وأما القوم فلا يضر الجبال قرع النّعال.

تأمل هذه السمات في كتاب (الحماسة) لأبي تمّام وكذا كتابه (الوحشيات) هل هي موجودة أم أن الرجل وجد فروى كما يظن البعض اليوم؟!

[٢٣] **راجع كلمة الشافعي في أول كتابه (الرسالة) عن "مفهوم البيان" وستجد هذا المعنى بوضوح.**

كان بين يديه الشعر، ولا أريد أن أقول كل الشعر المروي كما قال الآمدي في (الموازنة)، لكن أقول بقوله الآخر: "كان مشغوفًا بالشعر مشغولًا عمره بتخيّيره ودراسته" وهذه عبارة الآمدي وإن تأملت قوله: "بتخيّيره ودراسته" عرفت المراد.

الثعالبي في (فقه اللغة) ماذا أراد؟ وما هو جديده وفرادته وتميزه عن المعاجم؟!

تأمل وطبق تلك السمات: لما كانت العرب تستعمل ألفاظًا بإطلاق ولكنها تستعمل ألفاظًا أخرى لنفس المعنى لكن لتقيُّدها وارتباطها بأمور خاصة أخرى، فلا بد من التفريق بين أهل الوضع اللغوي وبين الاستعمال، وهذا باب كما قال أهله عزيز المأخذ، فلفظ "الأبيض" للوضع اللغوي العام لكل ما فيه بياض، لكن لو كان البياض في الخيل ماذا يُقال له؟ وإذا كان البياض في الإنسان فأي لفظ نستخدم؟ وإذا كان البياض في الغنم فما هو اللفظ الدال عليه؟ هذا هو مراده في كتابه، وفيه دلالة واضحة على السمات التي تقدمت.

الأشهب يُقال لما فيه بياض من الخيل، والأزهر لما فيه بياض في الإنسان، والأملح لما فيه بياض من الغنم.

حين تُجعل الكتب الأربعة؛ (أدب الكاتب) لابن قتيبة، و(الكامل) للمبرد، و(البيان والتبيين) للجاحظ، و(النوادر) لأبي علي الغالي، أنها أصول علم الأدب، وحين تقرؤها لا تجد فيها سوى الروايات، والروايات فقط، فكيف تكون الروايات أصولًا من غير تطبيق أصول التأليف التي ذكرتها؟!

أما كتب الحديث فإن سمات الحكمة والمنهج فيها أجلى وأوضح، وإن أيّ كتاب سنة من الكتب الأصلية –أي المسندة– إلا وهو دليل على حكمة راقية ومنهج متين، بل كان معيار الحكم على هذه الكتب من خلال عمق هذه السمات وقوتها.

ولعل الإمام الترمذي ترك لنا الكثير من دلائل هذه السمات في كتابه –نحن الذين لا نقرأ إلا الحرف ولا نعرف الحفر والتنقيب–، فإنه ترك لنا كتاب (العلل الصغير) والذي جعله خاتمة لكتابه (السنن)، وكشف فيه شيئًا من سر كتابه ومصطلحاته، هذان الكتابان (السنن والعلل الصغير) شرحهما الإمام الذي يملأ العين والقلب والعقل "ابن رجب الحنبلي"، والذي ضاع منهما (شرح السنن) فبقي (شرح العلل)، هذا الشرح الذي يشكّل مع (النكت لابن الصلاح) لابن حجر بوابة علم الحديث بحق من كتب المتأخرين، وابن رجب إمام جبل، جمهرة علم من حديث وفقه وتربية، وكتبه لا يخطئها إلا الجهلة.

أقول ترك الترمذي بعض سمات المنهج كشرحه لبعض المصطلحات؛ فالحديث الحسن: "كل حديث يروى لا يكون في إسناده من يُتهم بالكذب، ولا يكون الحديث شاذًا، ويروى من غير وجه نحو ذلك"، ومع ذلك وُجد من بعده في أيامنا هذه من جعل للحسن تعريفًا آخر ويعلق على قول الترمذي في بعض أحاديثه: "حديث حسن" بقوله: " قوله ليس حسنًا"، لمجرد أن الحديث مثلًا فيه انقطاع أو إرسال أو رجل ضعيف لم يبلغ القول فيه إلى الاتهام بالكذب، وهو شرط الترمذي في الحديث الحسن، ومع ذلك يريد منا هذا المستدرِك أن نمزّق الترمذي حتى نُدخله من بوابته هو لا بوابة صاحب الكتاب ومنهجه فيه.

وكما فسرنا بعض أوجه الحكم على الحديث بالغرابة بكلام كالحكم سبكًا مع أمثلة قليلة بالنسبة لنا، ولذلك قال فيه: "وقد وصفنا هذا الكتاب –أي العلل– على الاختصار لما رجونا فيه من المنفعة".

ومع كل هذا فقد قال إمام أهل هذه الصَّنعة في زمان "ابن رجب" عن بعض مواطن "العلل" أنها مما يستعصي فهمها عليه وعلى أقرانه.

وسأضرب لك مثالًا من السنن حتى ترى سمات حكمة المنهج التي تقدمت:

قال الترمذي: "باب ما جاء في المصافحة"، ذكر ثلاثة أحاديث ثم قال: "حدثنا أحمد بن عبدة الضبي: حدثنا يحيى بن سليم الطائفي عن سفيان عن منصور عن خيثمة عن رجل عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: (من تمام التحية الأخذ باليد).

[وفي الباب عن البراء وابن عمر].

قال أبو عيسى: وهذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث يحيى بن سليم عن سفيان.

وسألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فلم يعده محفوظًا، وقال: إنما أراد عندي حديث سفيان عن منصور عن خيثمة عمّن سمع ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: (لا سمر إلا لمصلٍّ أو مسافر).

قال محمد: وإنما يروى عن منصور عن أبي إسحق عن عبد الرحمن بن يزيد أو غيره، قال: (من تمام التحية الأخذ باليد)"، انتهى كلامه.

ولتقريب مراد الترمذي نذكر بعض الأمور:

١. هذا حديث يرويه الإمام ويعلم أنه لا يصح من جهة متنه بحال.

٢. لم يُرِد الإمام الاكتفاء بنفي صحة المتن إنما زاد أمورًا هي:

أ. استقصى رواياته –أي مفردات الحكمة–؛ فقد رواه عن ابن مسعود، وذكر أنه مروي بمعناه عن البراء وابن عمر.

ب. من عجائب فعله أنه ذكر سندًا غير محفوظ، وهو النوع الذي يُقال له المقلوب؛ أي إن الراوي ركَّب متنًا على سند آخر، وكأنه أراد هذه النكتة من رواية الحديث لا غير.

٣. لم يكن وصفه للحديث بالغرابة نافيًا أن تكون له روايات أخرى؛ لأنه أراد غرابة هذا السند لا المتن، وهو خطأ يحيى بن سليم الطائفي.

٤. ذكر لنا وجه الصواب —من كلاب البخاري– في السند الذي هو من رواية الضبي عن الطائفي، وهو جانب لا يُعرف أبدًا إلا بالظرف الذي يجعل المحدث يذهب مذهبًا —طريقًا– غير الصحيح، وإلا فكيف علم محمد بن إسماعيل البخاري أنه أراد حديث: (لا سمر إلا لمصلٍ أو مسافر)؟ وهذا الظرف لا يُعرف إلا من خلال القراءة الاستقرائية لهذا الراوي وللطرق المعتادة في الرواية عنده والتي تغري بالذهاب لمن سبق اللسان أو ضعفت الذاكرة معرضًا عن الطريق الصحيح لعدم وضوحه وعدم شهرته، ولذلك ذهب إلى رواية منصور عن خيثمة وإنما الصحيح منصور عن أبي إسحاق.

٥. أمانة علمية في نسبة القول لقائله حين قال: "سألت محمد بن إسماعيل..."، والحق أن هذا النوع من القراءة العلمية يتميز بها البخاري دون أقرانه ومن بعده من أهل العلم، وهو باب من أبواب من العلل، ليس فقط إدراكها بقوله: "غير محفوظ"، ولكن بما بعدها حين قال: "إنما أراد عندي ..."، وقوله: "عندي" دليل أنها من صناعته ومن اكتشافاته، وهي خصلة جعلت الإمام مسلم يُقبِّل قدمه ويقول له: "يا أستاذ الأستاذين ويا طبيب الحديث وعلله"[٢٤].

هذه النكت العلمية الواضحة لنا لأنها على السطح مقامًا تدلك على سمات حكمة المنهج كما ترى، وهي تذكرنا بأن أي تدخل من آخر تدمر كل هذا المنح والنكت والفوائد والسمات العلمية.

ولأتوقف هنا وفي النفس حسرات.

---

[٢٤] ومثل هذه الحكمة لو قالها غير البخاري ممن بعده لنقّبت كثيرًا قبل أن أطمئن أنه قالها وليس البخاري أو من فوقه.

أما صياغة الحكمة عند الأقدمين ومنها حكمة النقد، وأخاف أن أقع بين فكّي رجل حاد الأسنان ضعيف العقل فيظن أن كلمة النقد تعني إظهار السلبيات، ولو عمم ما يفعل الصانع بالمعدن من نقود بفعل يسمى "النقد" حيث يستخلص المادة من الذهب أو الفضة كما في القديم أو النحاس وغيره كما في الحديث، يستخلصها من ترابها حيث يزيل عنها الشوائب ثم يبرز ما كان قوة كامنة إلى قوة بالفعل من حروف بارزة وصور واضحة تدل على قيمة في المعدن لم تعرف إلا بهذا النقد.

قلت: لو طبق هذا المعنى على النقد في باب المعاني والألفاظ لما احتاج إلى التذكير.

نقد الرجال والزمان، ونقد الكلام من أدب نثري أو شعري أو غيره، ونقد الدول والشرائع فهي عجب من الأعاجيب، والدكتور محمد محمد موسى ضرب لنا مثلًا –فيما أذكر والعهد بعيد– بكلمة الإمام الشافعي في شعر ذي الرُّمة حيث قال: هو كنقط عروس أو كبصر آرام، فليُرجع إليها إذ شرحها شرحًا يجعلك ترتشف روح العلم وتشم عبقه.

وهذا باب يستحق أن تؤلَّف فيه المصنفات لا من أجل قصائد المدح والفخر، بل من أجل تعلم مناهج البحث العلمي، وكيفية صدور الأحكام المتينة من خلال جوامع الكلم المليئة بالمعاني مع قلة كلماتها، وهي الطريقة المثلى كما أشرنا سابقًا إلى تعميق القراءة.

هذه إشارات هنا أردت منها أن الكلمات والكتب لم تعد مغلقة بباب اللغة ومفتاحها المعاجم، لكنها مغلقة بأهم من ذلك وهو "مناهج ومقاصد أصحابها" ولا دخول حقيقي لهذه الكتب إلا من خلال معرفة هذه المناهج، بل إن معيار الكلمة ومعيار الكتاب هو تحققهما بسمات المنهج الحكيم وعمقه.

الدخول إلى الكتب من غير معرفة المنهج يقودك إلى احتمالين أو إلى أحدهما: أن يبقى الكتاب لديك علبة مغلقة قديمة لا تحمل دلالة الثراء والغنى مع أن في جوفها اللآلئ والدرر، وتزداد الطاقة حين يعلوها بعض عوادي الزمن، أو أن يتحول الكتاب إلى قنبلة تنفجر بين يديك آخذة إياك إلى ضلال الفهم ومواطن الوهم.

وها أنا أدلك على أبجديات معرفة مناهج المؤلفين لتتخذها مفتاحًا إلى عالم الكتاب والقراءة، واعذرني أن أكرر لك أنها أبجديات ككل ورقات كتابي هذا فهي لا تعدو هذا الوصف:

١. لا بدّ من معرفة الكاتب والإحاطة بالكثير من ترجمته، وكلما كنت عارفًا به وبأحواله كلما كنت مدركًا لمراده في الكتاب.

فلا بدّ من معرفة عقيدته وأصولها لأنها ستكون آلية حركة فكره وقلمه، وهذا ليس فقط في كتب الأقدمين بل هي مهمة في كتب كل عصر، وفي زماننا هذا تزداد أهمية ذلك، فالكثير من الأفكار التي تراها اليوم إنما هي إنتاج فكري لعقائد آباء الكتّاب وأجدادهم.

علي أحمد سعيد "أدونيس" هذا الكاتب الذي يطرح أفكارًا جديدة عند السذج، هي في حقيقتها أفكار باطنية، وهي أصول الفكر عند أهله وقومه، فهو من "السلمية" وهي منطقة تعجّ بالإسماعيلية النزاريين، وهي طائفة باطنية تعتمد على قواعد الرمزية المغرقة في تشويه مرجعية اللغة، ولذلك لم يُخطئ أحد من مناقشي رسالة الدكتوراة التي تقدَّم بها "الثابت والمتحول" أن يُرجع آلية فهم أدونيس لمفهوم الثبات والتحول إلى جذوره التي عاشها في بيئته الأولى.
وها هنا لا بد أن أسجل ملاحظة هي الأسى والحزن على المنتسبين لأهل السنة من المفكرين، فإني –شهد الله– ما رأيت مفكرًا علمانيًا في بيئتنا إلا وهو مربوط بجذره إن كانت أصوله من أهل البدع، كالدروز والرافضة والنصيرية والإسماعيلية، ومهما حاول إخفاء ذلك من ادعاء العلمانية، إلا من كانت أصوله تعود لأهل السنة فإنه تراه حاقدًا على هذه الأصول، خارجًا عن الإسلام والتراث بكل معنى الكلمة، وهذه ظاهرة لم أرها قط تتخلف أبدًا.

عقيدة الإنسان التي نشأ عليها لا يستطيع أن ينفكَّ عنها حتى لو حاول، ولكن بسبب عدم شعور أهل السنة في كل البلاد بعقدة تجاه الآخر فإنهم لا يربون على فهم حقد الآخرين وسفالتهم، وإن كانت الأعمال الإجرامية في الأوقات المتأخرة من هذه الفرق وغيرها قد بدأت تعيد حياة الحذر والانتباه من هذه الأفاعي المستترة.

لا تستمع أبدًا لكذب البعض بوجود شيء يسمى بالحياد، فهذا وجوده كوجود الغاز المثالي؛ أي كما كان يقول سلفنا: "وجوده في الأذهان لا في الأعيان"، وبالتالي لا يوجد إنسان بلا عقيدة توجِّهه وتتغلغل في كيانه وتبدو على صفحات كلماته وكتبه.

عقيدة الكاتب وجذوره تكشف لك الكثير من معاني وألفاظ الكاتب، ولولا معرفتك بهذه العقيدة لكانت الكثير من مخبوءات معانيه خافية عليك.

عندما كان الزمخشري معتزليًا فإن قراءة العلماء لكتابه (الكشاف) كانت مختلفة ما لو لم يكن كذلك.

اليوم كثيرون يزعمون العمل لتفعيل الإسلام وتجديده وإحيائه، ولا يمكن تمييز هذه الدعوات من جهة دلالة كل لفظ في نفس كاتبه، وبالتالي مقصده وهدفه إلا من خلال معرفتك بالداعي لهذا التفعيل؛ معرفتك بعقيدته وصلته بالإسلام وفهمه

لحقيقة الدين؛ وكما قال الإمام علي –رضي الله عنه-: "ليس من أراد الحق فأخطأه كمن أراد الباطل فأصابه"، وبالتالي كثير من أصحاب النوايا الحسنة قد خدعتهم الألفاظ لحسنها، ولم يعلموا أن وراءها سمًّا قاتلًا وذلك لعدم اعتنائهم بالنظر إلى دين الرجل وعقيدته.

الإنسان الذي يُربَّى على النفاق والتقية، والإنسان الذي يربى على أن الجاسوسية دين، مثل هؤلاء يجب مراعاة الخور في فهم دعواتهم وشعاراتهم وكلماتهم مهما بدت جميلة وبرّاقة.

تأمل دعوات القومية واللادينية والعلمانية كيف امتطاها المشبوهون وخريجو حوزات النفاق وقيح الحقد، ثمّ هم أول المترجلين عنها حين تبدو معالم الأفول تظهر، هم آكلون على كل بساط، لاعنون الكل متى كان لعنه مصلحة، والسُّذّج من المسلمين هم مطاياهم في تنفيذ مآربهم، وذلك حين يستجيبون لألفاظ جميلة في نفوسهم لكنها على حقائق قذرة.

كذلك لا بد من معرفة سجالاته، وعلاقاته الفكرية، وصلاته بالمؤسسات مشبوهة وغير مشبوهة، وإني لأدعو طلبة العلم ممن يعيشون عصرهم وما يُكتب فيه من أفكار وإبداع أن يُحيوا كتب الرجال والتي تكاد تُختم بكتاب (الأعلام) للزركلي، وهذه المصنفات تحتاج إلى قارئ نهم ومتابع، مع شروط العلمية والموضوعية، وهي شروط أهل العلم القدماء في الكلام على الرجال.

اجمع ما استطعت من أخبار عن الكاتب ومحّصها، وتعامل معها عن طريق القراءة الناقدة التي أشرنا لها، فلا يوجد أحد يستطيع أن يقدم لك كل شيء عن غيره ولا عن نفسه.

أكثِر من قراءة كتب المذكرات فهي نافعة جدًا، وكتب السير والتراجم، وإياك والسقوط في أسر الحب المفرط أو البغض المفرط بل كن عادلًا منصفًا، إذ كثيرًا ما يكتب أحدهم سيرة غيره فيرفعه إلى مرتبة الملائكة أو يسوّده فيجعله الشيطان الرجيم وما عليك إلا أن تدقّق وتصفّي وتحكم.

٢. لا بدّ من معرفة مصطلحات الفن الذي يخوض فيه الكتاب؛ فكل من له مصطلحات الخاصة به ومن دون معرفتها يبقى الكلام غير مفهوم؛ وهذا الفن –علم المصطلحات- علم مهم ورفيع وهو في كل العلوم الباب الأول لا يُدخل إليه إلا من خلاله، وللقدماء اعتناء به فأُلفت في الكتب والمصنفات، بل ما من كتاب يؤلَّف في باب من أبواب العلم إلا وفيه هذا المبحث، وحين يهرب أهل هذا العصر من تعريف مصطلحاتهم وكلماتهم فإن السبب هو عدم وجود

التصور الواضح لهذه المصطلحات لأن أغلبها مسروق عن الغرب ومترجم بطريقة أمية هزيلة، ولذلك لا عليك اليوم أن تجد ألفاظًا يجترها القوم وكل واحد يستخدمها بمعنى خاص لديه.

ثم إن من العلم الذي قَلَّ أهله هذه الأيام هو علم إنشاء المصطلح؛ فإن "المصطلح" علم له أصوله وتاريخه، فالمصطلحات يعتريها ما يعتري كل حي من التبدّل والتغير والحياة والموت.

٣. لا بدّ من معرفة سبب تصنيف الكتاب، فهل وضعه مصنفه للتعليم؟ ومَنْ قصد من المتعلمين؟ أو لغير ذلك؟ فكتاب (الرسالة) لأبي زيد القيرواني وضعه للأطفال ليحفظوه مع القرآن عصمة لهم من فكر الباطنية الذي انتشر في المغرب، و(مقدمة ابن الصلاح) في مصطلح الحديث وضعه لتلاميذ مدرسته، وبعض أهل العلم اتّهم أبا الحسن الأشعري أنه وضع كتابه (الإبانة) إرضاءً لحنابلة بغداد لمّا دخلها، وهذا اتهام البربهاري وغيره، وهو الذي دفع ابن عساكر أن يكتب كتابه (تبيين كذب المفتري)، وابن تيمية ألّف (الصارم المسلول) لحادثة اليهودي الذي سبّ النبي ﷺ فثار الناس لقتله، فاحتمى ببعض الأعراب ثم أسلم حتى يعصم دمه، فاختلف الناس في مسألة "هل الإسلام يرفع عنه حد السب أم لا"، وكثير من كتب التاريخ التي انتشر فيها الكذب على الخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية إنما وُضعت زمن البويهيين لما فيهم من "رفض"، إذ وضعها أصحابها إرضاءً لهم.

وهذا باب وسيع في كتب الأقدمين.

وأما من المعاصرين، فقد خاض الناس مثلًا في سبب ترجمة إحسان عباس لقصة (موبي ديك) الحوت الأبيض، فكشف لعلي العميم في لقاء صحفي أنه ترجمه لسد حاجة المال، وللأسف هذا السبب غالب هذه الأيام –إلا من رحم الله تعالى–.

ومعرفة سبب التصنيف قد يذكره المؤلف في كتابه أو يعترف في مكان آخر أو من خلال دراسة القارئ لظرف الكاتب.

٤. لا بدّ من معرفة "تصنيف الكتاب"؛ فكتاب المناظرة غير كتاب التعليم، وكتاب التاريخ غير الرواية وإن كانت تاريخية، وكتب الشروح غير المراجعات وهكذا، وإنه ينبغي الحذر من الخداع الذي يمارسه بعض كتّاب القصة التاريخية اليوم، إذ أنهم يستخدمون التاريخ لتمرير مقاصدهم الخفية وذلك بإنشاء أحداث وهمية، يُلبسونها لباس باب الخبر التاريخي ليحصل لهم مرادهم بقوة، فأمين معلوف في روايته (سمرقند) خَبَطَ خَبْطَ سوء وانحراف وأسقط الكثير من نظرته السوداء على تاريخ أمتنا، ولو نوقش من أين لك هذه الأخبار؟ لقال هو أو المدافع عنه: إنها رواية وللراوي حرية

الخيال والخلق والإبداع، وبالتالي يمرر تصوره للتاريخ من خلال هذه اللعبة، وهذه فعلها بإتقان جورجي زيدان، فقصته مثل (فتاة غسان) فيها من الإسقاط الشخصي والعقدي على تاريخ أمتنا الشيء الكثير، ولكن تتخفى تحت ستار الرواية والقصة، حيث تُظهر العرب النصارى في شمال الجزيرة العربية من الغسّانيين بمظهر متمدّنٍ حضاري من كل الجوانب، سواء الفكرية أو العمرانية، وتظهر العرب الذين اختاروا الإسلام هم أجلاف الصحراء وضيقو الأفق، والحقيقة أن الرواية التاريخية بهذا التشكيل الجديد هي تطوير للرواية الشعبية القديمة في تمجيد تاريخ الأمم الراوية واحتقار مخالفيها عن طريق الحكايا والقصص، فلو قرأت (حكايات الراوي الجوّال) الهندية مثلًا لرأيت كيف تلتقي تمامًا مع هذه الروايات المعاصرة، إذ فيها تمجيد الآباء والأجداد وثلب خصومهم، فانتبه لهذا فإنه مهم.

ومرة أخرى أعود لأمين المعلوف، لأن كل من يكتب الرواية التاريخية اليوم كرضوى عاشور في (غرناطة) إنما يُسألون دائمًا عن تأثرهم بهذا "المعلوف" وهو الجاري على سنن "جورجي زيدان"، وإني لمذكّر القراء بأنه نصراني ماروني، وترعاه المؤسسات الفرنسية، وحقده على تاريخ أمتنا يتلوّى كسمٍّ نقاع في كل نصوصه، وإن قدّر الله لي أثبت نصه الأخير في كتابه (الحروب الصليبية كما رآها العرب) فقط لترى أي حقد يكنّه هذا "المعلوف" على تاريخ أمتك، ولكن هنا أثبت لك جملة واحدة فقط ولن أعلق عليها شيئًا بل اقرأ مقابلها كتاب (الاستشراق) لإدوارد سعيد لترى كذبه وعدم إنصافه.

يقول "المعلوف": "وكثيرًا ما يدهش المرء عندما يكتشف إلى أي مدى ظل موقف العرب، والمسلمين بعامة، متأثرًا إلى اليوم بأحداث يفترض أنه انتهى أجلها منذ سبعة قرون".

أرأيت؟! فقط العرب هم المتأثرون إلى اليوم بالحروب الصليبية وليس الغرب، وليس جورج بوش.

وثق بي فقط هنا لأقول لك: هذا أهون النصوص الدالة على "أمانة" هذا "المعلوف"، وإني لأعلم أني وعدتك ألا أعلق ولكن ما باليد حيلة أمام كذبٍ وقحٍ جليّ كهذا، وآه وألف آه "وحصوننا مهددة من الداخل" كما قال أستاذ الجيل محمد محمد حسين –رحمه الله تعالى–.

إن عدم اعتبار تصنيف الكتب في الحكم هو الذي أوقع بعض أهل العلم كابن حجر العسقلاني في خطأ مراجعة أحكام ابن تيمية على الأحاديث في كتابه (منهاج السنة النبوية)؛ حيث عاملوا أحكامه على الأحاديث وكأن الكتاب كتاب تخريج يخاطب طلبة وعلماء الحديث، مع أن الكتاب هو رد على الرافضي ابن الحلي في كتاب (منهاج الكرامة)، والكتاب –أي (منهاج الكرامة)– شاع وانتشر، فحض أهل العلم الشيخ ابن تيمية للرد عليه لما رأوا من اغترار الناس به وخاصة بعض الملوك من العجم الذين لا بصر لهم في العلم ودقائقه وكيفية بناء المسائل، والناس في هذا لا يريدون أن يعرفوا سوى

كون الحديث ثابتًا أم لا، والحديث يثبت بطلانه من جهات متعددة لا يهتم لها إلا المتخصصون، فالحديث الموضوع كالذي لا أصل له وكالمنكر والشاذ كلها تعني شيئًا واحدًا أن الحديث لا تصح نسبته لرسول الله ﷺ، ولا شك أن هذا الحكم درجات ولكن ما يهم في هذا الباب هو غلبة الظن، وكل واحد من هذه الأحاديث وأمثالها من مصطلحات علمية تدل على عدم ثبوت الحديث لها أسباب مختلفة هي التي جعلت علماء الحديث يميزونها بهذه المصطلحات، وكذلك للدلالة على مستوى عدم الثبوت.

في المناظرة والردود —وخاصة في باب العقائد وأصول الدين- يكفي بيان أن الحديث باطل لم يثبت، وهذا الذي فعله ابن تيمية في (منهاج السنة)، ولو لاحظ طالب العلم هذه المسألة لوجد أن الإمام قلما درس سند حديث على طريقة التخريج المعروفة، وإنما كان يناقش الكتاب الذي رواه ويكتفي بقوله: "وهذا حديث لم يروه أحد من كتب أهل السنة كالصحيح والسنن والمسانيد" أو كلامًا هذا معناه، وهي الكتب التي روت أصول الإسلام عند أهل السنة، ولم يشذّ عنها حديث ثبت في هذا الباب إلا وكان لا مخ له. وكذلك كان يناقش ويحلل المتن لبيان مخالفته لما هو مقرر من العقل الذي هو القاسم بين المختلفين، وأما مناقشته السند والذي أساسه بيان الرجال والانقطاع والاتصال فهو باب لا يوصل إلى المراد مع المخالف بل يفسد المراد أو يضعفه.

فمن راجع ما قاله ابن تيمية ولم يرضه إنما أُتي من هذا الباب، وهو أنه أراد من الشيخ أن يبين في كل حديث مصطلح أهل الفن فيه، وهو المصطلح الذي يبين سبب الحكم ودرجته، وهذا يُخرج الكتاب عن مراد صاحبه.

وعلى كلٍ فلن تُعدم من يأتي من تجار الكتب من يطبعه طبعة "جديدة ومنقّحة راجعها وحقق أحاديثها..." إلى آخر ما يقال من قلة حياء، ليصبح الكتاب أضعافًا مضاعفة تزيد سعر شرائه وتطرد القراءة الحقيقية عنه.

٥. ولمعرفة مقاصد المؤلفين ومناهجهم لا بد من قراءة "فن الكتابة" ومناهجها، فكل من له طرق علمية يختلف الناس فيها، وتختلف فيها الأزمنة، ففي أيامنا هذه —كما هو في كل الأزمنة- مذاهب للشعر ومذاهب للرواية ومذاهب في النقد، وكتب التراث ليست على طريقة واحدة في التصنيف، إذ لكل عالم طريقته، واختلفت الطرق باختلاف الأزمنة.

وهذا باب واسع كبير، فإنه يقتضي منك قراءة المذاهب الأدبية وطرق التأليف، وهي كما ترى قراءة لتعينك على القراءة.

وفي ختام هذا الباب أقول: لا يكن كلامي هذا مانعًا لك من القراءة، إذ تقول في نفسك لا أقرأ كتابًا حتى أستوفي هذه الأبجديات لأدخل إلى الكتاب من بابه، ولكن افتح الكتاب واقرأ فيه قراءة الباحث عن المنهج فيه مع بحث عن المنهج خارجه، فهي قراءة تأتي بأخرى، وقراءة تعيدك لقراءة شيء قد قرأته من قبل لتكتشف فيه أشياء فاتتك، وهكذا حتى يحصل لك العلم، هذا العلم الذي هو نور، وكلما قوي النور كلما أبصرت الأمور أكثر واكتشفت دقائقها جوانبها الخفية، هذه الدقائق والجوانب القصية المعتمة هي التي تميز بين قارئ وقارئ، وحين تشيع هذه القراءة سيدخل الكثير من الخفافيش جحورهم خجلًا من اكتشاف عوراتهم.

خبايات القراءة

هذا خاتمة المطاف، وهو باب هزل أشبه بالجد، وباب جد أشبه بالهزل، قد يبدو لك وهو في غيرك مثيرًا لبسمتك فإذا حلّ فيك صرخت وتألمت، وحتى أتجنب سخطك عليّ أولًا ثم سخطك على الكتب ثانيًا فها أنا أنذرك لتعذر الكتاب وتعذرني، أما إن كنت من أهل الولع بالكتاب فلن ينفعك هذا الإنذار ولا هذا الفصل الهزيل، ولكن ربما ستبحث هذه المسألة من جهة أخرى فتتساءل: هل الولع والعشق للجمال أمر اختياري أم اضطراري؟ ولكن لن تنفعك هذه المسألة كذلك لأن علمك بحالك أنك مأسور، مدمن، عاشق، ولهان لا يطلقك، بل ستكون أنت ومجنون ليلى سواء، لا يسأل الله شفاءً بل يسأله مزيد حب وعشق.

اعلم أيها العاشق أن القراءة ضرة لبعض النساء كما قيل لامرأة الزبير بن بكّار، -وهو من ذرية الزبير بن العوام أحد حواري رسول الله ﷺ ومن علماء النسب الكبار وكان قاضيًا-: "هنيئًا لك إذ ليس لك ضرة!!" فقالت: "والله لهذه الكتب أضرّ علي من عدة ضرائر".

وأعلم أن أحدهم لحب زوجته له وحبه هو للكتاب أكثر منها عاد يومًا إلى البيت فوجد حبيبته الدنيا قد حرقت حبيبته الأولى لشدة غيرتها وعدم إنصاف صاحبنا، فغضب وطلّق الحارقة وبدأ بتجميع الأولى حتى عادت أضخم مما كانت!

أما أنا فمن إنصاف حبيبتي وقد رأت حبّي للكتب أن ملّكتني مهرها لأملك مبتغاي، فكانت لها راعية محبة، وقبل انشغالها بولدي كانت تعرف مواطن الكتب الصغيرة في مكتبتي أكثر مني، وذلك لقلة صبري مرات كثيرة وأنا أبحث عن كتاب، فتقول لي: "اجلس، واهدأ"، وما هي إلا دقائق حتى يكون الكتاب بين يدي.

فهذه جناية أخرى من جنايات الكتاب، وهو جناية على جيب العاشق أو العاشقة، فكم من محب جاع أو باع بعض متاعه من أجل الكتاب، وكم من محب باع الكتاب من أجل طعامه فكادت نفسه تذهب وراءه، فإن جنى عليك الكتاب هذه الجناية فلا تلومنّ إلا نفسك.

وبعض من لا يتقِ الله يشتد عشقه إلى درجة اقتراف الحرام، ويقال إن برنادشو كان يسرق الكتب التي يستعيرها من أصدقائه، حتى إن أحدهم زاره فرأى مكتبة عظيمة، فقلّب كتابًا ثم طلب استعارته، فقال له برنادشو: "أنصحك ألا تُعير كتابًا قط، فأغلب هذه المكتبة إنما هو إعارة لم أعدها لأصحابها"، وبرنادشو يقال له: "الفيلسوف الساحر".

أما علماؤنا الأقدمون فقد اختلفوا في إعارة الكتب؛ فهمنهم من رآها من زكاة العلم ومنهم من وقع في ورطة مع أمثال برنادشو فنصح بعدم الإعارة، وعندي أن الأمر يعود إليك، وقياس الكتب على الماعون مقيد بعدم فشوّ السرقة وعدم فساد الذمم، وراجع المسألة في كتاب (تقييد العلم) للخطيب البغدادي.

ولكن هناك من اشتد إدمانه حتى سرق الكتب، وقصة الدوق ليبري في القرن التاسع عشر الميلادي مشهورة عند أهلها، ومن المعاصرين اشتهر جان جينيه بسرقة الكتب وسجن بسبب ذلك، وحمى الله أهل الإسلام من هذه الفاحشة.

ومن جناية القراءة على البعض فساد العلاقات الاجتماعية أو ضعفها؛ إذ أن الولع بالكتاب قد يشغلك عن بعض الواجبات الاجتماعية، أما إن شغلك عن لَغوها فهذا من الخير، ولكن لا تنسَ أن تقوم بحقوق أهلك ومجتمعك.

وللقراءة جنايات على الصحة كما جنت على الإمام مسلم فقتلته، وجنت على ابن كثير فأعمته، وربما منعتك من النوم.... جنايات الحب يا صديقي!

ولكن أعظم الجنايات هي تلك الجناية التي يعيشها العاقل بين مجانين أو المبصر بين عميان، والتي تنتهي لمن أراد الله إكرامه بالموت في سبيل كلمة الحق التي تعلمها.

حين تقرأ فتعلم، وتلتزم، وتجاهد، فتسعى للجاهل من أجل تعليمه وهو يعاديك ويحاربك بسبب جهله.

وحين تقرأ فتعلم يشتد حبك للعلم فتسعى لنشره فيغضب تجار الظلام والجهل فيحاربونك ويعلّقون لك المشانق.

حين تجني عليك القراءة هذه الجناية تكون النقلة الأخيرة من عالم الصورة التي صنعها الحرف إلى عالم معانقة الحقيقة حينها:

تبصر كل شيء..

وتذوق كل نعيم..

وتملك الخلود..

وتلمس كل الحقائق..

وكما بدأ التنزيل بكلمة اقرأ فإن بداية الحقائق هي: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}.

وفي الختام كما في الابتداء: "اقرأ".

والحمد لله حمدًا في المبتدأ وفي المنتهى وعلى كل حرف وشرف، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملئ السماوات وملئ الأرض وملئ ما شئت من شيء بعد ربنا.

وكتبه في سجن بلمارش البريطاني

أبو قتادة عمر بن محمود أبو عمر.

ملحقات [٢٥]

القراءة عبادة:

من الأمور المهمة جدًا في مسألة القراءة -أيها الأحبة-، ويتفرَّع عنها أمور عديدة، هو أن القراءة عبادة، وهذه القضية وهذا المبحث وهذا العنوان والشعار يجب أن يكون حقيقة، وليس مجرد تسويق لكلمات جميلة، كما هي عادة الكثير ممن يتكلم من أجل صناعة فكرة جديدة تُنسب إليه، هذه حقيقة يجب علينا أن نمارسها، وأن ترتدَّ آثارها عملًا، وفقهًا، ووعيًا، وسلوكًا في حياتنا، كيف نصنع من القراءة عبادة؟

تشكّلت لديّ قضية خلال رحلة القراءة الطويلة، فوجدت أنّ كل قراءة إنْ فَقِهْتَهَا على وجهها الصحيح، ووضعتها في مكانها الملائم لها؛ علمت أن كل كلمة، كل قضية تشكِّل نقطة ضوء، لها لون معين، وسِمة معينة، تُضيء في قلبك وذهنك معالمًا، هذه النقطة إذا اجتمعت مع النقاط الأخرى؛ فإن كل القراءات التي تجنيها في حياتك -سواء كانت القراءة نظرًا إلى مكتوب، أو نظرًا إلى تكوين، أو سماعًا لقضية، أو تفكُّرًا لمسألة-؛ تُشكِّل نقطة ضوء بمجموع هذه النقاط، تتشكّل لديك الكلمات الأربعة وهي عماد وقوام هذا الدين؛ وهي سبحان الله، والحمد لله، ولا اله إلا الله، والله أكبر.

عندما تدخل في مسألة من المسائل، أو تسير في الأرض لترى حكمة من حكم التاريخ، أو تمشي في قضية تشكل لديك عبرة من العبر التي أمر الله -عز وجل- بالنظر فيها والاعتبار من أجل بناء قضية إيمانية، أو أن تدخل في كتاب من الكتب وتقرأ فيه، فإن لم تَنْقَدِح في ذهنك هذه النقطة الضوئية وتشتعل وتضيء؛ فأنت قد فشلت في القراءة، ولم تحقِّق المطلوب، ويجب عليك أن تقرأ كل كتاب، وأن تسمع كل قضية، وأن تَرِد على ذهنك كل قصة، وأن ترى كل حادثة من الحوادث في التاريخ وفي المعاصرة، ويجب أن ترى أنها أشعلت نورًا إيمانيًا في قلبك، قد شكّلت مَعلمًا من معالم هذه الكلمات العظيمة. فإن شكلت لديك هذا الضوء؛ فأنت قد أصبت المقصد الذي من أجله يُقدِم المسلم على القراءة، وإن لم تُضَأْ لديك هذه الأنوار؛ فأنت قد فشلت ولم تحقِّق القراءة مقاصدها من نفسك.

وسيتفرَّع على هذه النقطة نقاط أخرى، لنرى فساد الدعوة إلى **القراءة الطُّهرية**، لا يوجد شيء اسمه القراءة الطُّهرية، حتى وأنت تقرأ لأعداء الدين فإن المعالم الإيمانية تتفجر في نفسك، عندما تقرأ للمفسدين في الأرض، وتقرأ للملحدين في الأديان، وتقرأ للمناوئين للإسلام والإيمان، فإنها تضيء في قلبك أنوارًا، ربما -أقول ربما ليس دائمًا- تضيء لديك من معالم

[٢٥] الملحقات هي مقتطفات متفرقة لها علاقة بفن القراءة من مناقشات (ألف كتاب قبل الممات) للشيخ، بتصرف يسير في الصياغة والترتيب.

الإيمان، ومعالم الهدى والدين خيرًا مما تُضيئه بعض القراءات في كتب المتدينين، ولذلك الخصوم يصنعون من الخير في نفوس المؤمنين والمجاهدين أكثر مما يظنون، وهذه ذكرها علماؤنا، في كتابه (مداواة النفوس) الإمام أبو محمد ابن حزم الظاهري، قال: "إن خصومي صنعوا فيّ من الخير ما لم يصنعه غيرهم"، وقال: "لولا وجود خصوم لي ما كتبت كتابًا"، فكان وجود الخصوم له دافعًا للكتابة والبحث وإشراق الأنوار ونشر الخير وحصول الاجتهاد، إلى آخره.

إذًا المخالف يصنع من القوة، كما يصنع المضاد الحيوي في البدن من المناعة؛ فالقراءة للخصوم تصنع لديك المناعة والثقة بما معك من حق، هذه المقولة التي قالها ابن حزم في القرن الخامس الهجري، قالها ابن تيمية –رحمه الله– عندما جاء إلى قوله تعالى في سورة الفرقان: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا}، قال ابن تيمية في بعض معاني هذه الآية العظيمة: "إن وجود الأعداء للأنبياء هو مصدر نصرهم، ومِن أجل أن ينصر الله أنبياءه أوجد أعداءه".

إذًا لولا وجود الأعداء لما تحقق النصر، فكأنّ الحق يحتاج إلى عدوه الذي يُناكفه ويثوِّره ويعاديه من أجل أن يظهر الحق وينتصر.

هذان القولان لعالمين جليلين، نظر أحدهما إلى حاله فقال لنا النصيحة الذهبية، والآخر نظر إلى آية في كتاب الله، فأخرج منها مكنونًا ذهبيًا عظيمًا: {هَادِيًا وَنَصِيرًا}؛ الهداية لا تتبين إلا بوجود العدو، والنصر لا يظهر إلا بوجود العدو، لذلك لا بد من القراءة للأعداء، والقراءة للأعداء تصنع عبادة؛ لأنها تقوّي.

لذلك أعود لشرح القضية الأولى؛ ما من قراءة تقوم بها يا أيها المسلم إلا وينبغي أن تفتح في ذهنك تسبيحًا، حمدًا، تعظيمًا، توحيدًا لله –عز وجل–، عليك دائمًا أن تربط هذه القراءة التي بين يديك في الكتاب، التفكر، السماع، عليك أن تربط هذه القراءة بالله –عز وجل–، وكيفية تقوية هذه العلاقة مع الله، وتعبُّدَك له، أن تقويها من خلال ما تقرأ.

لكن أين يقع الخطأ؟

يقع الخطأ في وضع الأنوار في غير محلها، إذا قرأ الإنسان شيئًا، ولم يُوجِد لديه هذا المعنى، أو قد وُجِد ضده بمعنى إذا اختل معلم من معالم الإيمان بنفسه بهذه القراءة، فما السبب؟ السبب أنه لم يرتب الأنوار ترتيبًا صحيحًا، مثل اللوحة كما يسمونها بالعامية "مخربشة"؛ غير متقنة، فإذا أنت وضعت هذا الضوء في مكانه الصحيح ازدادت هذه اللوحة أَلَقًا ونورًا،

عليك أن تنتبه لكيفية ترتيبها، وهذا قلنا عنه شيئًا سابقًا في جغرافية الفكر، وهذا يخدم هذه القضية، فعليك أن تضعها في موضعها الصحيح.

ما من قراءة إلا وتخدم إيمانك، وحتى القراءة المُعادية للدين تصنع دينًا وتصنع إيمانًا وتصنع هداية، كما أن توجُّه جيش الأعداء إلى حصن من حصون المسلمين يصنع إيمانًا وجهادًا وعبادةً ودعاءً وثقةً بالله، ووحدة لجموع المسلمين، فيكون وجود الأعداء سببًا في تثوير معالم الإيمان في هذه القرية، أو هذه القلعة أو الحصن، هذه ينبغي أن نتذكرها دائمًا: أن توجُّه جيش من الأعداء لحصن من حصون المسلمين يصنع الخير؛ ترى جموع هؤلاء الناس يتوحّدون، ترى الفقراء يدعون، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إنما تُنصرون وتُرزقون بضعفائكم)، ترى الناس تحدث لهم الشهادة، هذا اصطفاء واختيار من الله، وترى الناس يبذلون أموالهم، وهكذا يكون وجود الأعداء سببًا في تثوير معالم الإيمان في هذا الحصن.

وكذلك إذا توجه كلام شر –كلام شيطاني– إلى قلب المؤمن؛ يكون سببًا لتثوير معالم الإيمان، يذهبون للكتب للرد عليهم، يذهبون للتاريخ، يستغيثون بالله، وهكذا، فيحصل من هذا الفساد في الأرض من الأعداء الخير العظيم في القلب الإيماني بسبب هذه القراءة.

إذًا أنت انتبه لهذا، اذهب إلى الكتاب حتى لو كان من أعدائك ليزيد إيمانك، لتزيد أنوار كلمات سبحان الله، تسبّح الله، وتحمده، وتؤلِّهه، وتعظِّمه، هذه الكلمات الباقيات الصالحات.

هذا يدل على أنه ينبغي للمسلم ألّا يخاف أن يقرأ لأعداء الله، القدماء كانوا لا يخافون من القراءة، والدليل أنهم كانوا يقرؤون شعر الجاهلية وفيه ما فيه، قد يكون فيه الكفر، وقد يكون فيه الإباحية كشعر امرئ القيس، وقد يكون فيه الافتخار الجاهلي، وقد يكون فيه مدح الظالم، وقد يكون فيه الدعوة إلى الظلم، ولكنهم يذهبون إليه ليأخذوا ما به من الخير، يذهبون لينزعوا ما به من الدَّسم ويتركون ما فيه من السُّم.

وعلينا أن نُفرِّق بين ما يُنتِج معرفةً وبين ما هو مجرد سبّ، لماذا أمرنا الله –عز وجل– بعدم الجلوس مع الذين يخوضون في آيات الله–عز وجل– {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}؟ لأنه مجرد سب واستهزاء، لكن لو أنهم أرادوا النقاش والحوار والجدال؛ ينبغي أن تجلس لهم، وتثني ركبتك، وتربط على رجليك، بأن تجادلهم وتناظرهم بالحق، وشرط هذا أن يكون معك السلاح، **ولا يجوز** لمن ليس معه السلاح أن ينزل الميدان ويطلب المبارزة، فالواجب لمن يريد أن ينزل في أرض النزال ويطلب الشجعان أمامه أن يكون متقويًا، أن يكون مدرَّبًا، وأن يكون حاملًا للأسلحة اللازمة لهذه المعركة، ولذلك نحن دعوتنا لترك القراءة الطهرية **إنما هي للقادرين على الخوض في معتركات الرجال:**

وَابنُ اللَّبُونِ، إذا ما لُزّ في قَرَنٍ ... لمْ يستطعْ صولةَ البُزلِ القناعيسِ

ابن اللبون: يعني الذي أمه درَّت اللبن لابنها، ونُسب لأمه، فهذا لأنه ولد صغير لا يقدر أن يحارب، البُزل: التي وصل عمرها إلى عشرة أعوام، فلا يستطيع أن ينافسها، ولذلك ينبغي على من يخوض أن يكون متحضِّرًا.

من هنا فلا يجوز لرجل أن يذهب ويقرأ كتب الملحدين وهو لا يعرف الرد عليهم، ولا يعرف سبلهم، ولا يعرف كيفية تحويل الإيمان إلى أفكار مرتبة ترتيبًا علميًا، هو الإيمان لديه ساذج ضعيف، والفطرة جيدة، لكنها ليست متينة، والدليل قوله–صلى الله عليه وسلم–: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه)؛ إذن الفطرة لا تملك الدفع، هل تملك الإثبات؟ نعم لوحدها هي مسلمة، لكن لو أردت الحرب هل تقدر؟ لا تقدر: (فأبواه يهودانه)، واحد عنده إيمان فطري ويريد أن يحارب، نقول له: إيمانك الفطري لا يستطيع، لا بد أن تُحوِّل إيمانك إلى علم صناعي وآلة محاربة تستطيع أن تخوض بها غمار الحروب، الذين يعيشون على الفطرة لا يقدرون الحروب، كما أن الرجل من غير تدريب لا يستطيع أن يدخل العسكرية، ولا المصارعات البدنية، (فأبواه يهودانه): يتغير بجرد البيئة ونظام القطيع الذي يعيش فيه.

نحن نقول أن طالب العلم لا ينبغي أن يتوقف أمام القراءة، لا يخاف يقرأ كل شيء، ولكنه يقرأ علمًا.

إذن كل القراءات عبادة وكل القراءة دينية، ولا يوجد قراءة طهرية، هناك قراءة نافعة وهناك قراءة غير نافعة، هذا الفرق، وهناك قراءة لها قيمة حتى لو كانت من أعدائنا، وهناك قراءة مجرد كلام لا قيمة له، سواد على بياض لا يقدِّم ولا يؤخِّر، هذه لا ننتبه لها ولا ننظر فيها ولا نقيم لها شأنًا في هذا الوقت.

...

وهذه قلتها لأن بعض القراءات تخضع لهذا القانون –ويُكتب هذا القانون ويحفظ–: **أن الدرة في بعض الأحيان لا تلُتقط إلا من العَذرة،** –والعذرة هي القذارة–... ومن هنا فإنه في بعض المسائل لا بد أن تذهب إلى الكتب التي لا تحب أن تحملها، ولو حملتها لاتَّهمك الناس في دينك، ولقالوا عنك الكثير، وأنت مضطر أن تفعل هذا، كما أنك مضطر أن تذهب لتحصل على الدرة من مكان قذر، لأنها وجدت في مكان قذر.

...

القراءة تولِّد القراءة:

قاعدة من قواعد القراءة: أن القراءة تولد القراءة، وهذه مهمة جدًا.

البنياويون يقولون أن النص لا يُخرج نصًا، وهذه لن نناقشها؛ فهؤلاء جماعة يعيشون في الوهم، ويعيشون في الخيال، يعتبرون أن النص ليس خطابًا خارجيًّا، لا يوحي بشيء للقارئ، ولكنه يعني ذاته، وهذه قراءة جنونية؛ لأن البيان وُضِع من أجل الإبانة عمّا في نفسك للآخر.

فهذه مهمة القراءة، مهمة الكتابة، مهمة الكلام، مهمة ما يقوم مقام القراءة والكلام –أي الإشارة عند غياب الكلام–؛ المقصود بها هو أن يَبين الرجل عمّا هو في نفسه، كما قال الفاروق–رضي الله تعالى عنه–: "زَوَّرتُ في نفسي كلامًا".

فالقراءة لا تُعقَل إلا بقراءة تقع عليها، وهذه الكلمة لها تفاصيل وتفاريع كثيرة، أهمها ما نحن فيه، وهو أنه لا يصحُّ لأحد أن يقرأ كلامًا دون أن يقرأ كلام المعارض.

إذًا القراءة أو الكلام لا يعيش في المطلق بل في النسبي؛ يُقبل ويُرد، يُقيَّد، يُخصَّص، إلى آخره. لذلك لا بد أن نقرأ بعض الكتب، ولكن لا بد أن نقرأ ما يقابلها؛ فالقراءة تلد القراءة؛ أنت عندما تقرأ كتابًا فإنه لا بد أن توحي لك هذه القراءة بالذهاب إلى كتاب آخر، وأنا ابن القراءة؛ ما تعرَّفت إلى كتاب إلا كان المعرِّف لي بهذا الكتاب كتابٌ آخر، بعض الكتب لا شك نُصحت بها من آخرين، كتب ذهبت إلى المكتبة فتَّشت بها وأخرجتها، ولكن عامة ما قرأته إنما نتج من القراءة، وأنا ابن القراءة، لا أعرف ابن تيمية ولا ابن القيم، في الصف الرابع الابتدائي بدأت همتي للقراءة في الكتب، وإلا قبل هذا العمر كنت أقرأ كل ورقة مرمية على الأرض، كل مجلة، لكن في الصف الرابع قرأت (كليلة ودمنة)، ثم تعرفت على مصطفى صادق الرافعي بما قرأته في طه حسين، هناك عدو له مخالف له، ولم أعرف ابن تيمية إلا من خلال قراءتي لابن القيم، فالقراءة تولِّد القراءة، نشأت تبليغيًا في بداية التديُّن، وهي مرحلة لاحقة عن مرحلة القراءة، وأحببت كتب ابن القيم، كنت أجدها في المساجد مبثوثة، وفي بيوت بعض الناس لأنها كتب رقائق، فكان دائمًا الشيخ ابن القيم يقول: "قال شيخنا، هذا رأي شيخنا.."، إلى آخره؛ فبدأت أبحث حتى تولَّدت لدي قراءات أخرى.

فلا يكفي أن تسمع فقط، لا بد أن تسمع رأي المخالف، وهذه القاعدة الأساسية لِمَا سمّيته لكم بـ"**القراءة الجدلية**"؛ لأنها قراءة تُنشئ قراءة، وهذه القراءة قد تكون قراءة موافقة، قد تكون شارحة، مخصصة، وقد تكون ناقضة.

وهنا ندخل إلى قضية مهمة، إلى قضية **الجدل في التاريخ الإسلامي**، وأول كتاب جدلي بالمفهوم العلمي هو القرآن؛ قد قال لنا حجج المخالفين ورد عليها، وقال: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}، قد ذكر لنا إمام المجادِلين بالحق ضد الباطل وهو إمام الحنفاء إبراهيم -عليه السلام- كيف ناظر قومه، وكيف ناظر النمرود، إلى آخره، وهكذا موسى-عليه السلام- ناظر فرعون، والأنبياء ناظروا أقوامهم، والنبي-صلى الله عليه وسلم- ناظر.

فالجدل علم عظيم لتنوير الحق وتنوير العقل، لا بد أن تقرأ، وتقرأ ما يقال، وبضدها تتميز الأشياء، والحق لا يُعرف كماله إلا بعرضه أمام الباطل، فإذا أردت أن تعرف بياض البياض فقارنه بالسواد، والحق لا يُعرف بكماله الذي يتجلَّى فيه الحق في أجلى صوره وأجملها، بل لا يُعرف إلا بعرضه إمام الباطل.

ولذلك لا تخافوا من القراءة التي تتكلم عن الإسلام، ولكن لا بد أن يكون عند الناظر التمييز بين السواد والبياض، أما الأعمى لا يميز، والذي أنفه مسدود لا يستطيع أن يميز بين الرائحة الخبيثة والرائحة الطيبة.

أما علم الجدل لعرض الباطل وقذفه بالحق؛ فهذا هو دين النبي-صلى الله عليه وسلم-، هذا هو دين الله، ولا تخافوا منه.

وفي تاريخنا كان هناك أئمة لـ"**الجدل المهتدي**"، كما سميته في مقدمة كتاب (كسر الصنم للبرقعي)، هذا الرجل الذي خرج من دين التشيع -في أوسخ وأقذر درجاته- إلى الهدى، لم يدخل السنة كاملة، لكنه خرج من التشيع وهذا كافٍ بالنسبة للرجل وهو في بيئته؛ خرج من التشيع في السبعين من عمره وكتب، وسميت مناظرته بـ"الجدل المُهتدي"؛ لأن هناك من يجادل بالباطل، وجدل الباطل لا قيمة له، جدل الحق هو الذي نطلبه ونسعى إليه ونتعلمه، ولذلك لا بد أن نقرأ الكتب التي فيها هذا الجدل، من ذلك كُتب شيخ الإسلام ابن تيمية، هذه كتبة جدلية عظيمة، وكتب الباقلاني، ولا يوجد في تاريخ الإسلام أقوى من هذا الرجل في الجدل المهتدي، ومع أنه كان متكلمًا؛ إلا أن الدارقطني -وهو إمام حديثيّ سُنيّ- كان إذا قابله قبَّل يديه؛ لقوته في رد كلام الزنادقة والباطنية والنصارى وغيرهم.

أنا سأذكر بعض الكتب لتعرفوا قيمتها:

- كتب الشافعي كلها مبنية على الجدل؛ اقرأوا (جِماع العلم)، (اختلاف الحديث)، هذه كتب جدلية، هذه الكتب الجدلية من أهل السنة فن وينبغي أن نعرف مراد الكاتب.
- من الكتب الجدلية أيضا (العواصم القواصم) لابن الوزير، وهو كتاب عظيم في الجدل.

- وكذلك كتاب (التنكيل) لعبد الرحمن المعلمي، وهذا كتاب رجل ذوّاق، ويعرف من أين تؤكل الكتف، وصاحب علم متَّسع، فهو من الكتب الجوهرية النافعة في الجدل ويمرِّن العقل.
- من الكتب الجدلية المهمة التي ينبغي أن تقرأها كتاب (السّيل الجرّار) وهو في المسائل الجدلية الفقهية، للشوكاني وهو آخر ما كتب، وهو بعد (نيل الأوطار)، وتظهر فيه مَلَكة الشوكاني بجلاء ووضوح.
- ومن كتب المعاصرين التي ينبغي أن تقرؤوها، ولا تُعرف إلا بضدها، ما انتشر من كتب محمد عابد الجابري، ولا تُقرأ هذه الكتب إلا مع كتب جورج طرابيشي، هذا الكتاب (مذبحة التراث)، وهو يُعتبر كمقدمة لكتبه الأخرى، من نقد الجابري للعقل العربي.
- ومن ذلك أيضًا تقرؤون كتب طه عبد الرحمن في نقده، هذه كتب جدلية مهمة.
- من الكتب الجدلية المهمة، كتب عبد الجبار المعتزلي (إعجاز القرآن)، في رده على من قال بالصِّرفة.
- من الكتب الجدلية التي تولد القراءة كتاب (مذبحة التراث)، وهو يولِّد لدينا قراءات، وليس قراءة واحدة.

أهمية تاريخ العلوم:

لن تكون قارئًا حتى تقرأ تاريخ العلوم وحتى تقرأ الكتب التي مهَّدت للعلوم؛ فالتاريخ هو بوابة العقل البشري في إدراك معالم كثيرة، أهم هذه المعالم هي إدراك الصواب والخطأ؛ لأنك لا يمكن أن تثبت أن القرآن لم يتغيّر ولم يتبدّل حتى تعرف تاريخه، هذا فكر تكلمنا عنه وشرحناه، وأن وجود الظلام في تاريخ شخصية ما أو في وجود كتاب ما، يعني أن هذه الشخصية قد دخلتها الأسطورة والخرافة، لأن هناك فترة من الزمن لم تُعرف هذه القصة ولم يتناقلها الناس ولا تعرفها الأجيال، فإذًا دخلت في حُقبة مظلمة، هذه الحقبة هي التي يُدار فيها الشر والخطأ والدسائس، ويُزاد عليها ويُنقص منها، وإذا بقيت العلوم والمعارف على السطح ولا تُتداول في الأقبية بقيت تحت الشمس جليّة واضحة يُراقب الناس حركتها، يراقب الناس الزيادة فيها والنقصان منها، فالتاريخ هو حَكَم بين الناس في إظهار الحقائق وتمييز الصدق من الكذب، ونحن عندما نقرأ تاريخنا يجب علينا أن نقرأه بعناية الناظر وعناية المؤمن، والمؤمن لا يمكن أن يكون كذلك في ديننا حتى يكون عاقلًا.

وحتى الذين قالوا في وقت من الأوقات: "العقل يُسلِّم بصواب النقل ثم يستقيل"، هذه عليها الكثير من الكلام، وعائشة –رضي الله عنها– لا تقبل هذا، منهجها لا يقبل هذا؛ هي تُناقش الصحابة –رضي الله عنهم– وتستدرك عليهم بالرواية؛ أي بالنقل، وبالعقل كذلك (منهج)، ولذلك التاريخ نقرؤه بعين الناظر المحقق ونقرؤه بعين المؤمن.

القراءة تصنع المثال:

وهنا ندخل لقضية مهمة؛ وهي أن القراءة عندنا هي التي تصنع المثال وهو ضرورة التربية؛ فمن أضعف وسائل التربية: الموعظة، لا بد أن تتشارك الموعظة مع شيء مهم هو ركن من أركان التربية وهو وجود المثال، التربية بالمثال هي أعظم مناهج التربية، أن تقول له: {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ}، أن ترفع له المثال وتقول: هكذا تكون، حتى في الإيمان قال: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا}.

ولذلك المثال في التربية مهم جدًا، وحرص القرآن عليه مهم جدًا، والرجال وإن كانوا من غير الأنبياء غير مقدَّسين ولا عصمة لهم، ولكنهم يُصبحون في وقت من الأوقات جزءًا من المنهج، وتصبح محبتهم جزءًا من المنهج، وكما أن القرآن ذكر عن إبراهيم –عليه السلام– في براءته من المشركين: {أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ}، قال: "أف"، قبل أن يقول: لمنهجكم، قبل أن يقول: لدينكم، قال: {أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ}، وقال: {إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ}، فذكر الرجل قبل المنهج، فكذلك من جهةٍ مُقابلة كما أن البراءة من رجال منهج الباطل قبل الباطل هو منهج قرآني؛ كذلك اعتبار الرجال الصالحين في المنهج، كذلك هم من المنهج.

وهذه قضية مهمة وهي قضية أصولية وقضية من ديننا، ولذلك نحن في القراءة علينا ألّا نجعل القراءة مجرد ثقافة تنمو بها عقولنا، ولكن القراءة هي تربية ومنها إحضار المثال دائمًا، فيكون قصدك أن تتعلم من أجل أن تُرقِّي مراتبك، ولذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– عندما رغَّبنا بالقرآن قال: (مَثَلُ المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة)؛ طيّب في نفسه لكن لا رائحة له، لا يصنع المثال لا يصنع النموذج، لا يصلح للإمامة، لا ينتقل خيره للناس؛ لأن القرآن هو مادة حمل الخير للناس، ولمّا قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (ومثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُترُجّة ريحها طيب وطعمها طيب)، فذكر فضلًا داخليًا فيه وذكر فضلًا خارجيًا فيه؛ إذًا المثال مهم جدًا في ديننا.

وعندما يسأل أحد: لماذا تجعلون أبا بكر وعمر من الدين؟ ذلك لأن هؤلاء حملة الدين، فإذا سقطوا سقط الدين.

ومن أهم ما يجب على المرء أن يقرأه: أن يقرأ الرجال، وهذا مما حضّ عليه أئمتنا حتى كان يقول سعيد بن المسيّب –رحمه الله–: "ذِكر عُمَر عِبَادة"؛ لأن ذكر عمر يذكّركم بالعدل، يذكّركم بالتقوى، يذكّركم بالصلاح، يذكّركم بالأخذ بالدين بقوة إلى آخر ذلك، فهو دين.

الذين يطعنون بالرجال تحت ادّعاء أنهم لا يطعنون في المنهج، في الحقيقة هم يطعنون في المنهج، يطعنون في الدين، وهذه لعبة إبليسية يجب علينا أن نحذر منها، لا يمكن لأحد أن يقول: بأنني أعبد الله ولكن لا أصدق الرسول، نقول له: كفرت، ولا يمكن لأحد أن يقول: أنا أصدق الرسول ولا أصدق الصحابة، نقول: كفرت، ولا يمكن أن يقول أحد –هكذا على الجملة–: أنا أصدق الصحابة ولا أصدق التابعين، نقول له: كفرت، لماذا؟ لأنه في الحقيقة لازم هذا القول أنك تُبطل الدين وتنسفه من أُسسه.

فلا بد من النموذج، نحن نقرأ عن علمائنا لأننا نقرأ القرآن، والأمة ورثت من رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه (كان خُلقه القرآن)، وهي خاصة وكاملة في رسول الله، لكنها سَرَت في الرجال، والنفس متطلعة إلى الانعتاق من التكليف تحت دعوى الخصوصية ولكنها مجذوبة إن خرجت لشخص الرسول –صلى الله عليه وسلم– لزومًا، يعني عندما قال الصحابة: "لسنا كرسول الله"، هذه موجودة في كل عصر، ولكن إذا خرجنا من شخص الرسول –صلى الله عليه وسلم– وجدنا رجالًا لا فرق بينهم وبيننا في التكوين البشري ولا في أساس الفطرة الإنسانية، ومع ذلك ارتقت هذه المعالم فيهم.

ولذلك القراءة هي أولًا من أجل صناعة الحكمة ومن أجل صناعة التعبّد، ومن أهم مراحل صعود المرء في مراتب الحكمة ومراتب التعبد هو أن يكون أمامه المثال، وإذا أخطأنا المثال فقد أخطأنا، وإذا تشوّه المثال لدينا فقد تشوّهت الصورة التي ندخل فيها، فنحن نبحث عن صورة نريد أن نقلدها.

ما هي أركان الشخصية الإسلامية؟

أركان الشخصية الإسلامية:

أولًا: هو **التوحيد** وذلك يعني البراءة من الشرك، فالمرء يتحرّر، أول مبدأ من مبادئ الشخصية الإسلامية هي التحرر التي يصنعها التوحيد، ليس هناك علاقة إلا مع الله، هذه قوة الإمداد في نفسية المسلم الصحابي، فالتوحيد يعني عبادة الله يعني امتثال أمر الله، {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}.

العماد الثاني والركن الثاني من أركان الشخصية المسلمة هو: **الاتباع** لأن الإنسان مفطور على الدخول في الصورة، على التقليد، وأنتم عندما تدخلون بيوت أبناء بعض الناس فتجد صورة الممثِّل وتجد صورة المغنِّي وتجد صورة لاعب كرة القدم، هذا أمر فطري لكنه صُرف في غير مجاله الصحيح، وإلا فالإنسان من طفولته إلى يوم وفاته وهو في ذهنه صورة يريد أن يدخل إليها، صورة نموذجية هي التي سميناها "المثال"، يريد أن يعيشها، يتنفس مثلها، يحكي حكاياتها، وعندنا نحن الصورة

هذه ملأها الشرع، حتى وهو يتعامل مع أعظم شخصية في الوجود -وهي شخصية الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم- أوقف له مرايا أمامه، هم الأنبياء وقال له: {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ}، قال له: {اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}، نَسَب الملة إليه مع أنه هو التوحيد، ولكن نسب الملة إلى رجل؛ هذا لأن الفطرة تقوم على هذا.

فنحن نريد أن نصنع المثال، وأنت تقرأ لا تكفي الكلمة، الكلمة هذه قد تصنع شيئًا كثيرًا من الحق، لكنها كذلك لا يمكن أن تصنع التوازن لوحدها، ولا يمكن أن تصنع دَفْق الإرادة لوحدها، ولا يمكن أن تدفع أنت عنك نوازع الشيطان إلا بوجود المثال.

النص وقراءاته:

النص يمكن أن تقع عليه قراءات؛ فالنص الواحد لا يفيد عادةً معرفة واحدة لتقرأه مرة واحدة ثم تأخذ هذه المعرفة ثم ترحل، وتترك النص بعد ذلك جثة هامدة، قد أخذت منها المقصد ورحلت عنها، هذه طريقة يظن البعض أنها سديدة، فيتخيل أنه قرأ كتاب (البداية والنهاية) مثلًا، وهو قرأه مرة واحدة، هو في الحقيقة لم يقرأه؛ لأن هذا الكتاب لا يمكن أن تستوفي منه أغراضه العلمية بقراءة واحدة، لا بد أن تقرأه مرات، وأنا لا أقصد بالقراءة مجرد الاطلاع، فـ"قرأ" بمعنى "جمع"؛ لأن القراءة أُخذت من الجمع، كذلك الكتابة؛ أصل كلمة "قرأ": "جمع"، وأصل كلمة "كتب": "جمع"، لذلك تؤخذ منها كلمة "كتائب"، ما معنى كتائب؟ يعني جمع إنسان وراء إنسان يسمى كتيبة، فأصل كلمة قرأ في المعنى هو أصل كلمة كتب، فالقراءة هي اطّلاع المرء على ما كتب، فأولًا لك أن تقرأ بمعنى أن تجمع ما يريد الكاتب من كتابته، وربما أن تجمع ما لا يريده الكاتب.

فإذًا الكتب الجامعة -وخاصة الكتب التي كُتبت لمقاصد عدة- لا يمكن أن تستوفي منها أغراضها بقراءة واحدة، ولذلك لما سألني أحدهم لماذا قرأت مثلًا (الرسالة) أكثر من مائة مرة؟ الجواب: لكل قراءة مقصد، أنا أريد أن اقرأ (الرسالة) أولًا لكي أعرف أصول الفقه، وهذا هو الوضع الأول لهذا الكتاب، يذهب إليه طالب العلم الأصولي ليعرف آراء الإمام الشافعي من كتاب (الرسالة)، وفي أسبوع واحد تستطيع أن تستوفي مقاصد الإمام بالنسبة لهذا الموضوع. لكن ما يُطرح أمامك من قضايا تعود إليه قراءة بعد قراءة: أنت انتهيت من المسائل الأصولية؛ فهل للشافعي ذوق بياني في الشعر؟ هل للشافعي ذوق بياني في لغة العرب؟ فتذهب تتقفَّر، لأنك سمعت الجاحظ يقول: "قرأت كلام هؤلاء النُّبغاء فلم أجد أفضل كلامًا من كلام الشافعي"، أين هذا الذوق؟ أنت في القراءة الأولى لم يكن هذا نظرك، كانت تفوتك هذه الجماليات في كلام الشافعي، فلا بد أن تعود إليه مرة أخرى.

لما تقول: كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ؛ فهو كتاب يتحدث عن الحياة، هذا نموذج، لماذا كتاب (الاعتبار)؟ هو وَضَعه لهذا العنوان؛ لأنه أراد لمن يقرأ الكتاب أن يعتبر، لما يحدث قارئه من أحداث، يقول له: اعتبر، اتعظ.

فهو أراد الاعتبار، أراد القصص؛ لكن هذا أنت تقرأه على هذا المعنى -أنك اعتبرت-؟

هو يريد أن يقول لك أن الموت لا يأتي بأسبابه التي يخافها الناس، الناس يخافون الموت، لذلك يهربون من المعارك، يقول إن الذين رموا أنفسهم في المعارك لم يموتوا، إنما مات الذي هرب منها، فمات لما وضع قدمه -كما في القصة- في زربوله، زربول هي كلمة رومانية تعني البسطار أو الجزمة باللغة الشامية، لأنهم يلبسون الثياب الثقيلة، فوضع رجله فإذا فيها عقرب لدغته مات، فهو هرب من المعارك، وأبوه خاض الحروب كلها ضد الصليبيين والإسماعيليين، ومات على فراشه، لذلك فاعتبر، يقول لك أنت تنتهي بالموت، ولكن هل هذه القراءة كافية؟

أنت تعود إليه لتقرأ الحياة الاجتماعية؛ ما هو دور المرأة في تلك الفترة من حياة هذه الأمة، أسامة بن منقذ رجل عاش تقريبًا مائة عام، ذُكرت سنة وفاته وسنة ولادته، وهو لأنه من أبناء الأمراء، وكما يقول الأستاذ الإمام محمد أبو زهرة: "أن عامة الأئمة لا يُعرف وقت ولادته لأنهم وُلِدوا مغمورين، لكن عُرِف وقت وفاتهم لأنهم ماتوا مشهورين"، هذا بخلاف ابن حزم ذكر وقت ولادته، وساعتها، ومكانها؛ لأنه ولد ابن وزير، لذلك عُرِف وقت ولادته. وكذلك أسامة بن منقذ هو ابن أمير، فعُرِف وقت ولادته، هذه قضية اجتماعية، إذًا الحياة الاجتماعية أنت تدرسها.

لباس الناس، أنت تذهب لكتاب (الاعتبار) لتعرف ماذا كان يلبس الناس في تلك الحروب، أنت تريد أن تعرف العلاقة بين الغالب والمغلوب، بين المتصارعين، هل هناك كانت حياة اجتماعية بين الصليبيين والمسلمين؟ كان هناك أصدقاء من الصليبيين يدخلون على المسلمين؟ أنت تريد أن تعرف كيف كان يتعامل الصليبيون مع الأسرى؟ هذه قراءة أخرى تختلف، أن تريد أنت تعرف كيف يُربَّى أبناء الأمراء، لا أبناء المغمورين، أبناء الأمراء، ما كانوا يربونهم في الفنادق ولا في الملاهي، كيف كان الأمراء يربون أبنائهم؟ كيف رُبِّي أسامة بن منقذ؟

إذًا النص الواحد لا يُخرج كنوزه بقراءة واحدة، من أجل هذا قلنا النص له قراءات، يجب أن تفهمها ويجب أن تعرفها، يجب أن تنظر فيها، هذه القراءات هي التي توسع لك المدارك فتُنتج.

دائمًا انتبهوا أن الأئمة الأوائل يضعون العناوين ويُفرغون فيها إبداعهم، يضعون سر الكتاب في العنوان، -وليس هو كالسجع المقيت هذه الأيام-، كما أننا قلنا قبل مرة أن الأئمة يخرجون إبداعهم في المقدمات، كذلك عناوين الكتب، يهتمون بها اهتمامًا عظيمًا.

افتراق النص عن كاتبه:

يجب على القارئ أن يضع حاجزًا بينه وبين الكاتب، أكرر هذه النقطة لأهميتها لكيلا يبتلعك الكاتب؛ وهي افتراق النص عن كاتبه.

من المهم جدًا قبل أن تقرأ نصًا أن تعرف كاتبه، وهذه القضية مُسلَّم بها لأسباب كثيرة:

منها أن النص قد يعجز بذاته عن الإبانة عن مراد صاحبه حتى تعرف الكاتب كله في شخصيته وعماد صورته، فكل إنسان له عماد الصورة، عماد الصورة هي الفكرة المكوِّنة له، أو هي العقيدة التي تنبثق منها أفكار هذا الرجل، وتنبثق منها كلماته وكتبه، ومرات الكاتب تشتبه كلماته في مراده وتشتبك، فلا بد أن تعرف من الذي يقول هذا الكلام، وحين تعرف الكاتب؛ تستطيع أن تغوص وتدور في مدارك ما يقوله.

وهذه قضية ملتبسة مشكلة؛ فنحن نقول: عليك أن تعرف الحق دون أن تعرف رجاله، كما قال الإمام علي -رضي الله عنه- وقد جُودل في مسألة خلافه مع عائشة وطلحة والزبير، قال: "لا يُعرف الحق بالرجال"، إنما قصده أن يقول إنما يُعرف الحق بالحق، اعرف الحق تعرف أهله.

إذًا القضية الأولى بالنسبة لنا هي أن تقرأ النص بعيدًا عن كاتبه، وهنا أفتح قوسًا وأقول: (بلا شك أن هناك شيئًا اسمه "علم نفس الدليل" -سيكولوجية الدليل-)، كيف؟ وهذه أنا أضطر إليها، وكل كاتب يضطر إليها، وهي إحدى التطبيقات قوله -سبحانه وتعالى-: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ}، ومِن لسان قومه أن تعرف الشخوص المؤثرين في هذا الإنسان من أجل أن تطرق الحق الذي يغيب عنه من خلال ما يعرفه ويحبه. أتكلم عن نفسي؛ مرات أعرف نصًا للشافعي، وأعرف أن ابن تيمية قد قاله، وأنا أعرف الناس، فأقول: "قال ابن تيمية"، مع أنه في أي باب من أبواب الدين ليس ابن تيمية يقارب الشافعي، لا في العربية، ولا في الأصول، ولا في الفقه، ولا في الحديث، لكنني أضطر أن أقول: "قال ابن تيمية"؛ لأني أعلم أن الذي أمامي مفتاح قبوله للكلام أنه يُمهَّد له بذكر ابن تيمية. ولما أريد أن أفتي في

موضوع صدقة الفطر أنه يجوز أن تُخرج مالًا، لا أقول: "قال أبو حنيفة"؛ لأني لو قلت: "قال أبو حنيفة"، ستجد الناس تقول: "من أبو حنيفة؟!" لكني أضطر أن أقول: "قال ابن تيمية".

إذًا كيف نوفِّق بين هذه القضية -وهي قضية ضرورة معرفة القائل- وبين أن النص يحمل سمته بنفسه؟

لا بد أن ينشأ لدينا علم الجرح والتعديل كما نشأ عند أئمتنا، وهو العدل، وهو أنه لا بد أن نُفرِّق بين النص وقائله بميزان.

الناس لا يعرفون أن كتب العلماء هي كتب منهجية، حتى وهم يُرتِّبون الروايات، هنا أفتح فقط رَوْزَنَة -نافذة صغيرة- على طرق كتابة العلماء السابقين لكتبهم المبنية على الرواية؛ يأتي الجاهلون ممن لا يعرفون قيمة السلف ولا يعرفون عقولهم فيرونها كتب رواية، أي أنهم فقط نَقَلَة؛ إذا جاء الرجل إلى كتاب (تفسير الطبري) لا يرى فيه عقل الطبري ولا يرى علمه، فقط يرى حفظه، لا يرى عقله، لا يرى إبداعه، ينظر فقط إلى سعة اطلاعه وإلى جمعه لروايات المفسرين السابقين، ولا يرى منهجًا.

وهذا من الانحراف؛ الاختيار منهج، كان هناك عند علماء الحديث شيء يسمى الانتقاء، أو المُنتَخَب، -ولا أريد أن نقف عندها، يُرجع إليها في كتب المصطلح-، ما معنى المنتخب؟ ما معنى الانتقاء؟ الانتخاب هو الانتقاء، منهج نقدي صارم، هو إعمال هذا المحدِّث لأعلى درجات النقد لقضية ترتيب وسوق الأحاديث:

عندما يأتي واحد ويقرأ (سير أعلام النبلاء) -وعامة مكتبات الشباب تحتوي على هذا الكتاب-؛ فهو لا يرى الذهبي فيه، يرى أخبار السابقين، لكن لا يرى المصنف ومنهجيته وعقليته فيه؛ السبب أنهم جهلة لا يعرفون المادة التي أنشأت هذا الكتاب: كيف قبِل الذهبي هذه المادة ورفض غيرها مع أنها عنده، لماذا قبل ورفض؛ هذا منهج.

عندما يأتي الذهبي في (سير أعلام النبلاء) ويقول عن رجل: بأنه العاقل الذكي الألمعي، وأنه مع ذلك من القائلين بكذا وكذا من العقائد البدعية الجبرية، هذا التمايز في قراءة الشخص هو ما نحتاجه هنا، ما الذي أبدع فيه، وما الذي أخفق فيه، طريقة الكيل بمكيال واحد لا تنفع في قراءة الشخص، يجب أن تقرأ الشخص، وكما قلنا سابقًا: "النص له قراءات"؛ فالآن نقول: "الكاتب له قراءات"، يجب عليك أن تعرف ما الذي تأخذه من هذا العالم، ما الذي ترده، ما الذي تقبله، ما الذي ينفعك فيه، وما الذي لا ينفعك فيه، هذه طريقة أهل الحديث، في افتراق النص عن كاتبه.

يجب أن تفرق بين النص وبين كاتبه، بحيث تقرأ النص قراءة منفصلة عن بقية مكونات هذا الكاتب، ولذلك عندما أقول: "قال الجاحظ" أعرف العقل الإسلامي المتخلف، خاصة العقل السلفي المعاصر، كلمة "الجاحظ" تثير الاشمئزاز، لما أقول: "قال أبو حيان التوحيدي"، وهو زنديق –يقول ابن الجوزي: الزنادقة ثلاثة؛ رأسهم وإمامهم أبو حيان التوحيدي وليس الأندلسي صاحب التفسير–، هذا لا بد أن تقرأه، هو جزء من تكوين تاريخك الإسلامي، وجزء من الثقافة التي أنشأت مجتمعًا إسلاميًا، وكان فيها حروب يجب أن تعرف فروعها.

فأنت لمّا تستَدِل به لا يعني أنّك زكّيته، ولا يعني أنك أخرجته ليكون إمامًا مُتَّبعًا في الدين، أنت أخرجته على طريقة المحدثين، هو محدِّث صدوق، صادق ومرجئ أو خارجي، فالبخاري روى عن مرجئة وعن قدرية، وروى عن خوارج، لأن هذه محنة الحق؛ الحق له مصدره وحقله فيُمكن أن يُقبل وحينئذ لا يوجد فتنة، لكن أن يأتي الحق من غير سبيله هذه فتنة.

كون الصراع في منطقة هي الخطأ ومنطقة هي الصواب، منطقة هي السنة ومنطقة هي البدعة، لا يعني أن كل ما صدر عن منطقة البدعة هو بدعة، ولا على أن منطقة السنة لا تُنشئ إلا سنة، هذا خطأ...

إذًا يجب أن نُفرِّق بين النص وبين كاتبه، ويجب علينا كذلك أن ندخل النص من خلال قراءتنا لكاتبه، لا لنحمل ما نعرفه عن كاتبه لنقبل النص أو نتركه؛ بل من أجل أن نقرأ النص من خلال رؤيتنا لعمود صورته، حتى لا نخطئ، حتى نعرف هذه العبارة ما موقعها من جغرافية الفكر وما هي جغرافيتها من الكتابة.

...

فيجب علينا أن نعرف الكتاب ما هو منهجه، وما هي خارطته باعتبار نفسه بعيدًا عن الكاتب باعتبار صورته ما هو، وإلا إذا طبقنا طرائق بعضهم من المعاصرين؛ حرقنا كتب السنة، كما قام بعضهم بإحراق (فتح الباري) لأن ابن حجر أشعري، وهذا ما كنت أصدقه، ما ظننت أحدًا –ممن يُسمّى في خلق الله بالإنسان– أن يأتي إلى (شرح صحيح المسلم للنووي) ويحرقه، ويزعم أنه من طلبة العلم!! ما صدقت أن بشرًا يفعلها، وهذه لم يفعلها قط أحد من الأئمة، قد يقول قائل أن الإمام مالك كان ينفِّر من أهل البدع، نقول: الإمام مالك كان في زمنه المحدث من أهل السنة، والفقيه من أهل السنة، وصاحب العقيدة لأهل السنة، لماذا يذهب إلى أهل البدع؟ اليوم إذا تريد الفقه يجب أن تذهب إلى من هو أشعري، وإذا أردت اللغة يجب أن تذهب إلى من هو صوفي، وإذا درست العقيدة يجب أن تذهب إلى من هو سلفي، وهو من أجهل خلق الله في الفقه أو اللغة، إلى آخره، العلوم قد افترقت، وشيخ الإسلام له نص في (الفتاوى)، يقول أنه تلقّى العلم عن آبائه وفيهم بدع، يقول: "لما نشأت في بداية الطلب كان في آبائي مذهب"؛ ويقصد الإمام بذلك أن عامة

الحنابلة في زمنه كان مذهبهم هو مذهب التفويض، من زمن ابن قدامة يقرِّرون أن مذهب أهل السنة هو التفويض، أي تفويض المعنى، وهو خلاف أهل السنة فأنكره، ومع ذلك فمن أين أنتج ابن تيمية علومه في أصول علومه وعلوم الآلة؟ من آبائه، في الأصول من آبائه، في اللغة من آبائه، في التفسير من آبائه، وكانوا على هذا، فهل جاء إليهم وكفّر آباءه؟ هذا لا يفعله إلا جاهل.

فيجب علينا أن نتعامل بعلم الجرح والتعديل كما عند السلف، وذلك بالتفريق بين النص وكاتبه، فالحق نقبل به إن جاءنا من أي جهة، وهذه تحتاج إلى معاودة كتب في هذا الباب، ومعرفة كلام علمائنا في قبول السني، وأن السني قد يُخطئ، والبدعي قد يُصيب، وأن من اعتاد الخطأ قد يصيب، ومن اعتاد الصواب قد يخطئ، وكل ذلك من أجل أن تكون محنة في الناس من أجل أن ينظروا إلى الحق وليس إلى شخصه، هذا من العدل والإنصاف، وهذا إن أخطأناه كفّرنا الأمة.

وهذه النقطة التي نتكلم عنها، لا تظنوا أنها بينة واضحة، لأن الآن من يخالفنا في مسألة ضلَّلْناه، وهناك من خالفنا في مسألة فكفّرناه، هناك من يُكفِّر في خلافه في المسائل، يجعل أمورًا من أصول الدين ويكفِّر من خالفها، وبالتالي يكفِّرون علماءً ثقاتٍ أثباتًا كالجبال، يكفرونهم! ولما قال حسن البنا: "يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه"؛ قال: "فيما جاز فيه الاختلاف"، ما الذي يضبط ما جاز فيه الاختلاف؟ ما دام الرجل مسلمًا وتأويله سائغ؛ يُعذر، وليس معناه ألا يُرد عليه، لا يعني ألا يُخالف، لا يعني ألا يناظره، لا يعني ألا يخطِّئه، لكن في سبيل قيام الإسلام هذا هو الحق، وهي كلمة صحيحة حين تُطبَّق التطبيق السُّني الصحيح، أن يعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه على معنى ألا يكفِّره وألا يخرجه من الملة، ليس معناه إيقاف المناظرة، وإيقاف الدعوة، وإيقاف الرد، هذا حق العلم.

إذًا النقطة الأولى أيها الإخوة علينا أن نتعلم كيف نقرأ النص بعيدًا عن كاتبه، من خلال ما وضّحناه، حتى تستقيم لنا القراءة، وإلا فنحن نقرأ للكفار ونستفيد منهم، نقرأ لمن يتكلم ونأخذ منهم، وهذا الكلام بيِّن، وإلا فلو أردنا أن نُزيل كل كتاب في الوجود اختلط فيه بعض الخطأ بالصواب لرمينا كل الكتب إلا ما شاء الله، وهذه قراءة.